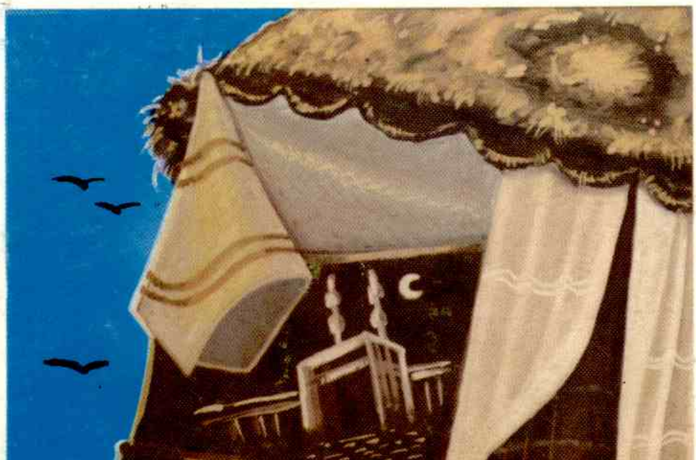
ملخص رحلتي ابن عبد السلام الدرعي المغربي



عرض وتلخيص **حمد الجاسر**

في رحاب الحرمين — أشهر رحلات الحج

١

ملخص رحلتي ابن عبد السلام الدرعي المغربي

عرض وتلخيص

حمد الجاسر

الطبعة الأولى
شوال ١٤٠٢هـ
اغسطس ١٩٨٢م

الطبعة الثانية
رمضان ١٤٠٣هـ
يونيه ١٩٨٣م

منشورات
دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع

الغلاف من ريشة الفنان : محسن منصور

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم :

رغب أخي الجليل قدرا وعلما وخلقا (أبو عمار) أن أُقدم لداره العامرة بالعمل والعلم النافع (دار الرفاعي للنشر والطباعة) ماهو جدير بأن يقدم لمن اعتاد أن يجد فيما تقدمه تلك الدار من الإفادة فكرا، والإمتاع أسلوباً، والسهولة فَهماً ـــ مما يتلاءم مع رغبات جمهور القراء، في زمن طغت المادة فيه على الناس على اختلاف طبقاتهم، طغيانا شغل كل جوانب حياتهم، واستغرق جميع أوقاتهم، فصرفهم عن التعمق في أية وسيلة من وسائل الفكر، قراءة أو استماعا أو مشاهدة، واكتفوا من كل ذلك بما لايُجْهِدَ ذِهْناً، ولايُتْعِب فكرا، ولايستغرق زَمناً.

ولكن أنَّى لمن اعتاد أن يعيش بعيدا عما حوله، متغلِغلا في مجاهل الماضى، تغلغلا ملك مشاعره، وصرفه عن مألوف الناس في مختلف أنماط حياتهم ـــ أنَّى لمن هذه بعض صفاته ـــ أن يقدم لهم مايهوون و يألفون؟!

لقد كنت جمعت قدرا صالحا من رحلات الحج، نشرت من بعضها خلاصات تتعلق بالمدينتين الكريمتين، وتصف الطرق الموصلة إليهما، وهى خلاصات وأوصاف مبعثرة، وعلى إمتاعِها وجزالة نفعها لم يَحْوِها كتاب ـــ نشرتها في مجلة **((العرب))** في خلال بضعة عشر عاما ـــ أى منذ عام ١٣٨٦ ـــ حيث بدأت بتلخيص رحلة النابلسي في السنة الأولى من سني المجلة ـــ إلى هذا العام (١٤٠٢) الذي نشرت فيه ملخص رحلة الشيخ محمد بن صالح القيرواني التميمي (١٢٨٧/١٣٦٢هـ).

وقد فكرت في ترتيب تلك الرحلات ـــ بعد دراستها ـــ وجمعها في مؤلف واحد، يحمل عنوان **((في رحاب الحرمين))** أضمُ فيه كل موضوع إلى مايلائمه، فأفرد ـــ مثلا ـــ مايتعلق بوصف المشاعر المقدسة، المتعلقة بالحج، ومافي البلدتين المقدستين من آثار كريمة في مبحث خاص، وهكذا أصنع في جميع الموضوعات التى تعرضت لها تلك الرحلات، مما له صلة بهذه البلاد، وأراعى في كل ذلك

التسلسل الزمني منذ أقدم رحلة اطلعت عليها حتى نهاية القرن الثالث عشر الهجري.

ومن المعروف أن أساليب كتابة الرحلات يراعى فيها ــ غالبا ــ الوضوح وعدم التكلّف، ثم هي بما تحويه من تَنْويع، تنقل من موضوع إلى موضوع، فتُمْتِعُ الفكرَ، وتزيل عنه السأم، وتجدد فيه النشاط لمواصلة القراءة.

أفلا يكون في تقديم أنموذج لتلك الرحلات ــ مما لم يسبق تقديمه ــ مايحقق الرغبة التي أبداها الأستاذ الكريم؟.

مع ملائمة وقت التقديم، حيث آن أوان التطلع إلى الالتقاء بوفود الرحمن، من إخواننا من مختلف الأقطار الإسلامية لأداء الحج.

ومن بين أولئك الإخوة من لايزال يستشرف إلى أثَارَة علم عن هذه البلاد الكريمة ليعدّها خير ذخيرة يعود بها إلى وطنه، ويذاكر بها إخوانه، ويتحذ منها ذكرى متجددة عن هذه البلاد وأهلها ــ مدى حياته ــ .

هذا هو خير ماستطعت أن أحقق به تلك الرغبة الكريمة.

وماهو سوى أثر من آثار عالم جليل، أبحتُ لنفسي من التصرف فيه ماأرجو أن لاأكون فيا فعلت ملوما، فقد لخصت كل مايتعلق بالمدينتين الكريمتين، وبوصف طريق الحج من القاهرة إليها، تلخيصا حافظت فيه ماستطعت على الأصل.

بعد أن وصفت بإيجاز ماعرفته من رحلات الحج، وصفا أردت به أن يكون مدخلا لمن أراد أن يتجه إلى موضوعاتها المختلفة بالدراسة والبحث، بعد أن عرضت ــ بإيجاز ــ أنموذجا حسنا منها لم يسبق عرضه. وقد يقال بأن من الرحلات ماهو أولى بالتقديم، كرحلة العياشي (ماء الموائد) ورحلة ابن ناصر الدرعي (الرحلة الناصرية) وقبلهما رحلات: ابن جبير والْعَبْدَرِيّ وابن بطوطة، إلا ان تلك الرحلات التي سبق ذكرها قد طبعت، فأصبح الاطلاع عليها سهلا ميسوراً لمن أراد ذلك من الباحثين، ولهذا كان البدء بعرض رحلة ابن عبد

السـلام مـنـاسـباً، وقد يتسنى عرض تلك الرحلات التي سبقتها أو التي تأخرت عن زمنها ــ قد يتسنى ذلك. والله الموفق.

أمـا غـاية عملي المتعلق بتلك الرحلات فآمُلُ أن أجد من الالتفات إلى هذه الناحية المتصلة بتاريخ أمتنا أوثق اتصال ــ مايُمَهّد لي ــ سبل الاستمرار فيه.

ولأبى عمار ــ رعاه الله ــ من الفضل في استذكار هذا الأمر، بل في ثقته وحسن ظنه ماهو به أهل الشكر والتقدير.

حمد الجاسر

الرياض في ٢٣ ربيع الأول ١٤٠٢

القسم الأول

رحلات الحج

رحلات الحج

لم تنل كتب الرحلات التى أُلفتْ في وصف الحج ومشاعره المقدسة وآثاره، ووصف المدينتين الكريمتين **(مكه)** و **(طيبة)** ماتستحقه من الدراسة، مع اعتبارها من أوفى المراجع وأوثقها، وأشملها، فيا يتعلق بالحجاز من النواحي التاريخية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والجغرافية، منذ تدوين تلك الرحلات إلى عصرنا الحاضر.

مكة المكرمة من الناحية الثقافية:

.. ولقد كانت مكة ــ وماتزال ــ نقطة التقاء ومركز تجمعٌ لجميع المسلمين من مختلف الأقطار الإسلامية، ولهذا كانت من أقوى مراكز نشر الثقافة بين تلك الأقطار وكانت صلة وصلِ بين علماء الأقطار الإسلامية في شرق البلاد وغربها، وشمالها وجنوبها في مختلف العصور الماضية، ومع انصراف العلماء وغيرهم عن الجزيرة العربية بعد الهجرة بما يزيد على نصف قرن من الزمان أي منذ انتقال مركز الخلافة منها وبانتقال الخلافة والسلطان والدولة تنتقل الرغبات، وتتجه الأبصار وتتركز الآمال حيث يوجد الملك والسلطان، اللذان بهما تتيسر سبل الحياة وتحصل الطمانينة والهدوء في كنفهما ــ مع ذلك الانصراف فإنَّ مكة المكرمة لها مكانة دينية في نفس كل مسلم تجعلها دائما ــ مابقى المسلمون ــ مطمح أنظارهم فهي ــ فضلاً عن كونها تضم مشاعر الحج ــ وفيها بيت الله المعظم الذي فرض الله حجه على كل مسلم بالغ قادر، هي ملتقى للمسلمين من مختلف اقطارهم وهم بحكم دينهم الحنيف ــ لايمكن أن ينصرفوا عنها ولهذا فقد اصبحت منذ جاء الإسلام مركزاً للثقافة الإسلامية العربية، يجتمع فيها من العلماء في كل عام مالا يجتمع في أية مدينة أخرى من مدن الإسلام.

وكان العلماء في العصور الأولى يقصدونها من مختلف أقطار العالم الإسلامي ليؤدُّوا ركنا من أركان دينهم أداؤه فرض، وليضيفوا إلى ذلك أمورا من أهمها

التزود بزاد العلم والمعرفة، فالعالم يفد إليها من أقصى المشرق أو المغرب فيلتقي بعالم آخر من بلاد بعيدة عن بلاده فيحصل من هذا الالتقاء تقارب وتفاهم، واستزادة علم، وامتداد لروافد المعرفة، وانتشار للأفكار بين مختلف الأقطار الإسلامية، ولقد كان علماء الأندلس يفدون إلى مكة المكرمة لاللحج وحده ولكن لينشروا علماً وليستزيدوا منه، وليكونوا صلة بين شرق البلاد وغربها بالعلم والثقافة.

ولو أراد باحث أو دارس أن يحاول التأليف عن صلة الأندلسيين بمكة من الناحية الثقافية لوجد الأمر أوسع مما يتصور، ولنستعرض كتابين عن الأندلس أحدهما، «نفح الطيب» للمقَّري ــ القاف مفتوحة مشددة ــ والثاني «فهرست مارواه أبو بكر محمد بن خير الاشبيلي» استعراضاً سريعاً لمعرفة بعض العلماء الذين رحلوا من الأندلس إلى مكة فيما بين القرنين الثالث والسابع ممن كانوا رسل علم، وحملة ثقافة ومعرفة، **ففي القرن الثالث** نجد من بين أولئك العلماء:

١ ــ يحيى بن يحيى الليثي (٢٣٤هـ) راوي الموطأ. تلقى العلم بمكة عن سفيان ابن عيينة وغيره.

٢ ــ ثابت بن حزم السرقسطي وابنه قاسم سمعا بمكة سنة ٢٨٨ من الهجري وغيره.

٣ ــ زكريا بن خطاب التطيلي: رحل من الأندلس سنة ٢٩٥ فسمع بمكة كتاب «النسب» لعالم الحجاز الزبير بن بكار المتوفى سنة ٢٥٦ سمعه من الجرجاني عن علي بن عبد العزيز عن مؤلفه، كما سمع بمكة «موطأ مالك» من إبراهيم بن سعيد الحذاء، وكلمة (سمع) باصطلاح المحدثين تعني أنه تلقى وأخذ وسمع شيخه يحدث بذلك الكتاب.

٤ ــ يحيى بن عبد العزيز القرطبي ٢٩٥هـ سمع بمكة من علي بن عبد العزيز.

٥ ــ قاسم بن أصبغ ٣٢٤/٢٤٧ تقريباً: هذا من أشهر العلماء، وقد أخذ العلم بمكة عن محمد بن إسماعيل الصائغ وعلي بن عبد العزيز.

٦ ــ محمد بن عبد الله الخولاني (٠٠٠/٢٩٥هـ) سمع بمكة من علي بن عبد العزيز وغيره.

وفي القرن الرابع: نجد من بين أولئك العلماء:

١) محمد بن عبد الله بن يحيى (٢٨٤/٣٣٩) وهو من أجلة علماء الأندلس وكبار قضاتها وممن أخذ العلم بمكة عن ابن المنذر والعقيلي وابن الأعرابي.

٢) محمد بن أحمد بن مفرج: سمع بمكة سنة ٢٣٧ من ابن الأعرابي وغيره وسمع بجدة وبالمدينة المنورة.

٣) عمر بن عبد الملك بن سليمان الخولاني، ذكر ابن خير في «الفهرست» أنه روى سنن أبي داود بسنده إليه. وهذا رواها عن ابن الاعرابي بمكة سنة ٣٣٩و ٣٤٠.

٤) عبد الرحمن بن خلف الاقليشي، رحل إلى مكة سنة ٣٤٩ فأخذ العلم عن أبي بكر الآجري وأبي حفص الجمحي.

٥) منذر بن سعيد البلوطي (٠٠٠/٣٥٥): تلقى العلم بمكة عن محمد بن المنذر النيسابوري، وعنه روى كتابه «الاشراف» في اختلاف العلماء.

٦) كما يروي ابن خير «صحيح البخاري» بسنده إلى محمد بن أحمد المروزي بمكة سنة ٣٥٣، وهذا يرويه بسنده إلى البخاري.

٧) ويروي ابن خير «تاريخ البرقي في رجال الموطأ» بسنده إلى علي بن أحمد بن شعيب بمكة سنة ٣٨٨ بسنده إلى المؤلف.

وفي القرن الخامس: نجد من بين العلماء الأندلسيين:

١ ــ عبد الوهاب بن محمد القرطبي المقرىء (٤٠٣/٤٦١) سمع بمكة على أبي العباس الكازريني.

٢ ــ عمر بن محمد السجزي الذي روى ابن خير بسنده إليه «صحيح مسلم» وقد حدث به بمكة سنة ٤٠٣.

٣ ــ و يروي ابن خير الاشبيلي «سيرة النبي» صلى الله عليه وسلم، لابن طرخان التيمي بسند إلى محمد بن أحمد بن عيسى بن منظور وهذا يرويها عن أبي ذر عبد بن أحمد الهروي قراءة عليه في المسجد الحرام عند باب الندوة سنة ٤٣١.

٤ ــ و يروي «سنن الترمذي» بسنده إلى محمد بن أحمد الاردشتاني بمكة سنة ٤٥٥ بسند إلى المؤلف.

٥ ــ و يروي كتاب «التلخيص في القراءات الثمان» لعبد الكريم بن عبد الصمد الطبري المكي بسنده إلى أحمد بن شعبان المقرىء عن المؤلف بمكة سنة ٤٧٣.

٦ ــ محمد بن عبد الرحمن الاشبيلي (٠٠٠/٤٥٠ تقريبا) تلقى العلم بمكة عن رزين بن معاوية إمام المالكية.

٧ ــ عمر بن حسن الهوزني (٠٠٠/٤٦٠) سمع في طريقه إلى مكة كتاب «صحيح البخاري» وعنه أخذ كثير من علماء الأندلس روايته.

وفي القرن السادس نجد من بين اولئك العلماء:

١ ــ محمد بن الحسين الميورقي: قرأ بمكة سنة ٥١٧ على عبد الله بن محمد البيضاوي، وعبد الله ابن أبي مسلم النهاوندي.

٢ ــ محمد يوسف المرسي: سمع بمكة سنة ٥٢١ من رزين بن معاوية.

٣ ــ محمد بن عبد الله العربي (٤٦٨/٥٤٣) الإمام المالكي الجليل، ذو التصانيف الكثيرة في الحديث وغيره، سمع بمكة الحسين الطبري وابن طلحة وابن بندار.

وله رحلة إلى المشرق نقل عنه ابن رُشَيْدٍ الفهري وغيره. ومنها قطعة نشرها استاذنا الدكتور إحسان عباس في مجلة «الأبحاث» قبل ثلاث سنوات، لاتختلف كثيرا عن القطعة التى ذكرها الكتاني، الموجودة في مكتبته في خزانة الرباط.

٤ ــ أحمد بن عيسى: سمع بمكة سنة ٥٤٧ «جامع الترمذي» من أبي الفتح الكرخي.

٥ ــ طارق بن موسى بن يعيش (٠٠٠/٥٤٩) سمع بمكة من الحسين بن علي الطبري وعبد الباقي الزهري، وعنه أخذ كتاب «الإحياء» عن مؤلفه الغزالي.

٦ ــ خلف بن فرج بن خلف: لقي بمكة سنة ٥٠٥ رزين بن معاوية الأندلسي ثم المكي، فروى عنه كتاب «تجريد الصحاح» من تأليفه.

٧ ــ الحسين بن محمد بن الحسن الأنصاري: (٠٠٠/٥٨٥هـ) روى بمكة «صحيح البخاري» عن علي بن حميد الطرابلسي.

٨ ــ مساعد بن أحمد بن مساعد الاصبحي (٤٦٨/٥٤٥) لقى بمكة أبا عبد الله الطبري فسمع منه «صحيح مسلم» ولقي أبا محمد بن العرجاء وأبا بكر بن الوليد الطرطوشي وأصحاب الإمام أبي حامد الغزالي.

وممن لقي امرأة تعرف بصبّاح، عند باب الصفا، وكان يقرأ عليها بعض التفاسير، فجاء بيت شعر شاهد فسألت: هل له صاحب؟ فسألوا الشيخ أبا محمد بن العرجاء فقال الشيخ: لاأذكر له صاحبا فأنشدت:

طلعتْ شمسُ مَنْ أَحَبَّكَ ليلا   واستضاءت فما لها من مغيب
إنّ شمس النهار تغرب بالليـ   ل وشمس القلوب دون غروب

٩ ــ محمد بن جبير (٥٤٠/٥٩٩) صاحب الرحلة المعروفة ومن رقيق شعره:

بدت لي أعلام بيت الهدي   بمكة والنور باد عليه
فأحرمت شوقا له بالهوى   وأهديت قلبيَ هَدْياً إليه

وقد تحدث في رحلته عن مكة وعن علمائها.

١٠ ــ إبراهيم بن منبه الغافقي سمع بمكة سنة ٥٥٥هـ «صحيح البخاري» من سلطان بن إبراهيم المقدسي عن كريمة المروزية، ونقل عن أبي ذّرٍ الهروي وهو

من علماء مكة، أنه قال عند موته: عليكم بكريمة، فإنها تحمل كتاب البخاري من طريق أبي الهيثم ــ يقصد ترويه بإسناد عال ــ .

وفي القرن السابع من أشهر أولئك العلماء:

١ ــ محمد بن عمر بن محمد المعروف بابن رُشيد ــ بضم الراء (٦٥٧/٧٢١) وهذا من أشهر علماء الأندلس، وقد قام برحلة إلى بلاد المشرق، ودوّن كثيراً مما شاهده بكتاب سماه «ملء العيبة» في خمسة أجزاء، بقي منها أربعة بخط المؤلف، وقد خص الحجاز بقسم تحدث فيه عن كثير من أحواله وذكر من اجتمع به فيه من العلماء، وقد نشرنا ذلك القسم في المجلد الثالث من مجلة «العرب».

٢ ــ محمد بن إبراهيم بن غصن الاشبيلي (٦٣١/٧٢٣) من كبار علماء الأندلس، وقدم مكة حاجاً فتصدى للتعليم فأقرأ القرآن بها، وممن قرأ عليه الشيخ خليل إمام المالكية، وشهاب الدين الطبري إمام الحنفية.

هذه إشارات ولمحات موجزة عن صلة علماء من أقصى الأقطار الإسلامية وأبعدها عن مكة المكرمة، وسيقول قائل: وماذا عن علماء العراق والشام ومصر؟ فالجواب: (شَبَّ عَمْرو عن الطوق!!) فصلات هذه الأقطار بأم القرى مما لا تتسع له صفحات بل تضيق عنه مجلدات الكتب، ولابد من الإشارة ــ ولو بإيجاز ــ إلى أن هذه الأقطار الثلاثة، وقد حفلت بالعلماء، وبما يحتاج إليه أولئك مما ييسر لهم سبل الحياة الناعمة الهادئة، قد اتجهوا اتجاهاً آخر يحتاج تفصيله إلى تطويل.

وعن جنوب الجزيرة التي هي أقرب في حياتها الاجتماعية إلى حياة سكان الحرمين، والقرب ــ دائما في نمط الحياة ــ من وسائل التقارب في الأفكار، فماذا كان أثر هذا التقارب في الأفكار؟!

والجواب: لقد نبغ في القرن الثالث والرابع في اليمن علامة جليل لم يفارق تلك البلاد، ومع ذلك فقد بلغت مؤلفاته الأندلس في حياته، وهو الحسن بن أحمد الهمداني[١].

---

(١) انظر ترجمته في مقدمة كتاب «صفة جزيرة العرب» (دار اليمامة).

ففي مؤلفاته إشارات ألقت الضوء على ما لمكة المكرمة من أثر في الحياة الثقافية، فقد روى الهمداني «السيرة النبوية» التي ألفها محمد بن إسحاق عن عالم مكيٍّ هو الخضر بن محمد بن داود، والمعروف عند المشارقة رواية السيرة بطريق عبد الملك بن هشام عن البكائي عن المؤلف، وعند المغاربة عن ابن بكير، ولكن طريقة المكيين وروايتهم السيرة عن الخضر لم يذكرها سوى الهمداني فيما علمت، مع أن لهم رواية أخرى أو روايات أخرى نجد إشارات عنها في كتابي الأزرقي والفاكهي عن مكة.

وهنا جانب عظيم الأهمية في تاريخ نشر الثقافة الإسلامية وحفظها، لم أر أحداً من الباحثين تعرض له وهو أن جزءاً مُهِماً من تراثنا لم نعرفه ولم يصل إلينا إلا بطريق علماء المغرب فقد قاموا بنقله إلى بلادهم بعد تلقيه أثناء قدومهم إلى مكة، وتولوا حفظه بالرواية والنقل، واستفادوا منه، ثم عاد إلينا بطريق ماخلفوه لنا من تراث ثقافي ضخم، وحسبي الإشارة إلى ثلاثة أعلام من علماء الجزيرة عرفهم علماء الأندلس، ونقلوا مؤلفاتهم، ولم يعرفهم علماء المشرق إلا بطريق أولئك. وهم محمد بن إسحاق الفاكهي[١] ، مؤرخ مكة، وأبو علي هارون بن زكريا الهجري[٢]، والحسن بن أحمد الهمداني[٣] مؤرخ اليمن وعالمه.

ولقد برَّز علماء المغرب على غيرهم في تدوين الرحلات، ولعل هذا يرجع إلى بُعْدِ ذلك القطر عن حواضر العلم ومراكز الثقافة في الحجاز والشام والعراق في العصور الأولى ثم مصر و(اسطنبول) في العهود المتأخرة، ففي هذه الحواضر والمراكز نشأت الثقافة العربية الإسلامية أول مانشأت، ثم مازالت تنمو حتى تكاملت فروعها، ورسخت أصولها.

وبلاد المغرب ــ بمختلف أقطاره ومنه الأندلس ــ وإن كان في عصوره الزاهرة يمدّ تلك الثقافة بروافد قوية إلا أن علماءه كانوا ــ ومايزالون ــ يرون في تلك الحواضر، وخاصة مكة والمدينة، مهوى لأفئدتهم ومطمحا لرغباتهم، وملتقى

(١) أنظر (العرب) ص ٨٤٣ س ٨.
(٢) أنظر (أبو علي الهجري) ص ١٠ ــ ٦٩ ــ ٩٦.
(٣) أنظر ص ٢١ مقدمة «صفة جزيرة العرب» نشر (دار اليمامة)

روحيا تتطلع نفوسهم لبلوغه لا لأداء فريضة أوجبها الدين الحنيف فحسب، ولكن للتزود من العلم، وللالتقاء والاجتماع بالعلماء في أحفل مجمع، وأشمل ملتقى.

وللحديث عن عناية علماء المغرب بتدوين رحلاتهم إلى الحج مجال أوسع من هذا، وحسبي أن أعرض الآن إحدى الرحلات، عرضا دعت المناسبة إليه.

ويلاحظ الباحث في تاريخ الثقافة أن أدب الرحلات ازدهر في العصور المتأخرة التي اعترى الجمود مختلف الجوانب الثقافية، منذ القرن الحادي عشر الهجري حتى نهاية القرن الثالث عشر.

ومإخالني جانفت الحقيقة حين قلت في حديثي في (ملتقى مؤرخ الأندلس ابن حيان) الذي أقيم في الرباط في آخر شهر المحرم من عام (١٤٠٢هـ): ليست رحلتا ابن بطوطة وابن جبير ــ على جلالة قدرهما ــ بمدّان الباحث بفكرة كاملة عما تحويه غيرهما من رحلات علماء المغرب، مما يتطلع إليه الدارسون لمختلف أحوال غرب الجزيرة، من معلومات وافية.

وليس من المبالغة القول بأنّ في رحلات ابن رُشيد الفهري والتّجيبي والعبدرى والعيّاشي والدّرعيّين أحمد بن ناصر، ومحمد بن عبد السلام، ومن بعدهم إلى نهاية القرن الثالث عشر الهجري ــ في تلك الرحلات مايعتبر من أوفى المصادر وأشملها وأوثقها في دراسة كثير من أحوال المدينتين الكريمتين مكّة والمدينة، من ثقافية واجتماعية واقتصادية. وهذا مالم أر أحدا من الباحثين اتجه له باعتبار تلك الرحلات تكوّن وحدة متكاملة في موضوعها.

أشهر رحلات الحج :

ولايتسع المجال لأكثر من ذكر أهم رحلات الحج، التي في ميسور كل باحث الاطلاع عليها ــ مما يعدّ مكملا لهذا البحث ــ وكثير من تلك الرحلات نشرت خلاصة مايتعلق بالحج منها في مجلة «العرب».

رحلة ابن جبير

محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي (٥٢٨/٦٠٧هـ)

كتب بعض مشاهداته في إحدى رحلاته إلى الشرق فيما بين سنتي ٥٧٨ و٥٨١ هـ فتولى أحد تلاميذه ــ فيما يقال ــ تَدْوِيْنَ الرحلة المعروفة باسمه، وقد طبعت مرارا ونالت جانبا من الدراسة من بعض الباحثين. ومنهم الأستاذ الشيخ عبد القدوس الأنصاري، حيث ألف عنها «مع ابن جبير في رحلته».

رحلة ابن رُشَيد

هو محمد بن عمر بن رُشيد ــ بضم الراء ــ الفهري السّبتي الأندلسي (٦٥٧/٧٢١).

زار مصر والشام والحجاز، بحيث وصل المدينة المنورة بطريق الحج الشامي في ٢٣ ذي القعدة سنة ٦٨٤(١) وعاد منها بعد أن حج ــ عاد في ٢٨ ذي الحجة سنة ٦٨٤ ــ بطريق الساحل ماراً بالعقبة في ٢٥ محرم سنة ٦٨٥ [1].

ومع عناية العلماء المتقدمين برحلة ابن رشيد، التي دعاها «ملء العيبة، فيما جمع بطول الغيبة، في الوجهتين الكريمتين إلى مكة وطيبة» ــ إلا أنّها لم تصل

(١) وقع تطبيع في مجلة «العرب» س (٣) ــ ص (٧٨٥).

إليـنـا كـامـلـة، وهـي مـن أحفل الرحلات، وأشملها، والأجزاء الباقية منها على مايظهر ــ مسودة المؤلف بخطه.

و يـقـوم الصديق الأستاذ الشيخ محمد الحبيب بن الخوجة مفتي البلاد التونسية بتـحقيق تلك الرحلة، وقد أخبرني في ١٤ شهر ربيع الأول سنة ١٤٠٢هـ أنه تم طبع جزأين منها.

رحلة العبدري

هـو محـمد بن محمد علي العبدري الحيحي نسبة إلى حاحة ــ على غير قياس ــ قبيلة من البربر، في المغرب الأقصى وهو من أهل القرن السابع.

حـج سـنـة ٦٨٩ مـاراً بمصر، سالـكـا طـريـق الحـج الساحلي، فوصف ذلك الطريق منزلة منزلة، وقد استفاد من رحلة ابن جبير، وأتى بأشياء لم يذكرها ابن جبير في رحلته.

وقـد طـبـعـت رحـلـتـه فـي مـدينة الرباط، بتحقيق الشيخ محمد الفاسي سنة ١٣٨٨هـ (١٩٦٨م).

رحلة التّجيبي

القاسم بن يوسف بن علي السبتي التجيبي (٦٧٠/٧٣٠هـ).

وقـد حـج سـنة ٦٩٦ ــ قادما بطريق البحر من عيذاب، إلى مرسى أبجر ــ مـن مـوانـى جدة، فوصل في ٨ رمضان من تلك السنة بعد أن أمضى في البحر ٢٤ يوماً.

ولا تعرف نسخة كاملة من رحلته، والموجود قطعة يبدأ الحديث فيها عن مدينة القاهرة، و ينتهي بالكلام على المبيت بمنى.

وقـد حـقـق هـذا الجـزء الأسـتاذ الصديق عبد الحفيظ منصور، فجاء في مجلد بلغت صفحاته ٥٥٧ مطبوعا في تونس.

رحلة ابن بطّوطة

وهو محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي (٧٧٩/٧٠٣هـ ـــ وبطوطة بتشديد الطاء الأولى المضمومة ـــ.

ورحلته شاملة فقد زار الأقطار الإسلامية وبلاد الشرق في عهده، واستغرق في رحلته سبعا وعشرين سنة ـــ من سنة ٧٢٥ ـــ .

ونقلها عنه محمد بن جزي الكلبي في مدينة فاس سنة ٧٥٦ وسماها: «تحفة النظار، في غرائب الأمصار، وعجائب الأسفار».

وفي تلك الرحلة بعض أوهام منها ماذكر عن شيخ الاسلام ابن تيمية، فقد تحدث عنه حديث من حضر مجلسه، مع أنه أدخل السجن قبل وصول ابن بطوطة إلى دمشق، بأيام، ولم يخرج من السجن إلا بعد موته.

وتعتبر رحلة ابن بطوطة أشهر الرحلات لشمولها.

وقد وجدت عناية كبيرة من الباحثين، وترجمت إلى عدد من اللغات، وطبعت مرات.

رحلة البلوي

وهو خالد بن عيسى بن أحمد البلوي الأندلسى من أهل القرن الثامن.

حج سنة ٧٣٨ ـــ مارّا بمصر ثم بالشام، فقد ركب من الركب الكركي بطريق الحج الشامي فوصل المدينة في ١٩ ذى القعدة سنة ٧٣٧ ـــ وحجّ، ثم عاد من المدينة في ٢٤ المحرم سنة ٧٣٨ مارّا بالعقبة، فالقدس فالقاهرة حيث وصلها في ١٤ صفر سنة ٧٣٨.

واسم رحلته «تاج المفرق، في تحلية أهل المشرق» وقد وصفها صاحب «نفح الطيب» بأنها رحلة كبيرة، كثيرة الفوائد.

وقد طالعت نسخا مخطوطة منها، ولخصت مايتعلق بالحج فيها، ولاحظت

اضطرابا في ترتيب منازل طريق الحج، أشرت إلى ذالك في مجلة «العرب» ــ س ١١ ص ٧٣١ ــ .

وقد علمت منذ عهد قريب بأن تلك الرحلة قد طبعت.

رحلة الصفدي

خليل بن أيبك الصفدي المتوفى سنة ٧٦٤ واسمها «حقيقة المجاز إلى الحجاز» كانت منها نسخة مخطوطة في زاوية درعة في المغرب، بخط المؤلف ــ على ماذكر ابن عبد السلام في رحلته ــ ونقل عنها، كما نقل عنها صاحب «الدرر الفرائد المنظمة».

وبلغني بأن في مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمة نسخة منها كان اطلع عليها الأستاذ الزركليُّ ــ رحمه الله ــ

رحلة القلصادي

أبو الحسن علي القلصادي الأندلسي المتوفى سنة ٨٩١هـ.

بلغ جدّة بطريق البحر في شعبان سنة ٨٥١ وعاد بحرا ــ بعد أداء الحج ــ من رابغ إلى العقبة فمصر ــ في المحرم سنة ٨٥٢.

وقد حقق رحلته صديقنا الأستاذ محمد أبو الأجفان، ألاستاذ بجامعة الزيتونة في تونس ونشرت سنة ١٣٩٩ (١٩٧٨م) في ٢٥٦ صفحة ــ في تونس ــ.

الدرر الفرائد المنظمة

هذا كتاب شامل كاسمه في أخبار الحج، وطريق مكة المعظمة ــ للشيخ محمد بن عبد القادر الجزيري المصري الحنبلي المتوفى بعد سنة ٩٧٥.

وقد تضمن وصفا لرحلاته من القاهرة إلى الحج ــ بطريق الساحل، فهو من هذه الناحية يدخل في نطاق رحلات الحج ــ.

وقد طبع الكتاب عن نسخة ناقصة، مع ثلاث مخطوطات كاملات إحداهما في (دار الكتب) في القاهرة، والأخرى في مكتبة القرويين في فاس، والثالثة في مكتبة جامعة (ييل) في الولايات المتحدة الامريكية وقد أعددته للنشر فصدر منه جزءآن، وسيصدر الثالث وهو الأخير قريبا ـ إن شاء الله ـ.

رحلة البكري

البكريون العلماء كثيرون، ولبعضهم رحلات، ومما ينسب إلى أحدهم رحلة ذات أسلوب أدبي ممتع، تضمنت وصف منازل الحج من البركة ـ المنزل الأول من القاهرة ـ إلى مكة المكرمة ـ بطريق سيناء، فساحل البحر إلى ينبع، فبدر، فرابغ ـ.

يصف الكاتب المنزل نثرا وشعرا ـ بدون تكلف ـ.

وقد وصف العياشي تلك الرحلة بقوله: قد ظفرت بمصر برسالة للشيخ محمد البكري ـ وأظنه محمد بن الشيخ زين العابدين، ذكر فيها الحج ودياره ذهابا وإيابا، وحقق قدر ما في كل مرحلة من الساعات والدرج والدقايق، وصعوبتها وسهولتها، بنثر بليغ وعبارات رائقة وذكر في كل منزلة شعرا يتعلق بأحوالها.

والبكريّ الذى ظنه العياشي صاحب تلك الرحلة هو زين الدين محمد بن زين العابدين محمد بن محمد البكري الصديقي المصري، له مؤلفان في تاريخ الدولة التركية ذكرهما الخير الزركلي في «الأعلام» وأرخ سنة وفاته (١٠٢٨هـ).

ولم أطلع على رحلته مفردة، ولكنني وجدت وصف المراحل تامّة في رحلات العياشي وابن ناصر وابن عبد السلام وأبي مدين، فنشرتها في «العرب».

رحلة البكري

من أهل القرن الحادي عشر، لخصها الدكتور أحمد سامح الخالدي، ونشر الملخص في مجلة «الرسالة» التي كانت تصدر في القاهرة، واسم الرحلة «الحقيقة والمجاز» ومخطوطتها في دار الكتب المصرية.

الرحلة العياشية

أبو سالم عبد الله بن محمد العياشي ــ نسبة إلى قبيلة آية عَيَّاش ــ الفاسي (١٠٣٧ / ١٠٩٠هـ) واسمها: «ماء الموائد» من أوفى رحلات الحج، بل هي أوفى رحلة اطلعت عليها، وقد ورد فيها[١]: (وقصدى إن شاء الله ــ من كتابة هذه الرحلة أن تكون ديوان علم، لاكتاب سمر وفكاهة، وإن وجد الأمران فذلك أدعى لنشاط الناظر فيها، سيّما إن كان صاحب تلوين، وأما صاحب التمكين فلكل شيء عنده موقع ونفع، لايوجد في غيره) انتهى.

والواقع أنها كما ذكر، فهي ديوان علم لما حوته من المباحث العلمية المتنوعة، ومن الكلام على منازل الحج ومشاعره المقدسة، ومن وصف شامل للحجاز في القرن الحادي عشر الهجري في مختلف حالاته الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والإدارية. ثم هي كتاب سمر ومحاضرة لما تخللها من مباحث أدبيّة وقصص وأخبار ومقطوعات شعرية.

وتعتبر رحلة العياشي مصدرا لكثير ممن جاء بعده من الرحالين المغاربة كابن ناصر وابن عبد السلام والزبادي وغيرهم ولهذا وصفه ابن ناصر في رحلته بأنه (إمام المرتحلين في زماننا) ولخص كثيرا مما جاء في رحلته، حينا يصرح بالنقل منها وأحيانا يفوته ذلك.

وقد حج سنة ١٠٥٩ وسنة ١٠٦٤ و ١٠٧٢.
وجاور في الحرمين وفي القدس وفي الخليل.
وله مؤلفات منها رحلته التى سماها «ماء الموائد».

وقد طبعت طبعة حجرية بالخط المغربي في مدينة فاس سنة ١٣١٦هـ في جزئين صفحاتها ٤٦٤ + ٤٨٨ = ٩٥٢ مع الفهارس والتقاريظ وإصلاح التطبيع.

ثم أعيد نشرها ــ بطريقة التصوير سنة ١٣٩٧هـ (١٩٧٧م) ووضع الأستاذ

---

(١) ج ١ ص ٢٢٤.

محمد حجّي أستاذ التاريخ في كلية الآداب في مدينة الرباط لها فهارس مفصلة عن أسماء الأعلام والمواضع والكتب، طبعت ملحقة بالجزء الثاني من تلك الرحلة في خمسين صفحة.

رحلة القيسي

محمد بن أحمد القيسي، من أهل القرن الحادى عشر (و يعرف بابن مليح).

واسم رحلته «أنس الساري السارب، من أقطار المغارب، إلى منتهى الآمال والمآرب سيد الأعاجم والأعارب».

وقد طبعت في الرباط سنة ١٣٨٨هـ بتحقيق الشيخ محمد الفاسي.

رحلة الهشتوكي

هو أحمد بن محمد بن داود بن يعزى الجزولي نسبا الهشتوكي شهرة المتوفى سنة ١٠٩٦.

يوجد في الخزانة العامة رحلة مخطوطة يرى الصديق الأستاذ محمد بن إبراهيم الكتاني أنها للهشتوكي المذكور ولكنني رأيت في أحد المواضع منها ذكر تاريخ سنة ١٠٩٩ وأن مؤلفها معاصر للسلطان إسماعيل سلطان المغرب الذي تولى الحكم من سنة ١٠٨٢ إلى ١١٣٩ لأنه يدعو له بالنصر وأنه اجتمع بالشيخ عبد الله بن سالم البصري المتوفى سنة ١١٣٤.

وعلى كل حال فالمؤلف من أهل القرن الحادى عشر الهجري، و يصف الشيخ العياشي بأنه شيخه وأسلوب الرحلة يدل على عدم تمكن صاحبها من العلم،وإن كانت لاتخلو من الفوائد.

الرحلة الناصرية

مؤلفها الشيخ أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي (١٠٥٧ ـ ١١٢٩).

تعتبر هذه الرحلة من أوفى الرحلات إلى الحج وأمتعها. وقد اعتمد فيها مؤلفها على رحلة شيخه أبي سالم العياشي الذى وصفه بأنه شيخ الرّحّالين، وقد رحل ابن ناصر هذا أربع رحلات إلى الحج إحداها سنة ١١٢١.

والرحلة مطبوعة طبعة حجرية بحروف مغربية في مدينة فاس سنة ١٣٢٠. وتقع في جزئين صفحاتها ٤٤٢.

رحلة النابلسي

هو الشيخ عبد الغني بن إسماعيل النابلسي الدمشقي (١٠٥٠/١١٤٣هـ).

ذو المؤلفات الكثيرة في مختلف علوم عصره، والذى يعنينا منها ما يتعلق بالرحلات وله ثلاثة مؤلفات فيها، أهما وأغزرها فائدة: «الحقيقة والمجاز، في رحلة الشام .ومصر والحجاز» في ثلاثة أجزاء، ثالثها عن الحجاز ـ في وصف طريق الحج من مصر برّا إلى المدينة ثم مكة، ثم عاد من المدينة إلى دمشق برّا.

وقد ألف رحلته هذه على طريقة كتابة المذكرات يوما فيوما، منذ أن بدأ في الرحلة في بلاد الشام ـ من مدينة دمشق حتى عاد إليها، وقد سجل مشاهداته عن الحجاز من اليوم الثالث والثمانين بعد المئة إلى يوم عودته إلى دمشق في اليوم الثامن والثمانين والثلاث مائة ـ أي في خلال مئتين وخمسة أيام ـ ابتداء من خروجه من مصر في سابع رجب سنة ١١٠٤ إلى يوم عودته إلى دمشق خامس صفر سنة ١١٠٥هـ ـ على ماجاء في تلك الرحلة.

وتعتبر رحلته ـ أو رحلاته ـ هذه من أمتع الرحلات، وأحفلها بالمعلومات ـ مع مافيها من آراء لا تتفق مع روح عصرنا ـ.

ولم تطبع هذه الرحلة بعد.

رحلة المنالي الزبادي

هو عبد المجيد بن علي الحسني الإدريسي الفاسي المتوفي سنة ١١٦٣، واسم رحلته «بلوغ المرام بالرحلة إلى البيت الحرام»، وكان حج سنة ١١٤٨ وضمن رحلته هذا قصيدة سماها«إتحاف المسكين الناسك لبيان المراحل والمناسك»، وشعره من نمط شعر العلماء منه قصيدة مطلعها:

سلام على نجد ومن حلّ في نجد سلام محب زائد الشوق والوجد

يتشوق فيها إلى مغاني الحجاز.

ورحلته هذه لا تزال مخطوطة ومنها نسخة في الخزانة العامة في مدينة الرباط، وقد عول كثيرا على رحلة العياشي وتعتبر رحلته متممةً لرحلتي العياشي وابن ناصر، وكذا رحلة الدرعي.

رحلة السويدي

أبو البركات عبد الله بن حسين السويدي البغدادى (١١٠٤/١١٧٤هـ).
واسمها: «النفحة المسكية في الرحلة المكية» ومن نسخها المخطوطة نسخة في مكتبة عارف حكمة شيخ الإسلام في المدينة.

رحلة ابن عبد السلام

هو محمد بن عبد السلام بن عبد الله الناصري الدرعي المتوفي سنة ١٢٣٩ من بيت علم مشهور. وقد حج مرتين إحداهما سنة ١١٩٦ والثانية ١٢١١.

وعن الحجة الأولى ألف رحلته الكبرى وهي من أوسع الرحلات وأوفاها وقد رجع فيها إلى كثير من الرحلات المؤلفة قبل عهده كرحلة العياشي ورحلة العبدرى ورحلة الصفدي ورحلة التجيبي ورحلة البكري والرحلة الناصرية.

أما عن حجته الثانية فقد ألف عنها الرحلة الصغرى.

ولكن الرحلة الكبرى الأولى أوفى وأغزر فائدة من كثير من الرحلات ولا تزال مخطوطة ومنها نسخة في الخزانة العامة في الرباط مكتوبة في عهد المؤلف وقد تكون مسودة تأليفه.

وسيأتي تفصيل ماأُجْمِلَ عن هذه الرحلة.

رحلة التامراوي

هو محمد بن محمد المزواري التامراوي من المغرب الأقصى حج سنة ١٢٤٢.

وقد أورد رحلته كاملة صاحب كتاب «المعسول» ــ ج ٨ ص ١٩٧. وهى موجزة جداً،ولكنها لاتخلو من فائدة مع وقوع تحريف في أسماء المواضع.

رحلة إدريس العلوي

هو إدريس بن عبد الهادي العلوي الحسني الفاسي المتوفي في المدينة سنة ١٣٣١.

وصف رحلته إلى الحج سنة ١٢٨٨.
وقد أبحر من السويس إلى ينبع.
وهي رحلة مختصرة جداً ومخطوطتها في خزانة الرباط.

رحلة ابن كيران

هو محمد بن الطيب بن كيران الفاسي المتوفي سنة ١٣١٤ واسم رحلته: «الرحلة الفاسية الممزوجة بالمناسك المالكية» وصف فيها رحلته إلى الحج سنة ١٢٩٣.
وقدم بطريق البحر في الباخرة.
وهذه الرحلة مطبوعة في مدينة فاس،ولكنني اطلعت عليها مخطوطة في خزانة الرباط.
وهي لاتخلو من فوائد وخاصة في وصف الطريق بين مكة والمدينة.

الرحلة الحامدية

مؤلفها إسماعيل الحامدي المالكي. وقد يكون مِصْريًّا، وهو من أهل القرن الثالث عشر حج سنة ١٢٩٧ عن طريق السويس إلى جدة.

ومخطوطة هذه الرحلة التي أطلعت عليها موجودة في خزانة الرباط، وهي ممزوجة بالمناسك، ومع اختصارها ففيها فوائد.

رحلة التونسي

هو محمد بن عثمان السنوسي التونسي (١٢٦٦ ـ ١٣١٨).

وقد حج سنة ١٢٩٩.

والتونسي من مشاهير علماء تونس، وقد نشرت رحلته في تونس.

ورحلته وافية المباحث وهو يعنى بتواريخ العلماء وتراجمهم، مع تسجيل واف لمشاهداته في مكة وفي المدينة، ووصف لمنازل الحج إلى الشام، حيث عاد من المدينة مع الحاج الشامي.

ومن رحلات أهل القرن الرابع عشر وهي كثيرة

* دليل الحج، للوارد إلى مكة والمدينة من كل فج، تأليف محمد صادق، كتاب يشمل ثلاث رحلات للمؤلف: (١) من الوجه إلى المدينة المنورة ومنها إلى ينبع في سنة ١٢٧٧ (٢) للحج سنة ١٢٨٧هـ أمينا للصرة وهذه الرحلة وصفها في كتاب سماه «مشعل المحمل» (٣) للحج سنة ١٣٠٢ وصفها بكتاب سماه «كوكب الحج» جمع هذه الرحلات الثلاث في هذا الكتاب الذى طبع سنة ١٣١٣ (١٨٩٦م) في ١٥٢ صفحة وفيه صور.

* مشعل المحمل، تأليف محمد صادق يصف في هذه الرحلة سير الحاج من مصر

برّا في الذهاب والإياب ـ في سنة ١٢٩٧هـ ـ مطبوع سنة ١٢٩٨ في ٦٠ صفحة وقد ضمنه كتابه «دليل الحج» المتقدم ذكره.

* التحفة اليمنية في الأخبار الحجازية: لمحمد اليمني بن علي بن عرعار محار العنابي الجزائري. مطبوعة في القاهرة سنة ١٣١١ في ٣٩ ص .

* الرحلة الوهبية إلى الأقطار الحجازية ـ تأليف أحمد علي الشاذلي ـ صاحب جريدة الإسلام: وصف موجز لرحلة المؤلف لأداء الحج سنة ١٣٢١هـ في ٨٦ ص صغيرة وهي على إيجازها تحوى وصفا مجملا عما يسود الحجاز في ذلك العهد من الفوضى واختلال الأمن.

* مرشد الحجاج إلى الأماكن المقدسة، تأليف محمد حسن غالي، مطبوع في الرحمانية في القاهرة سنة ١٩٢٣م في ٢٠٠ ص.

* مرآة الحرمين، تأليف اللواء إبراهيم رفعت باشا (١٢٧٣ / ١٣٥٣هـ) أمير الحج المصري في سنة ١٣٢٠ و ١٣٢١ و ١٣٢٥ ـ كتاب من أمتع كتب الرحلات وأوسعها يقع في مجلدين صفحاتها ٥٢٨ + ٤٠٧ = ٩٣٥ يَزْدانان بالصور والخرائط المتقنة، بطباعة أنيقة حقا ـ مطبعة دار الكتب المصرية ـ سنة ١٣٤٤هـ.

* الرحلة الحجازية، تأليف محمد لبيب البتنوني، وصف فيها حج الخديوى عباس حلمي سنة ١٣٢٧هـ (١٩٠٩م) وهي من أوفى الرحلات تفصيلا عن أحوال الحجاز العامة في ذلك العهد ـ على مافيها من أخطاء ـ وقد طبعت طباعة جيدة مصورة في سنة ١٣٢٩هـ في ٣٣٤ ص عدا الصور والخرائط.

* سياحتي إلى الحجاز، منسوبة إلى غريب بن عجيب الهاشمي مطبوعة في القاهرة سنة ١٩١٥م في ٤٥٧ ص مصورة.

* تذكار الحجاز، رحلة موجزة لعبد العزيز صبرى من مصر في آخر عهد الشريف الحسين، وهي على إيجازها ذات فوائد، مطبوعة سنة ١٣٤٢ بالمطبعة السلفية وتقع في ٢٢٨ ص وفيها صور.

* في قلب نجد والحجاز، لمحمد شفيق مصطفى، صحفي مصري قام برحلة من

القاهرة ــ بطريق فلسطين ــ إلى قريات الملح فالجوف فالقصيم فالرياض فمكة، في سنة ١٣٤٦هـ (١٩٢٧م) ونشر وصف ماشاهده في جريدة السياسة، ثم قامت دار المنار بطبع تلك المقالات في كتيب بلغت صفحاته ٦٧، وفيه معلومات طريفة على إيجازها.

* مرشد الحاج، تأليف عبد الوهاب مظهر سنة ١٣٤٧هـ مطبوع في ١٠٣ ص.

* الارتسامات اللطاف، في خواطر الحاج إلى أقدس مطاف، للأمير شكيب أرسلان (١٢٨٦ / ١٣٦٦هـ) يصف رحلته للحج سنة ١٣٤٨ في ٣٠٤ ص ويتطرق إلى وصف مكة والطائف وعمران الجزيرة ومختلف جوانب الحياة بتفصيل، بحيث تعتبر هذه الرحلة من أمتع الرحلات وأوفاها.

* رحلة الحجاز، لإبراهيم عبد القادر المازني (١٣٠٨/١٣٦٨هـ) في سنة ١٣٤٩ (١٩٣٠م) في وصف الاحتفال بجلوس الملك عبد العزيز ــ رحمه الله ــ مطبوعة سنة ١٩٣٠ في ١٦٦ صفحة مصورة.

* مشاهداتي في بلاد الحجاز: تأليف عبد الوهاب خضير، كتيب يقع في ٤٣ صفحة يصف أول احتفال بجلوس الملك عبد العزيز ــ رحمه الله ــ في سنة ١٣٤٩ (١٩٣٠م) وهو مقدم بقلم أحمد زكي باشا ومصور ومطبوع.

* في المملكة الروحية للعالم الإسلامي (رحلة إلى الحجاز سنة ١٣٤٩ ــ ١٩٣١م) تأليف مصطفى محمد، في ٢٣٠ ص مصورة، مطبوعة بمطبعة المدينة المنورة.!

القسم الثاني

ملخص رحلتي

ابن عبد السلام الدرعي

ابن عبد السلام الناصري الدرعي

دَرْعَةُ بلدة تقع غرب مدينة مراكش وراء سلسلة جبال الأطلس، وعلى مقربة من بلدة درعة تقع بلدة **(تمكروت)** وفيها زاوية تدعى **(الزاوية الناصرية)** ذات أثر عظيم في نشر الثقافة الإسلامية في تلك الجهات، وفي إفريقية بصفة عامة، وكانت مركزاً من مراكز العلم في المغرب وتعد أحسن زوايا المغرب ويوصف أهلها بأنهم المقتدون بعمل أهل المدينة ومكة، المتمسكون بالسنة[1]، تخرج فيها كثير من العلماء الذين أمدوا الثقافة الإسلامية بفيض من مؤلفاتهم وكانت تضم مكتبة من أحفل المكتبات بنفائس المؤلفات، نقل بعضها ــ منذ عهد غير بعيد ــ إلى الخزانة العامة في (الرباط) وبقي قسم منها، وضاع قسم آخر، وكان ملوك المغرب قديماً يغذون تلك المكتبة بنفائس الكتب.

ومن علماء تلك الزاوية في العصور الأخيرة محمد بن عبد السلام بن عبد الله بن محمد الناصرى، وهو من بيت علمٍ مشهور، فعمه الشيخ يوسف بن محمد حج سنة ١١٦١ وأخذ عنه بعض علماء مكةٍ، وله أقارب ذوو شهرة أشار إلى بعضهم في رحلته ومنهم ابن ناصر الدرعى صاحب **«الرحلة الناصرية»** ابن عمه[2].

وقد ولد ابن عبد السلام في بلدة دَرْعة، وفيها تلقى العلم، ثم في مدينة فاس، ودرس على علماء ذوى مكانة في بلاد المغرب، من أشهرهم مَيَّارة وهو محمد بن أحمد (١٠٧٢/٩٩٩هـ).

وكان ابن عبد السلام ذا صلة قوية بسلطان المغرب في ذلك العهد بحيث كان يرسل معه أموالاً جزيلة يفرقها على علماء مصر والحرمين. ولما حج سنة ١٢١١ حاول شريف مكة أخذ مامعه من صدقة، ولكنه كان قوياً حازماً فأبى. قال في «رحلته الصغرى»: (وسمع أمير مكة غالب الشريف أن سلطان المغرب مولانا سليمان.. بعث بصدقة تصرف على يدى، بعث إليَّ بعض خواصه في أُبهة

(١) ص ١٨٩ و ٢٨٠، مخطوطة خزانة الرباط.

(٢) «فهرس الفهارس» للكتاني.

يقول لي: إني لاأحسن التفرقة، وأهل مكة أعرف بشعابها، وهو الذى يعرف المستحقَّ من غيره. فأجبته ــ وكان ذلك ليلاً ــ إني غير مأمور بالدفع إليك، فعند ذلك بعثتُ في الحين للشرفاء والعلماء والمؤذّنين والفراشين وسدنة الكعبة فصرفتها، معتمدا على مكتوب الإمام بخطه ــ نصره الله ــ معينا لكل فريق ما يأخذ، فاتصل كل بما عُين له في الكتاب بعد دفع دسكرة ــ أى خطه وطابعه ــ مشهداً على ذلك علماء المذاهب الأربعة، فما أصبحت وبيدى مما عين لهم دانق، فقضى أهل مكة العجب من ردّ أمر أميرهم، فكفانا الله شره).

وقد قام برحلتين إلى الحج، الأولى سنة ١١٩٦هـ والثانية سنة ١٢١١ هـ وفي رحلته الأولى اجتمع بكثير من علماء البلاد التي زارها، واستفاد منهم وسجّل كثيراً من أخبارهم، ومنهم السيد مرتضى الزبيدي مؤلف «تاج العروس» فقد قويت الصلة بين الرجلين، وتحدث ابن عبد السلام بإسهاب عن السيد مرتضى، وتهاديا الكتب، وترجمه في رحلته أوسع ترجمة له. أما في رحلته الثانية فقد مرض في الحجاز، وتمنّى أن يموت فيه وقال لما وصل القاهرة: (وماهَبتْ علينا نفحات العافية إلا بعد إقامتنا بمصر شهرين، ولذلك قلّت استفادتي وافادتي بالحرمين ومصر، خلاف الرحلة الأولى)[1].

وابن عبد السلام ــ وإن نشأ نشأة صوفية ــ إلاّ أن صلته بكبار علماء الحديث في عصره مكنته من أن يتجه لهذا العلم حتى عُدّ من المحدثين الواسعي الاطلاع، بل نراه في كثير من أموره ــ لا كلها ــ يتخذ من الحديث منهجاً يسير عليه، وحجة يبطل بها آراء معارضيه، في عصر طغى فيه الجمود الفكري وانتشرت البدع والخرافات. ومن قرأ مؤلفاته عجب من سعة اطلاعه على أمهات كتب الحديث والتفسير فضلاً عن كتب علماء مذهبه من المالكية، ولهذا كان يجنح في بعض آرائه إلى الاجتهاد وعدم التقيد بنصوص المذهب. وقد وصفه الكتاني بأنه أعلم علماء البيت الناصري بالفقه والحديث وأوسعهم رواية، وأجسرهم قلماً، وأعلاهم إسناداً[2].

---

(١) الرحلة الصغرى.

(٢) «فهرس الفهارس»: ٢١٩/٢.

ومن مؤلفاته:

١ ــ الرحلة الكبرى إلى الحج ــ وهي أشمل مؤلفاته وأوسعها. قال عنها الشيخ محمد الفاسي[١]: (هي من أهم ماوضعه المغاربة في هذا الفن الذى برزوا فيه وأبدعوا). وسأعود للحديث عنها.

٢ ــ الرحلة الصغرى ــ وتقع في ٢٧٩ صفحة ــ وصف فيها مسيره إلى الحج سنة ١٢١١ وأكمل تأليفها بعد عودته سنة ١٢٢٠ هـ.. فقد خرج من (الزاوية الناصرية) في ١٢١١/٥/٤، فمرَّ بمصر وأقام فيها ثم غادرها في غرة ذى القعدة من السنة نفسها بطريق الساحل، فبلغ مكة في سابع ذي الحجة، وسار منها إلى المدينة في ٢٧ ذي الحجة ودخلت سنة ١٢١٢ وهو في (قديد) متوجهاً إلى المدينة فبلغها ضحوة عاشوراء سنة ١٢١٣هـ وغادرها في اليوم الرابع عشر من المحرم ووصل إلى القاهرة ١٩ صفر، وبقي فيها إلى جمادى الأولى حيث سار منها إلى المغرب، فبلغ (القيروان) في ٢٥ رمضان وتحدث عن هذه البلدة وأطال ــ من ص ٢١٥ إلى ٢٢٢ ــ ثم مرَّ بمدينة تونس ووصفها وسار منها إلى مسقط رأسه فبلغه ضحوة عاشوراء سنة ١٢١٣.

ومن هذه الرحلة نسخة منقولة عن خط المؤلف في الخزانة الكتانية. وأخرى لدى الأستاذ عبد السلام بن سودة مؤلف كتاب «تحاف المطالع» وقد كرم الأستاذ العلامة الجليل عبد الله بن كنون الحسني بإتحافي بنسخة مصورة عنها، وتاريخ نسخها سنة ١٣٧٣. وذكر الأستاذ عبد السلام أنه نسخها عن نسخة بخط مؤلفها في خزانة قاضي الجماعة بفاس محمد الصديق بن أحمد الفاسي.

٣ ــ «المزايا، فيما حدث من البدع في أم الزوايا» ويقصد الزاوية الناصرية. وقد ردَّ في هذا الكتاب على ابن عمه متولي أمور الزاوية في عهده علي بن يوسف بن محمد بن الشيخ محمد فتحا بن ناصر الدرعي المتوفي سنة ١٢٣٥ ــ وذكر نحو ٦٠ بدعة مخالفة للشرع، ويقع الكتاب في ٨ كراريس على ماذكر الأستاذ ابن سودة في «دليل مؤرخ المغرب» ص ــ ٥٧ ــ ومنه نسخ مخطوطة.

---

(١) «مجلة البحث العلمي» ص ٧٢ السنة الثانية.

٤ ــ «النوازل» في الفتاوى، ومنه جزءان في الخزانة العامة في الرباط ــ من مكتبة الجلاوي برقم ١٠٥٤ ج ــ .

٥ ــ «كناش» مخطوط اطلع عليه صاحب كتاب: «الإعلام في من حلّ مراكش من الأعلام» وقال الأستاذ ابن سودة في «دليل مؤرخ المغرب» ص ٤٦٥: (كنانيش متعددة)(١).

٦ ــ «شرح أربعين حديثا» جمعها شيخه الشيخ محمد بن أحمد ميّارة في ترك الظلم.

٧ ــ «قطع الوتين، من المارق في الدين» أو «اصارم البتّار، فيمن أفتى ببيع الأحرار» رسالة منها نسخة في الخزانة العامة في الرباط في المجموع رقم ١٥٤١ (من الورقة ١٠٧ب إلى ١١٥) وقد ألفها سنة ١٢٠٨، وموضوعها طريف، جاء في مقدمتها: (وبعد فإنك سألت: هل يجوز للإنسان بيع أولاده في هذه المسغبة لحاجة فادحة لحقته ولحقت أولاده وأن بعض من ينتمى للعلم وليس من أهله أفتى العامة بذلك فارتكبوه فتداولت الأملاك الأحرار، وسير بهم إلى الآفاق، وانتقل اسم الحريّة عنهم). وتقع في ٢٥ صفحة ولديَّ مصورتها.

٨ ــ «الفهرست الجامعة» ورد ذكر هذا الكتاب في هامش ص ٢٧٠ من «الرحلة الكبرى» حيث أورد ابن عبد السلام نصّ إجازة الشيخ أحمد بن عبيد العطار إمام مسجد دمشق، التي كتبها له تجاه الكعبة الشريفة فكتب المحشي يقول: (إجازته للمؤلف وإجازة المؤلف له. وانظر «الفهرسة الجامعة» للإمام ابن عبد السلام). ثم كلمات غير واضحة، ويظهر أن ابن عبد السلام أفرد الإجازات التي تلقاها من العلماء الذين اجتمع بهم ــ وماأكثرهم ــ والإجازات التي كتبها لهم في مؤلف هو هذا.

---

(١) أمدني بكثير من المعلومات عن المترجم أستاذنا العلامة الجليل خير الدين الزركلي ــ رحمه الله فقد ترجمه في كتاب «الإعلام عمّن لم يذكر في الاعلام» ولابن عبد السلام ترجمة في كتاب «فهرس الفهارس» للكتاني ج ٢ ص ٢١٩ ــ ٣٢٣.

وفاته: ليس فيما اطلعت عليه من المصادر تحديد زمن ولادته، أما وفاته فكانت في شهر صفر سنة ١٢٣٩. ومن إدراكه للشيخ ميارة المتوفى سنة ١٠٧٢ هـ وأَخْذِهِ عنه يتضح أنه طال عمره.

رحلتا ابن عبد السلام: تعتبر الرحلة الكبرى من أوفى الرحلات في ذكر مراحل الحج من مصر برّاً إلى مكة فالمدينة فينبع حتى القاهرة بطريق الساحل مروراً بالعقبة فنخل فعجرود ــ بقرب السويس ــ أما الرحلة الصغرى فمباحثها موجزة جداً، وتقدم ذكر سبب ذلك. وسأحاول أن أقدم للقارىء في بلادنا مجمل ما في هاتين الرحلتين مما يتعلق بتحديد منازل الحج ومناهله وذكر سكان تلك المنازل، مع ماأورده المؤلف من ذكر أحوال المدينتين الكريمتين مكة والمدينة، أما المباحث التاريخية والدينية فإن المؤلف عوّل على كتب معروفة، ولهذا لاأطيل بذكرها. وقد قسمت هذا الملخص ثلاثة أقسام:

القسم الأول : في وصف الرحلة من مصر إلى مكة.

القسم الثاني: في الطريق من مكة إلى المدينة.

القسم الثالث: في الطريق من المدينة إلى مصر.

مصادر المرحلة الأولى: المؤلف واسع الاطلاع فهو عندما يتحدث عن تاريخ مكة ينقل عن أشهر المؤلفات في تاريخها ككتاب الأزرقي، وشفاء الغرام للفاسي والأعلام للقطبي، وفي تاريخ المدينة ينقل عن السمهودي، وفي تحديد المواضع يكثر النقل عن «الروض المعطار» ويقول عنه أن مؤلفه ليس محققاً لأنه يعتمد على النقل وعن «خطط» المقريزي و«المسالك والممالك» للبكري، أما في وصف الطريق فقد أكثر النقل عن:

١ ــ رحلة العبدري، وهو كثير التعقب له بالنقد، ورحلة العبدري مطبوعة.

٢ ــ رحلة الصفدي ويسميها رسالة الصفدي، وقال عنها: (وقد قدم حاجّا من الشام إلى المدينة وهي عندنا بخطه) ــ ص ٢١٥ ــ.

٣ ــ رحلة أبي سالم العياشي ــ وهي رحلة مطبوعة، وتعتبر أهم الرحلات إلى الحج وأوفاها.

٤ ــ رحلة عبد المجيد بن علي المنائي الزبادي الفاسي، وقال عنها إنه وقف عليها بخطه في سفره هذا ــ ص ١٩٨ ــ وقد أورد قصيدة الزبادي التي ذكر فيها منازل الطريق من مصر إلى مكة فالمدينة وهي في ١٣٠ بيتاً ــ من بحر الكامل، على قافية الراء وسنتحدث عنها.

٥ ــ رحلة محمد بن أبى القاسم القاضي، وقال عنها (رحلة صغيرة) ص ٢١٢.

٦ ــ رحلة التجيبي القاسم بن يوسف بن محمد السبتي (٦٦٦/٧٣٠هـ) وقد حج سنة ٧٩٦ مبحرا من عيذاب إلى جده فوصلها في ٧ رمضان، وقدم مكة ليلة ١٥ منه، ويظهر أنه عاد من المدينة إلى الشام كما يفهم من نصٍّ ورد في الجزء الموجود من رحلته عند ذكر أبى رغال، قال: (ويأتى ذكر الحديث بتمامه عند ذكر بيوت ثمود): ومن هذه الرحلة قطعة يبدأ الحديث فيها (ذكر مدينة القاهرة) وينتهى في الكلام على منى: (وكانت السنة أن يقيم الناس بمنى حتى يصلوا الصبح وتطلع الشمس، وحينئذ يرحلون إلى عرفات، فلم يفعلوا ذلك، ورحلنا معهم اضطرارا لااختياراً، بسبب مايخاف من أذى بنى شعبة المغيرين على) والنسخة في دار الكتب التونسية، وقام الأستاذ عبد الحفيظ منصور بتحقيقها وتقديمها للطبع منذ أربع سنوات.

ــ وسنعود للحديث عنها ــ

٧ ــ رحلة البكري محمد بن زين العابدين وقد يخلط بينه وبين البكري الأندلسي، فقد نقل عنه في ص ٢١١ عن ينبع وأنه أول بلاد الحجاز، قائلاً: (في مسالك الإمام البكري). ثم أعاد النقل بأوفى ــ ص ٢١٤ ــ فى كلام مسجوع، وشعر متأخر عن عهد البكري أبى عبيد، قائلا: (وقال البكرى): ولا شكّ أن صاحب هذا الكلام هو البكرى المصري المتأخر الذى أكثر النقل عنه صاحب «الرحلة الناصرية» ومع أن ابن عبد السلام عوَّل ــ أكثر ماعَوَّل ــ على هذه الرحلة وقد جاء فيها عن البكري مانصه: (قال شيخنا أبو سالم: قد ظفرت بمصر رسالة الشيخ البكرى وأظنه شيخنا سيدى محمد ابن الشيخ زين العابدين، ذكر فيها منازل الحج ودياره ذهاباً وإياباً، وحقق قدر مافى كل مرحلة من الساعات والدرج والدقائق وصعوبتها وسهولتها بنثر بليغ وعبارات رائقة، وذكر

فى كل منزلة شعراً يتعلق بأحوالها) ــ ثم ذكر أنه اقتطف منها[1] ــ ولكن ابن عبد السلام لم ينتبه إلى هذا فى نقله عن ينبع وسنورد طرفاً من هذه الرحلة.

٨ ــ الرحلة الناصرية:

وهي رحلة الشيخ أحمد محمد بن ناصر الدرعي (١٠٦٩/١١٢٩) التى قام بها للحج فخرج من الزاوية الناصرية فى ٢٤ جمادى الأولى سنة ١١٢١ وعاد إليها فى ٥ رمضان سنة ١١٢٢هـ وتعتبر هذه الرحلة من أوسع الرحلات ــ إن لم تكن أوسعها وأشملها ــ وتقع فى جزءين وطبعت فى مدينة فاس طبعة حجرية فى سنة ١٣٢٠ فى ٤٤٢ صفحة بخط مغربي دقيق. ولقد نقل عن العياشي فأكثر، كما نقل ابن عبد السلام عن هذه الرحلة فأكثر، وهو فى جُلّ المواضع لا يصرّح بالنقل، وقد يكون نقله عن الرحلات التى تقدم ذكرها بواسطة الرحلة الناصرية.

زمن الرحلة الأولى:

١ ــ جاء فى حاشية ــ ص ١٨٩ ــ عند قول المولف انه دخل مصر فى اليوم الرابع والعشرين من شوال مانصه: (خروجهم من الزاوية الناصرية الكبرى بعد صلاة العصر يوم الخميس ٥ جمادى (؟) عام ١١٩٦).

٢ ــ وعندما ذكر المؤلف ــ ص ٢٢٤ ــ انه ببدر هل هلال ذى الحجة ليلة الخميس، كتب المحشي: (بالحساب التعديلي ١٥ (٠٠٠) ٥٩٨٦، ٣٠ بابه قبطية س ١٤٩٨ (٧ نوفمبر س ١٧٨١).

٣ ــ وفى تاريخ إجازة الشيخ محمد بن عبد الله المغربي للمؤلف ١٤ شوال سنة ١١٩٨، وهذه الإجازة بعث بها المجيز إلى المؤلف بعد سفره بأشهر ــ كما فى ص ٣٠٥.

فمَّا تقدم يتبين أن حج المؤلف كان سنة ١١٩٦ (١٧٨١م) أى حجته

(١) «الرحلة الناصرية» ص ١٥٢.

الأولى وجاء فى ص ٢٦١ ــ فى الكلام على بنيان الحرم المكي: (وهذا البنيان هو الباقى إلى زمانا هذه السنة تسعة (؟) وتسعين ــ بتقديم المثناة ــ ومائة وألف) هذا وقت تأليف الرحلة.

أما الرحلة الثانية:

فقد وقعت سنة ١٢١١ ــ بعد الأولى بخمس سنوات ــ

مخطوطة الرحلة الأولى

وتقع النسخة التى بخط المؤلف فى ٥١٤ صفحة مسطرتها ٢٦/٢٩ قياس الصفحة ٢٩×١٩ س م منه عن الحجاز ١٢١ (مئة وإحدى وعشرون صفحة) من ١٩٢ إلى ٣١٣ تحوى:

١ــ وصف الطريق من القاهرة إلى العقبة (١٩٢/٢٠١)= ١٠ صفحات.

٢ــ وصف الطريق من العقبة إلى مكة (٢٠٢/٢٤٣)= ٤١ صفحة.

٣ــ وصف مكة (٢٤٣/٢٨٢)= ٣٩ صفحة.

٤ــ وصف الطريق من مكة إلى المدينة (٢٨٢/٢٩٠)= ٨ صفحات.

٥ــ وصف المدينة (٢٩٠/٣٠٨)= ١٨ صفحة.

٦ــ وصف الطريق من المدينة إلى مصر (٣٠٨/٣١٣)= ٥ صفحات.

أما النسخة ــ كما حدثنى الأستاذ عبد الله الغنيم ــ ففى أولها نقص يسير وجاء فى آخرها ــ حسبما نقل الأستاذ: (كملت فى التاسع والعشرين من جمادى الأولى سنة تسع وتسعين ومئة وألف على يد جامعها العبد الفقير إلى رحمة مولاه الغني القدير محمد بن عبد السلام بن ناصر الدرعي كان الله له ولوالديه ولأشياخه) وبعد هذا: (قوبلت حسب الاستطاعة من مؤلفها فى الرابع من جمادى الأولى سنة مئتين وألف وكتب محمد بن عبد السلام الناصري، كان الله له) ــ ص ٥١٣ ــ .

وهذه النسخة في الخزانة العامة في الرباط برقم ٢٦٥١ د.

و يظهر من الحواشي التي في هوامش كثير من صفحاتها أنه طالعها غير واحد من القراء، ومنهم من كان يختم مايكتبه بكلمة (الناشرى) كما في ص ١٨٩ و ١٩٥ ومن الحواشي ماهو تخطئة أو نقد للمؤلف ــ ص ١١٢/١٨٣/٢٠٠/٢١٥/٢٢٦، ومنها ماهو دفاع عنه كما في ص ٢٢٦ فبعد أن خطأ المؤلف ابن إسحاق تصدّى أحد المحشين للنيل منه، غير أن مُحشِياً آخر دافع عنه. ومنها ماهو نقل من «القاموس» و«الحاوي» أو ذكر لبعض الحوادث التاريخية كفتح قناة السويس ــ ص ١٩٥ ــ وترجمة الشيخ عمر الفاسي أحد شيوخ المؤلف ــ ص ٢٨٦ ــ والمقارنة بين ماقد يذكره المؤلف من تاريخ بعض الحوادث بالتاريخ الميلادي والقبطي وغيرهما كما في ص ٢٢٤/٢٦٤.

ومنها إحالة على الكتب ــ ص ١٩٦ ــ أو نقل منها مثل «كشف الظنون» في تعريف «الروض المعطار» وذكر الرحلات ــ ص ٢٣٠ وتعريف «شفاء الغرام» ٢٦٣ ومثل الإحالة على «الفهرست الجامعة» لابن عبد السلام ــ ص ٢٨٠ ــ وإلى «محاضرات السيوطي» ص ٢٩٥ وإلى «وفاء الوفاء» ص ٢٩٥/٢٩٦/٢٩٧/٣٠٠ ــ.

وبعض هذه الحواشي كتبت في عهد متأخر يدل على ذلك إشارات إلى كتب مطبوعة مثل «المسند» و«القول المسدّد» ص ٢٨٠ ــ و«كشف الظنون» و«وفاء الوفاء» و«التوفيقات».

ومن تلك الحواشي مانُصَّ على تاريخ كتابته، فالمؤلف لما ذكر نزوله في القاهرة في دار الحاج عبد السلام الفاسي من أولاد الحلو وقال: (وهو مع ذلك لايملك تلك الدار، وإنما هو مكترٍ) علق المحشي: (وقد أورث الله بفضله أكرم أحفاده دورا عديدة، وإلى الآن لازالوا بها، عام ١٣٣٢).

و يظهر ان النسخة هي مسودة المؤلف، ففي بعض صفحاتها شطب وتغيير لكثير من الجمل، وإبدالها بغيرها في الهامش ــ كما في ص ٢٧٥، وفي ص ٢١٥ ــ تقديم وتأخير أشير إلى إصلاحه في الهامش بهذا النص: (انظر السطر

السابع، بهذا تقديم وتأخير من مخرج المبيضة) وإن كانت هذه العبارة تفهم أنها ليست المسودة و يظهر أن المؤلف أعاد النظر فيها فزاد وغيّر بعض الجمل وأضاف بعض النقول في الهوامش. وخطها مغربي حسن، ولكنه صعب القراءة لتداخل بعض الحروف ولإصابة الصفحات ببلل أسال حروف كثير من الكلمات فاستحالت قراءتها [1].

(١) للأستاذ الكريم عبد الله الغنيم ــ في جامعة الكويت ــ الفضل في اطلاعي على هذه الرحلة واتحافي بمصورتها.

الاحتفال بالمحمل والكسوة

الذي يعنينا من رحلة محمد بن عبد السلام هو مايتعلق بالحجاز، منذ أن غادر الرحالة القاهرة فى ٢٧ شوال سنة ١١٩٦، حتى عاد إليها، وكان وصل إليها فى ٢٤ من الشهر المذكور، ويحسن إيراد كلامه المتعلق بكسوة الكعبة، وما يتصل بوصف مايجرى عند خروج المحمل للحج، ومن المعروف أن مايجرى ليس من الدين فى شيء، إذ المحامل ومايتعلق بها كلها وكذا الاحتفال بالكسوة، وكسوة المقام والحجرة كلها مبتدعة في عصور متأخرة، والغاية تنحصر فى عرض مجمل مافى هذه الرحلة مما له صلة ببلادنا عرضاً أميناً.

قال ابن عبد السلام: ينبغي التعرض للمحمل ولكسوة الكعبة ــ لأننا أدركنا بعض ذلك وشاهدناه ــ أما المحمل فهو قبة من الخشب، رائعة الصنعة، بخرط[1](؟) متقن، وشبائك ملونة بالصبغ[2]، عليها كسوة من رفيع الديباج، المخوص بالذهب، وبأعلى القبة المذكورة قبة صغيرة من الصفر، مطموسة مموهة بالذهب، وفي وسطها ــ حسبما حدثني به من علم ــ مُصحف صغير، وغاية الأمر أنهم جعلوا ذلك إمارة مهيجة للحج، تكسى القبة المذكورة، ويتبعها موكب وأُبهة في أيام تأهب الحاج بمصر، وفي سائر بنادير الحجاز، تهييجاً وتشويقاً. وإرهاباً للأعراب، حتى لا تطمع في البنادير للسوق، وتزال الكسوة من القبة في غير ذلك، ويحملها جمل أبيض، مصبوغ بحناء، وخلفه آخر على تلك الهيئة قد عُدّ لحملها إن ضعف صاحبه، ورقبة كل من الجملين ورأسه وسائر أعضائه مُحلاة بجواهر منظمة بأبلغ نظم، وعليهما رسنٌ محلى بمثل ذلك، وهما في غاية مايكون من السمن وعظم الجثة وحسن الخلقة.

وأما الكسوة فقد جرت العادة من قديم إلى زمننا أن المصري يتولى كسوة الكعبة ومقام سيدنا إبراهيم عليه السلام كل سنة، كما يتولي المصري أيضاً في سالف الأزمان ــ ثم انتقلت إلى الشامي ــ كسوة الحجرة النبوية على ساكنها

(١) في الرحلة العياشية ١/١٥٠: (بخط).

(٢) بألوان الأصباغ.

أفضل الصلاة والسلام كل سنة فيما سلف من الأزمان، وأما الآن فقد حدثنا الثقاة من المجاورين بالمدينة المنورة على ساكنها الصلاة والسلام أن من تأمر من السلاطين العثمانيين كساها مرة واحدة أول إمرته، ثم لا تزال ولا تبدل بغيرها حتى يموت و يتولى غيره، وهي أحسن صنعة من كسوة الكعبة، إلا ماكان من كسوة باب الكعبة، وتسمى البراقيع (؟) وكلها مخوصة بالذهب لايكاد يظهر فيها خيط واحد، بصنعة فائقة، وكتابة رائقة.

فإذا كان النصف من شوال ــ أو قبله أو بعده بقليل ــ (يخرج المحمل الخروج الأول. فيؤتى بالكسوة من دار الصنعة، فتضرب سجافة)[1] ــ أى ستر وبساط ــ (على باب القلعة، فيحضر الصناجق والولاة والقاضي كل وأتباعه، ولكل منهم مجلس معلوم في السجافة[1] المضروبة، ومجلس الباشا في الوسط وعن يمينه القاضي، وكلما أتى واحد من الأمراء وأرباب الدولة جلس في مجلسه المعهود له، وقربهم من الباشا بحسب قربهم في مناصبهم، فإذا تكاملوا وأخذوا مجالسهم صفت الخيل عن يمينهم صفًا، كل طائفة مع جنسها إلى أن تحيط بالميدان الذى هو أمام مجلس الباشا وهو ميدان كبير يسع الألف[2] من الخيل، وآخر من يخرج الباشا، فيخرج أمامه طائفة من عسكره، بعضهم أثر بعض، على قانون معلوم[3]، وآخر من يخرج معه طائفة الشاوشية ــ وهم الكشايرية عند المغاربة في عرفهم ــ على أرجلهم، عليهم جلود النمر، وعلى رؤوسهم طراطير طويلة لها ذيول معكوسة بين أكتافهم، وعلى جباههم صفائح من الفضّة مستطيلة مع الطراطير إلى فوق، مموهة بالذهب، فيخرج الباشا راكباً، فإذا وصل إلى السجافة قام الكل له واضعين أيديهم على صدرهم حتى يجلس وهكذا يفعل من تقدم للجلوس من الأمراء مع من يأتي بعده، فإذا جلس الباشا جيء بالجمل عليه المحمل المذكور وبالكسوة المشرفة ملفوفة قطعاً قطعاً، كل قطعة منها على أعواد شبه[4] السلاليم معدات لذلك يحملها الرجال على رؤوسهم، والناس

(١) في العياشية ١/١٥٠ سحابة ومابين الأقوس منها.

(٢) وفيها الآلاف.

(٣) وفيها: على ترتيب معلوم، وقانون مضبوط.

(٤) ويؤتى بكسوة الكعبة منشورة على الأعواد، وتسمى البرقع كلها مخوصة بالذهب حتى لايكاد يظهر فيها خيط واحد، بصنعة فائقة، وكتابة وائقة العياشية ١/٢١٥١.

يتمسحون بها و يتبركون فَيُمَرُّ بكل ذلك بين يدى الباشا والأمراء، و يقومون لها إذا مرَّت بهم تعظيما، ثم يَخلعُ على الذين صنعوها بمحضر ذلك الجمع، ثم يذهب بها كذلك حملتها، ويمرون بها في وسط السوق والناس يتمسحون بها حتى يبلغونها إلى المشهد الحسيني فتنشر في صحن المسجد، وتخاط هناك). ولقد أدركناها في آخر خياطتها، ومن دخل من الغرباء سيما المغاربة يناوله الصناع الإبرة والخيط فيتبرك بخياطها، وقصدهم بذلك الأخذ منهم، ولقد خيطتُ بعض ذلك تبركاً، وأعطيتهم ماكتب، جريا على عادة أهل المدن خصوصاً أهل مصر والحرمين من الدوران مع الدينار والدرهم، ولو كان فوق الثريا لنالوه بحيلهم الغريبة، وشبكتهم المنصوبة.

(فإذا كان اليوم الحادي والعشرون من شوال خرج المحمل من القاهرة، وهذا اليوم هو يوم خروج المحمل الكبير الذى هو من أيام الزينة، ويجتمع له الناس من أطراف البلد، و يؤتى بكسوة البيت الشريف من موضع خياطتها وتجعل في المحال التي تحمل فيها. ويجتمع الولاة والجند السلطاني على الهيئة المتقدمة إلا إن هذا أتمُّ احتفلاً وأكثر جمعاً، فإذا تكامل ذلك جيء بجميع مايحتاج إليه أمير الحاج من إبل وقرب ومصابيح[1] وخيل ورماة وغيره من الأسباب التي تخرج من بيت المال، فيحضر جميع ذلك في ذلكم الميدان، كل طائفة لها أمير مقدم عليها، حتى الطباخين والفراشين والسائقين.

ثم يؤتى بالمحمل على جمله المذكور، و يقوده سائسه حتى يناول رأس الجمل للباشا فيأخذه بيده و يناوله لأمير الحاج بمحضر القاضي والأمراء ومعاينتهم ثم يناوله أمير الحاج لسائسه فيذهب به، وذلك كالشهادة على الباشا بأنه مكن للأمير المحمل وكل مايحتاجه ذهابا وإيابا، و يشهد على ذلك القاضي والأمراء، و يكتب بذلك إلى السلطان.

ثم يجاء بالإبل تمرُّ بين يديه بما عليها من القرب والمصابيح والأثاث، كل طائفة بمقدمها، ثم يجاء بالمدافع الخمس أو الثمان كما في بعض السنين أو أكثر من غير ضبط عندهم فيها، بل على حسب الميسر، وتجرها البغال، ثم تمر الرماة

(١) في العياشية: ومطابخ.

من ورائـهـا، ثم الخيل، ثم يجيء أرباب الطوائف كل طائفة من مشائخ الصوفية بشيخهم ولوائهم، رافعين أصواتهم بالذكر، كالقادرية والرفاعية والبدوية والدسوقية، حتى السعاة يأتون بشيخهم، فيمرون بين يدى الباشا و يعطيهم عطاء، فإذا لم يبق أحد ممن يمر بين يديه خلع الباشا على أمير الحاج خلعة وعلى كل امرائه الذاهبين معه كالكخياء والدُّويدار وغيرهما الأول في عرف المغاربة هو الباشا والثاني هو القائد، والأول هو الذى يكون مع جيشه في مؤخر الركب والثاني في أوله مع جيش له دائما، ثم يودعه و ينصرف.

ثم يمر بالمحمل وسائر الإبل والعسكر وسط المدينة، والناس يشرفون من الديار والمساجد التى تلي الشوارع و يتعطل غالب الأسواق في ذلك اليوم. قال أبو سالم: أخبرنا أن بعض تلك الديار المشرفة على الشوارع قد تكرّى من أول السنة ولايسكنها مكتريها ولاينزل إليها إلا في ذلك اليوم بقصد التفرج، وفي سوى ذلك من الأيام تبقى معطلة أو يسكنها غيره.

و بالجملة فهذا اليوم عندهم من أعظم أيام الزينة، وثانيها يوم وفاء النيل، و يقرب منه يوم مقدم الحاج، و يوم قدوم الباشا من قسطنطينية كل سنة، جريا على عادة السلطان العثماني من بعث الباشا والقاضي كل سنة [1].

ثم شرع المؤلف في وصف مراحل الطريق مرحلة فلنكتف بالسير معه والاستماع إليه.

---

(١) ص ١٨٩/١٩٢ وصف الاحتفال بالمحمل منقول عن العياشية: ١/١٥٠ ـ ١٥٤ بتصرف.

الطـريق من مصـر إلى مكـة

البركة: ثم لما صلينا الجمعة بباب النصر توجهنا للبركة وبينها وبين القاهرة نحو من ست ساعات، وكذا ضبطه أهل مصر جرياً على عاداتهم من الاعتناء بآلةِ التوقيت من نحو مكانة[1] واسطرلاب، وقال العبدري: بينهما نحو عشرة أميال، والطريق كلها من مصر إلى البركة كأنها محل واحد من كثرة الذاهب والجاى، وكثرة الباعة لأنواع الطعام على الطرقات، وهناك قصور ذوات شرفات اتخذت للنزهة، ولا تمر ميلاً ونحوه إلا وتجد جيشاً سلطانياً يمين الجادة وشمالها يحرسون الخارج من مصر والداخل لها، وكذا دأبهم مع الحاج في الإياب[2].

ومن يوم خروج المحمل يشمّر الناس عن ساق الجد في التجهيز للحجاز، ويقدم الجمالون من الصعيد والأرياف، وتختلف رغبات الناس، فمن مائل للكراء، ومن مائلٌ للذهاب بإبله، فمن أراد راحة باله وتعب قلبه والخصومه آناء الليل والنهار اكترى، ومن أراد سلامة قلبه والمخاطرة بماله اشترى إبله، ثم يأتي عرب الدرب للكراء على حمل الفول لعلف البغال والإبل من مصر إلى المويلح، فيكتري منهم كل من يريد الطلوع بإبله على العلف إلى المويلح لعدم قدرتها على حمله وماء وزاد أربابها ذهاباً وإياباً، ومن أراد المخاطرة فلا يشتري ولا يكتري بل يشتري في كل بندر مايحتاج إليه، إلا أنه ربما يقلُّ في بعض الأحيان، فيقع الغلاء، وربما كان الشراء في البنادر أرخص وأفضل، ولايكتري أحد من عرب الدرب إلا بعد إعطاء شيخهم لأمير الركب حميلا(؟) بمصر، لئلا يغدروا، ومع ذلك ربما غدروا فيقع الغلاء في البنادر.

وبركة الحاج المذكورة(بركة واسعة مدّ البصر، يجتمع بها ماء النيل، وأنواع الأطيار، وتنصب بها الأسواق والقهاوى[3] المزخرفة، والفساطيط المونقة، ويخرج غالب أهل مصر للوداع والتفرج والتنزه في بساتين ومقاصير[4]، وعادة الركب

---

(١) كذا ولعل الصواب (منكاب) وهو مما يستعمل لقياس الزمن ذكره صاحب «الدرر الفرائد» ولعل كلمة (المنكباوي) في وصف الشيخ أحمد الخطيب المكي أبي السيد عبد الحميد الخطيب مأخوذ من المنكاب، وأنه كان موقِّتاً.

(٢) ص ١٩٢.

(٣) في العياشية: (مقاهي).

(٤) ص ١٩٢.

النـزول بهـا ليتلاحق الناس، و يقيمون بها يومين أو ثلاثة، وبها آبار عذبة طيبة، أغنـى الله عـباده عنهـا بمـاء النيل، و يترفهون في هذه الأيام بطبخ أنواع الطعام والحلو يات، و يفتخرون بها بنصب السُّفر الملونات، ويجتمع بها من أخلاط الناس الكثير، خصوصاً طوائف الفقراء مع أشياخهم، يذكرون على ماجرت به عادتهم من الرقص المنهي عنه شرعاً، وأما أل اللهو والغِناء والمزامير فلا تسأل، كل ذلك فرح وسرور بخروج الحاج ــ فيما يزعمون ــ وفي جانبها الغربي قرى متعددة في إحداها مسجد سيدى إبراهيم المتبولي، حسبما للشعراني في «الطبقات».

ولم تبق البـركة على ماوصفها به العبدري من قوله: صحراء لا أنيس به. وإنما الحال على ماوصفنا فيها[1].

و بات الـنـاس الليـلة الأخيـرة فيما شـاهـدت في رغد عيش، ومز يد بسط والحجـاج في جـد واجتهـاد مـن شـد الأقتـاب، وتـعديل الأحمال، وملء القرب مـستـقبـلين البر ية العظمى، بر ية مابين مكة ومصر، مسيرة أربعين يوماً جادة، ولـيس بهـا فـي القديم مُستعْتب إلا ببدر و ينبوع[2] وأما في هذه القرون المتأخرة فـقـد أحـدث بها أمراء مصر بنادير كثيرة، يستريح الحاج عند وصولها و يقام بينه و بين سـاكنهـا والأعـراب سـوق فيهـا، والـورود فـي جميع هذه المسافة رِبْعٌ وغِبٌّ، والـربّع هو الغالب، وليس في البراري التي يسلكها المسافر في سائر أقطار الدنيا أوحش منها ولا أقفر وأرضها فيما بين رمل وحروشة تامة لايمكن أحد المشي بها إلا بـالمداس بل أينما جئت مكة لاتخلص إليها إلا بعد عناء وخوف مما احتف بها من هذه البر ية.

وبهـا قـوم مـن الـعرب صـعـاليك، أنذلُ من الثعالب، يتنقلون بها من موضع لآخـر ليس لهم قوت ولاحرث إلا مايمتارونه من بعيد، فهم أبداً في جهد جهيد، وقـلما يـظـهرون للركب لخبث أفعالهم وعدم مايعاملون به إلا بنحو حشيش يابس، وانمـا يـطـالـعون الـركـب من كل مرقب، فإذا رأوا متخلفاً لحاجة أو نوم أو غفلة أوعيٍّ أو انـقـطـاع وقـعوا عـلـيه فزقوه ولو على أقل مايتمول فإن كان عليه زي

---

(١) ص ١٩٣.

(٢) كـثيـراً مـايـرد اسـم (ينبع) في رحلات المتأخرين بهذه الصورة (ينبوع) والصواب (ينبع) كما هو معروف.

المصريين قتلوه، أو المغاربة سلبوه وربما جرحوه(؟) ويزعمون أنهم إخوة المغاربة، ويقولون فيهم: أولاد عايشة إخواننا، وكأنهم لما رأوا من صلابة المغاربة وقوتهم على الضرا(؟) وشبيهة بعضهم بهم لانوا لهم ببعض اللين بخلاف المصريين والشاميين، ولولا امراؤهم وماألهمهم الله تعالى له من الاستعداد لهذه البرية بايجاد الجيش مرتبا على القانون لما أمكن لأحد ممن يأتي وراءهم الحج. لطولها وخلائها إلا من القطاع ــ ولكن لطف الله يصحب عباده، وإغاثته تسرع إليهم على حسب اضطرارهم[١] إليه، فسبحانه من كريم جواد رحيم، دعا عباده لحج بيته، وزيارة قبر نبيِّه، وسهل لهم سلوك البرارى الموحشة وركوب السفن الجارية المدهشة، حتى تمتعوا برؤية تلك العرصات، وعفروا ديباجتهم من تقبيلها، فانقلبوا بغفران مااقترفوا من الزلات، لا إله غيره، ولاخير إلا خيره.

ولقد أحسن الشيخ أبو سالم وصف الليلة الأخيرة من ليالي البركة إذ قال[٢]: (وتلك الليلة عند الحجاج إحدى الليالي المشهورة، وبالقصر وعدم انشراح الصدر مذكورة، كأن الدرب أمامهم عدوٌّ لايرحم، أو بحر لايقتحم، يترقبون مزاولته عند الصباح، ومبادرته بالكفاح، وإنه لكذلك لولا الطاف الله الخفية فيما هنالك) (ولقد أحسن الشيخ محمد البكري بن زيد[٣] المصري شيخ الشيخ أبي سالم وصف البركة في قوله:

في بركة الحج تَرَى	نخْلاً زها لكن عَجَبْ
زَبَرْجَداً يحكي وما	ثماره إلا ذهب
فيها نسيم رائق	بلطفه يشفي الوصب
والطير فوق مائها	يشدو بأنواع الطربْ
فيالها من بركة	تبلِّغ القلب الأَرَبْ
عوَّذْتها من طارق	وغاسق إذا وَقَبْ[٤]

(١) ص ١٩٣.

(٢) العياشية٩/١٥٨.

(٣) كذا والصواب مافي العياشية: (زين العابدين).

(٤) ص ١٩٣.

وقال في الرحلة الصغرى: ارتحلنا خارجين من باب النصر صبيحة الجمعة الموفية ٣٠ شوال.. فنزلنا البركة في رغد عيش، على ماهو الحاج به موصوف في ليالي البركة، وبها استهل لنا هلال ذي القعدة، ومن هنا يحمل ماء مرحلتين إلى عجرود، ولا تسلْ عن وصف آخر ليالي البركة، فهي ليلة مشهورة، وبالقصر[١] وعدم انشراح الصدر مذكورة، كأن الدرب أمام الحاج عدوٌّ لايرحم وبحرٌ لا يقتحم من وخامة أرضه ورمالها، وحروشتها وقلة مائها، وسوء خلق أعرابها وسرقتهم وحرابتهم، ولولا لطف الله تعالى لما أمكن أحد أن يحج من أفعالهم الخبيثة وأخلاقهم الذميمة، ففي الحديث «حجُّوا قبل أن لا تحِجُّوا» قيل: يارسول الله كيف ذلك؟ قال: «يجلس أعْرَابُها على أذناب شعابها — يعنى مكة — فلا يخلص أحدٌ إليها».

وفي الكبرى: ثم ارتحلنا من البركة وقد مضي من النهار ثلاث ساعات بعد أن نودي بحمل ماء يومين تامين جادين، وودع الناس أقاربهم، وأجروا لفراقهم مدامعهم، وأخلوا على العادة مدافعهم فدق ماهجروه من طَبْلِهِم، إذ لم يأتِ على إعلامهم من كثرتهم، وذهب معهم من المودعين إلى البويب، وهو في الحقيقة باب الدَّرْبِ ومبتدأه فانقلبوا مشمرين بين صدمات(؟) العُريب، ومررنا بوادي المنصرف والقباب، بعد مفارقة الأهل والأحباب، حتى نزلنا الدار الحمراء، بعد مضي النصف من الليل في أرض صحراء قفراء[٢].

وفي الصغرى: بعد أن صلينا المغرب — في البركة — آذنوا بالرحيل فنزلنا الدار الحمراء ضحى.

عجرود — السويس — القلزم: ثم منها — وقد مضى من النهار ست ساعات ونصف، ولم ننزل عجرود إلا بعد طلوع الفجر، وهلك بهاتين المرحلتين من الخلق والإبل كثير، لما حلَّ بالناس من السموم الحارَّة.. ومبدأ الأسفار أصعب مايكون على الآدمي وغيره في الإقبال والإدبار. وأقمنا بعجرود يوماً للراحة والسوق، وبه

---

(١) كذا والمعروف أن ليالي السرور هي التي توصف بالقصر وكل مابين القوسين من كلام العياشي في رحلته — كما تقدم —.

(٢) ص ١٩٣/١٩٤.

قلعتان يخزن بها الحاجّ ما استثقل من الزاد حتى يرجع، وبه استهل لنا هلال ذي القعدة، وماء بئره أشهر من أن يذكر في القبح، وبه فسقيتان إحداهما أكبر من الأخرى، وثلاثة صهاريج صغيران والثالث أكبرها، وعمق كل واحد منها نحو العشرة الأذرع، ودور الكبير نحو الثلاثين ذراعاً في نصفها، يسقي داخل الحصن من بئر كبيرة بالبقر، فيخرج الماء إليها فيجدها الركاب مملوءة ماء، وهو (...)[1] تصلح عليه الدواب، والآدمي يتجرعه ولايكاد يسيغه، ومع ذلك ينزفها المصري غالباً حتى لا تبقى لمن بعده من المغاربة قطرة[2] ويجرى من بيت المال على من يعمر الصهاريج المذكورة بالماء كل سنة ذهاباً وإياباً خراج، وكذا غيره من البناديس، وبمصر عليها أحباس، وبه وبغيره من البناديس عسكر لايفارقه يتناوبون على ذلك، قلما يخرج منها عسكر حتى يخلفه غيره، ولولا لطف الله بالعباد بوجود هذه البنادر في الطريق لما قدر أحد على سلوكها مع كثرة مخاوفها، وقلة مرافقها وشدّة غلائها، وليس في هذا البندر شجر ولازراعة، وإنما يمتار ساكنه من مصر ومن بعض الأعراب إن نزلته، ومن هنا افترقنا مع الكثير من الصعالكة الذين لاطاقة لهم على البر، قاصدين ركوب البحر القلزميّ من مدينة سويس، وهي على فراسخ قليلة من هذا البندر قال في «القاموس»: قلزم كقنفذ سيف عمرو بن معدى كرب، وبلد بين مكة ومصر قرب جبل الطور، واليه يضاف بحر القلزم لأنه على طرفه أو لأنه يبتلع من ركبه.

وقال في «الروض المعطار في أخبار الأقطار»: القلزم مدينة من أعمال مصر على ساحل البحر، وبها يعرف هذا البحر فيقال بحر القلزم، وبها المراكب للتجارة وسمي القلزم لأنه في مضايق بين جبال والقلازم الدواهي. والمضايق، وهي مدينة صغيرة متقنة البناء ليس فيها زرع ولا شجر، وإنما تمتار من أرض مصر ويضيق عندها البحر فيكون كالنهر، ويمر كذلك قرب مدينة القلزم إلى الشمال عشرة أميال وينقطع، وشرب أهل مدينة القلزم من جزيرة هناك، ومن السويس يجلب على الظهر وهي يمين طريق مصر على ثلاثة أميال من مدينة القلزم.

---

(١) كلمة غير واضحة وكأنها (زُعاق) أي شديد المرارة.

(٢) ص ١٩٤.

ومن أمثالهم: أكل لحم التيس، وشرب ماء سويس مع العقل ليس[1] ومن أعاجيبها أن معزها مرسلة في السكك لامراعي لها ولا أكل إلا التراب، وهي فائقة في السمن، ومن أعاجيبها أنَّ في ربض النصارى منها مسجدا في وسط أسطوانة يأخذ الراقصون منها زِنَةَ الحبَّةِ ونحوها ويخرز في جلد فلا تؤذيه دابة من دواب البحر، ويراعون ذلك مراعاة شديدة، ولايشكون فيه، ولايخشون منها[2] ويزعمون أن القرش إذا قابل في البحر تلك الاسطوانة انقلب على ظهره وربما هلك فرماه البحر ميتاً، وطول هذا البحر من القلزم إلى المرقدان[3] أربعة آلاف وخمسمائة فرسخ، وقد رام بعضهم فيما سلف أن يوصل بين بحر القلزم وبحر الروم حرصاً على عمارة الأرض وخصب البلاد ومنافع العباد فمنع من ذلك خشية أن يتعرض الروم بسبب ذلك إلى غزو الحجاز [4]

وفي بحر القلزم جبال عالية في جوف الماء، وتروش ظاهرة ومخيفة، وطرق السفن منها معلومة لايدخلها إلا المهرة من رؤساء البحر العالمون بطرقاته والسير فيها أبداً بالنهار فقط، ولايسير أحد به في الليل لصعوبة طرقه من تعاويج مسالكه.

وكان القلزم مدينتين وأكثرهما الآن خراب لتسلط العدو عليهما وتضييقه الدائم على أهلها حتى قلت العمارة، وخاف القاصد إليها فضاقت معايشهم.

وبين القلزم ومصر تسعون ميلاً، وبالقلزم تنشأ السفن المسافرة في هذا البحر، وتعمل بحبال الليف والدُّسر وتجلفط بالشمع المتخذ من دواب البحر ودقايق اللبان انتهى.

---

(١) كذا في «الروض» ٤٦٦٠.

(٢) في «الروض»: ولايخلون منه.

(٣) في «الروض»: الى الواق واق.

(٤) حاشية: (وقد تحقق إنجاز هذا العمل العظيم وأذنت الحكومة المصرية للمسيو ديلسبوس المهندس الفرنسي في القيام به عام ١٢٨١ الموافق ١٨٥٤ وكان إتمامه وانتهاء العمل فيه والاحتفال العظيم به في عهد الخديوي إسماعيل باشا في شعبان عام ١٢٨٦ الموافق ١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩ وحضر الاحتفال سائر ملوك أوربا، أو مندوبوهم ومن ذلك الحين التقى البحران الأحمر والأبيض المتوسط، أو القلزمي والرومي ــ كما يعبر المؤلف، واتصل الشرق بالغرب، وحصل انقلاب عظيم بسبب ذلك في أحوال العالم الجغرافية والسياسية والاقتصادية، ولله الأمر من قبل ومن بعد. جعفر الناصري(؟).

وسبب عدم جعل الدُّسر في سفن هذا البحر أنه من حجر المغناطيس الذي أودع الله سبحانه وتعالى فيه حكمته، منها أنه لايقبل الحديد، فإذا قابلت السفينة ذات الدُّسر ــ يعني المسامير من الحديد ــ هذا الحجر خرجت من مقرها لحينها، وبه تسقى الإبرة في آلة التوقيت المعهودة، ولذلك تتحرك دائماً فيقع بها الانفعال المعهود، ولقد حدثت في سفري هذا أن سفينة من الحجاج ركبوا البحر الرومي من تطوان المغرب إلى الحجاز، وكان نوتيها نصرانياً معه الحجر المذكور، فلما رأى سفينة أخرى لبعض اعدائه من النصارى وقد قصدت أخذ سفينته، عمل صنعته في هذا الحجر مع الحديد فانقلبت السفينة لحالها راجعة القهقرى من غير ريح، وإنما مشّها بالحجر حتى افلتت من عدوّها، ثم تصوبت صوبها(؟) صنع الله الذي أتقن كل شيء من الكائنات، وإنما هي أسباب عندها، لابها.

تكميل: ولاذكر اليوم لمدينة القلزم في هذا المكان، وإنما الموجود المعروف، عند العام والخاص الآن وهو المطروق، مدينة سويس، وهي مدينة صغيرة ذات أسواق ومساجد ووكالات مستطيلة على شاطىء هذا البحر الذى يأتي من الهند، وهناك يقف بين جبال شامخات وبينه وبين البحر الرومي نحو من مرحلتين قال الشيخ أبو سالم، وبها ترسى السفن التى تأتي من مكة(؟) وجده واليمن، وفيها السلع الكثيرة، والبضائع النافقة الجليلة، ومن هنا يحمل بما يأتي به في البر إلى مصر وما والاها، وبحرها هذا يدعى أيضا بحر الحجاز كما في «نزهة المشتاق في أخبار الآفاق» قال: وفيه جزيرة السامرة يسكنها قوم يهود سامريون، وعلامتهم أن يقول أحدهم إذا لقي إنسانا: لامساس فبهذه اللفظة يعرفون أنهم من اليهود المنسوبين إلى السامرى صاحب العجل في زمن موسى.

والظاهر من كلام «الروض المعطار» أن سويس هو بئر عجرود فنسبت المدينة المذكورة التي على البحر له، فقال الناس: مدينة سويس، وتوسعوا فقالوا: بحر سويس كما قالوا بحر القلزم تسمية له باسم المدينة التي على شاطئه وتسمية المكان بعجرود حادثة، قيل: سمي المكان باسم نازله من الصلحاء ولازال اليوم يزار فيه ويدعى العجرودى، هكذا تلقيت من بعض طلبة مصر. والعجرد كما في «القاموس» الخفيف السريع، والغليظ الشديد وبلدة بذمار، وعبد الكريم بن العجرد رئيس للخوارج، وأصحابه العجاردة والعنجرد المرأة السليطة أو الخبيثة أو

السيئة الخلق. ولم يذكر هذا الموضع[1] فانظر وجه تسمية المكان بذلك. والله أعلم.

وفي رحلة العبدرى مايدل لذلك قال[2]: وأما مناهل هذه البرية فمن البركة إلى السويس ثلاثة أيام، وهي بئر غزيرة واسعة، وهناك ينقطع بحر الشرق ويدور السالك من ورائه ويتركه يميناً ولايزال محاذياً له إلى مكة، وثَمّ كانت مدينة القلزم وبينها وبين الفرما كورة من مصر على ساحل بحر الروم مسيرة يوم، ومابين هذين الموضعين أقرب مسافة بين البحرين بحر الشرق وبحر الغرب، قالوا: وهذا الحاجز بينهما هو الذى ذكره الله سبحانه وتعالى في قوله: (وجعل بين البحرين حاجزاً) وماء السويس ملح لايكاد يُساغ لملوحته وخبث طعمه، ولكن بالقرب منه على نحو عشرة أميال أو أزيد قليلاً ماء يقال له معبوق، وهو ماء عِدٌّ طيب في أحساء برملة بيضاء غزير لاكلفة فيه. انتهى

اللهم إلا أن يقال: إن المدينة التي على شاطىء البحر اليوم المدعوة السويس لم تبن في زمان العبدري وصاحب «الروض» وإنما حدث بناؤها بعد، ومكانها كان في القديم يدعى سويساً وطريق المتقدمين عليه فلما استطالها المتأخرون وتشعبت عليهم طريقها أحدثوا بئر عجرود وبنوا عليها وهذا هو الذى يغلب على الظن بل هو المتعين لقول العبدرى[3]: ليس بهذه البرية مستعتب — أي مكان يرجع إليه ويستأنس بأهله — إلا بدر وينبع هـ.

ويقول البكري في رسالته: فوصلنا إلى بندر عجرود، وماؤه ملح أجاج غير مورود، فأتانا أهل بندر السويس، وعطفوا علينا انعطاف الأغصان في الميل والميس، وأهدوا الينا الأحطاب للمشاعل، والأغنام للمآكل. وفي «خطط المقريزي» أيضا: بين هذين البحرين هو البرزخ الذى ذكره الله تعالى في قوله: (بينهما برزخ لايبغيان).

---

(١) حاشية: (وقد استدركه عليه الشيخ مرتضى في «التاج» فقال في ذكره لما استدرك عليه: عجرود من مناهل الحج المصري فيه ماء وسكنته بنو عطية استدركه شيخنا)

(٢) ص ١٥٧ في رحلة العبدري المطبوعة والناقل هو العبدري.

(٣) ص ١٥٣.

وفي «الرحلة الناصرية»: وسويس هي بموضع مدينة القلزم التي ينسب إليها هذا البحر بالقرب منها غرق فرعون. هـ. فانظره فبينه بعض مخالفة لم تقدم اللهم إلا أن عنى: القلزم قريب من سويس لا أنه هو والله أعلم. وفي «الخطط»: مبدأ هذا البحر الكبير المحيط بالأرض المسمى بحر الظلمات لتكاثف البخارات المتصاعدة منه. ولم يوقف من خبره سوى ما عرف من سواحله وجزائره، وفي جانب هذا البحر الغربى الذي يخرج منه البحر الرومي الجزائر الخالدات الست يسكنهات قوم متوحشون، كما أن جانبه الشرقي مما يلي الصين ست جزائر تعرف بجزائر السبيلي نزلها بعض العلويين في أول الإسلام خوفاً على أنفسهم من القتل، ويخرج من هذا البحر المحيط ست بحار[١] أعظمها أثنان، وهما اللذان المذكوران في قوله تعالى (مرج البحرين يلتقيان) وفي قوله: (وجعل بين البحرين حاجزا) فأحدهما من جهة الشرق والآخر من جهة الغرب، فالخارج جهة الشرق يقال له البحر الصيني والهندي والفارسي واليمني والحبشي بحسب مايمر عليه من البلدان، وأما الخارج من الغرب فيقال له البحر الرومي، وأما البحر الهندى الخارج من جهة الشرق فبدأ خروجه من شرق الصين وراء خط الاستواء بثلاث عشرة درجة، ويجرى إلى ناحية الغرب فيمر على بلاد الصين وبلاد الهند إلى مدينة كنبانه(؟) وإلى التبر(؟) من بلاد تكران(؟)، ينقسم هناك بقسمين أحدهما يسمى بحر فارس والآخر بحر اليمن فيخرج بحر اليمن من ركن يسمى رأس الجمجمة فيمتد إلى مدينة ظفار وساحل حضوموت، وإلى عدن، فإذا انتهى إلى باب المندب يخرج بحر القلزم فإذا وصل إلى القلزم انعطف من جهة الجنوب ومرَّ إلى القصير ومنه إلى بلاد الزيلع وهو ساحل بلاد الحبشة ويتصل ببربر، وطول هذا البحر ألف وخمسمائة ميل، وعرضه من أربعمائة ميل إلى مادونها، وهو كريه المنظر والرائحة.

وأما البحر الرومي فيخرج من الغرب وهو في الأقليم الرابع بين الأندلس والغرب سائراً إلى القسطنطينية، وإذا خرج هذا البحر مرَّ مشرقاً في بلاد البربر وشمال الغرب الأقصى إلى وسط بلاد الغرب على افريقية وبرقة والاسكندرية

---

(١) حاشية: (التعريف ببعض هذه البحار فانظر بالعيان في خريطة (...) في كتاب آثار الخط العربي في ماقرب من العالم المشرقي والمغربي وانظر هنالك في صحيفة ٢٢٩).

وشمال التيه وأرض فلسطين وسواحل بلاد الشام ثم يعطف من هناك إلى الغُلايا(؟) وأنطاكية إلى ظهر بلاد القسطنطينية، حتى ينتهى إلى البحر المحيط الذى خرج منه، وطول هذا البحر خمسة آلاف ميل وقيل ستة آلاف ميل وعرضه تسعمائة ميل إلى ثلاثمائة وفيه مائة وسبعون جزيرة عامرة، وذكر بعض الفلاسفة أن بين الاسكندرية وبين القسطنطينية من البلاد في القديم أرضاً تنبت الجمين، وكانت مسكونة وكان أهلها قوماً من اليونانية، وأن الاسكندر خرق إليها البحر فغلب على تلك الأرض وكان منها ـــ فيما يزعمون ـــ الطائر المسمى بقنس[1] (؟) حسن الصوت سيما إذا حان موته بسبعة أيام حتى لايمكن أحد أن يسمع صوته لأنه يغلب على قلبه من حسن صوته مايميت السامع، وإنه يدركه قبل موته بأيام طربٌ عظيم وسرور، فلا يهدأ من الصياح، فزعموا أن بعضا من الفلاسفة أراد أن يسمع صوت هذا الطائر في تلك الحال فخشي أن يقتله حسن صوته، فسدّ أذنيه سَدّاً محكماً ثم قرب إليه فجعل يفتح من أذنيه شيئاً بعد شيء حتى استكمل فتح الأذنين في ثلاثة أيام يريد أن يتوصل إلى سماعه رتبة بعد رتبة ولايسمعه أول مرة فيأتي عليه، وزعموا أن هذا الطائر هلك ولم يبق ولانسله، هجم عليه البحر بالليل في الأوكار فلم تبق له بقية. ويقال إن بعض الفلاسفة أراد ملك من الملوك قتله فأعطاه قدحا فيه سمٌّ ليشربه وأعلمه بذلك فظهر منه مسرّة وفرح فقال له: ماهذا أيها الحكيم؟ فقال له: هل أعجز أن أكون مثل فنس[2].

وفي الصغرى: من الدار الحمراء بعد صلاة الظهر، بعجرود ضحوة، وماء سانيته كسانية سويس كريه، يضرب بها المثل في القبح، وماء النابعة بناحية البحر من أطيب المياه، بل قيل: إنه رشح النيل، ومن عجرود يحمل ماء ثلاث مراحل إلى النخيل، ومن هنا رجع من رجع من الحجاج لركوب البحر من مَرْسَى سُويس.

التيه: قال في الكبرى: ثم لما قضى الناس من هذا البندر أوطارهم بعد نَزْح

---

(١) كتبت في الهامش (قنس) في «الخطط»: (فقنس).

(٢) تقدمت بالقاف ص ١٩٤ ـــ ١٩٨.

مـابـبـيـركـهِ مـن الماء ولم يشف أوامَهُم، عدلوا عن طريق المناصع ـ ويقال: رؤوس السنواظر ـ للنابعة بعد مامضى من النهار ساعتان، ولم تنزلها إلا بعد الإصفرار، وهي أحساء كثيرة عذبة، تضاهي النيل، في رمال واسعة، على قرب البحر إلى مدينة سُويس، وأما طريق المناصع فإنها معطشة، لا تسلك إلا في غير زمـان الحرّ وتبـقـى ذات اليسار في سبخة بعدها رمال وهي سواري مبنية في سبخة لايظهر فيها أثر الطريق وكذا في الرمل القريب، منها فجعلوا تلك الأعلام المبنية ليستدل بها الماضي ليلاً، وربما علقوا على الأعلام مصابيح ليلاً لبعد مابينها، وبين كلّ علم وعلم نحو فرسخ، حتى يتصل إلى رأس وادي الرمل، وقد تهدم بعضها الآن، وبقيت بقية لايكاد يقع الاهتداء التام بها، ومن أجل ذلك وقع تيهان في الركب في ذلك المحلّ في الرجعة قال شيخ شيوخنا سيدى عبد المجيد الزباديُّ الفاسي في رحلته وقد وقفت عليها بخطه في سفرى هذا: وسُمَّيَتْ تلك الأعلام بالسنواظر لأن الناظور[1] في اللغة هو الحارس، فكأنها تحرس من التلف الماشى عن الطريق؟ قلت: وفي «القاموس» مايشهد له في مادة نظر ـ بالظاء المعجمة ـ إذ قال: والمناظر أشراف الأرض.هـ ولو قالوا: رؤوس النواطر بالطاء (غير) المنقوطة لكان أظهر في معنى الحراسة لقول «القاموس»: الناطر والناطور حافظ النخل والكرم. اهـ على أنه لامانع من أن يقال: المعنى هذه رؤوس السنواظر أى المنظور إليها فأسند النظر إليها مجازاً ومبالغة على حدّ: (في عِيشةٍ راضية) أى راض صاحبها.

ثم ارتحلنا وقد مضى النهار ست ساعات في جبال وأودية من رمال ولذلك يسمّى المحلّ بوادي الرمل وفي مثله يقول الشاعر: [2]

هـذي بـيـادِرُ رَمْـلٍ ... تـرى الأعـاجـيـب منهـا
الـريـح طـول الـليـالـي ... تـسـفـي وتـكـتـال منهـا
والـوضـعُ لم يـتـغـيـرْ ... وشـكـلـهـا لم يخـنْـهـا

ويسميه بعض الناس المنصرف ـ بفتح الراء ـ [3].

---

(١) في الأصل الظاء منقوطة ويفهم من هذا أنها طاء مهملة.

(٢) هو صلاح الدين الصفدي ـ كما في كتاب «الدرر الفرائد المنظمة.

(٣) وبين المدينة ومكة ـ بالقرب من المدينة موضع كان يعرف باسم المنصرف، لأن الطريق إلى =

ومررنا بعده بوادى السدرة والخروبة، لوجود شجرها به، وبه تجتمع طريق النابعة ورؤوس النواظر، والمحل محل سرقة غالباً، ومررنا بعقبة القبة، وقد سويت في زمان طولون، ومع ذلك قاست الإبل بالجميع شدة، ولم نحط الرحال إلا وقد قارب الزوال في أرض التيه، وهي أرض قفراء موحشة طويلة عريضة معطشة، وهذ هو تيه بني إسرائيل، قال المقريزى: هو أرض بالقرب من أيلة[1] وهو مقدار أربعين فرسخاً في مثلها، ويسير الراكب مرحلتين فحض(؟) التيه حتى يصل لحر فاران وفيه غرق فرعون، وفي التيه المذكور تاه بنو إسرائيل أربعين سنة لم يدخلوا مدينة ولا أووا إلى بيتٍ ولا بدلوا ثوباً، وفيه مات موسى عليه السلام ويقال إن طوله نحو من ستة أيام، واتفق أن المماليك البحرية لما خرجوا من القاهرة هاربين سنة اثنتين وخمسين وستمائة مرّت طائفة منهم بالتيه فتاهوا فيه خمسة أيام ثم تراآى لهم في اليوم السادس سوادٌ على البعد فقصدوه، فإذا مدينة عظيمة لها سور وأبواب كلها من رخام أخضر فدخلوها وطافوا بها فإذا قد غلب عليها الرمل حتى طمس أسواقها ودورها، ووجدوا بها صينية بعض البزاربر(؟) تسعة دنانير ذهباً عليها صورة غزال وكتابة عبرانية، وحفروا موضعها فإذا حجر على صهريج ماء فشربوا منه ماء أبرد من الثلج، ثم خرجوا ومشوا ليلة وإذا بطائفة من العربان فحملوهم إلى مدينة للكرد(؟) فدفعوا الدراهم(؟) إلى بعض الصيارفة فإذا عليها أنها ضربت أيام موسى عليه السلام ودفع لهم في كل دينار مائة درهم، وقيل لهم: إن هذه المدينة الخضراء من مدن بني اسرائيل وبها طوفان رمل يزيد تارة وينقص أخرى، لايراها إلا تائه، والله أعلم.

وفي «الروض المعطار»:[2] وينسب البحر إلى فاران وهي مدينة من مدن العمالقة على تل بين جبلين وفي هذين الجبلين نقوب كثيرة لاتحصى، مملوءة أمواتا، ومن هناك إلى بحر القلزم مرحلة واحدة. ويقال له هناك ساحل بحر فاران، وبين مدينة فاران وبين التيه مرحلتان ويذكر أن فاران اسم لجبال مكة

= مكة كان ينصرف منه يساراً، أما الآن فيتجه قصداً إلى الصفراء، ويعرف الآن باسم (المسيجيد) أصبح بلدة عامرة.

(١) ص ١٩٨/١٩٩.

(٢) لم أجد هذا بنصه كاملاً في «الروض المعطار» في المطبوعة بتحقيق الاستاذ الجليل الدكتور إحسان عباس.

أو الحجاز وهي التي ذكرت في التوراة، والتحقيق أن فاران والطور كورتان من كور مصر القبلية وهي غير فاران المذكورة في التوراة، وقيل: إن فاران بن عمرو بن عمليق هو الذى نسب إليه جبال الحرم فقيل جبال فاران، وكانت مدينة فاران من جملة مدائن مدين إلى اليوم وبها نخل كثير مثمر أكلت من ثمره، وبها قصر عظيم وهي خراب يمر بها العربان[1].اهـ.

وفي «القاموس»: وفاران جبال مذكورة في التوراة منها بكر بن القاسم. زاد في «الروض»: والتيه مقدار أربعين فرسخاً في مثلها أو أربعة فراسخ في مثلها وفي محصة(؟) مات موسى وهارون على نبينا وعليهما أفضل الصلاة والسلام.

وفي الرحلة الصغرى: ثم ارتحلنا من عجرود قبل الزوال، و بلغنا أن ماقدمه أمير الركب أمامه من زاد وجمال نهبته الأعراب، فنزلنا قبل الزوال في القباب من أرض التيه.

النخيل[2]: وقال ثم ارتحلنا من التيه عشية يومنا و بالناس من العطش الشديد والحر السائل المديد، مايكل عنه البيان، ولايعرب عنه لسان، وفي ذلك يقول الشيخ أبو سالم رحمه الله ورضي عنه[3]:

ولم أنسَ بالتِّيه يوماً به	تفانى الحجيج صدى وولوها
وإن يستغيثوا يغاثوا بما	ءِ عجرود كالمهل يشوي الوجوها

وقال البكري:

لاتسلكنَّ بوادي التيه منفرداً	بلا دليل تَرى وقع الرَّدى فيه
فما سمعت كلاماً من أخي ثقةٍ	في الناس إلا وقال: احذر من التيه

ولم ننزل النخيل[4] إلا بعد الزوال، وبتنا به ليلة، وبه تعرَّض لنا أهل غزة

---

(١) ص ١٩٦/١٩٩.

(٢) الاسم المعروف (نَخل) ولانَخلَ فيه ويقال (نخر) وانظر كتاب «الدرر الفرائد المنظمة» ص ١٣٢٧ ــ طبع (دار اليمامة).

(٣) العياشية ١/١٦٣.

(٤) وفي الطريق بين المدينة ونجد وادي النُّخَيْل ــ اشهر من هذا الموضع واكثر ذكراً في الشعر القديم، لايزال معروفاً ومأهولاً وشرقه بنحو خمسة عشر كيلا نخل (الحناكية الآن).

من أرض الشام بالمحتاج من شعير وسمن، وفواكه من عنب وتفاح وموز ورمان وسفرجل وزبيب وتين يابس، قل أن يوجد لفواكهها نظير، وبينهما نحو ست مراحل، وهذا البندر فيه حصن وبئر يسقى منها الماء يجمع بجانب الحصن في صهاريج دون التي بعجرود، وليست البئر بداخل الحصن خلافاً لسيدي[1] عبد المجيد في رحلته، ولعله لم يشاهدها بنفسه، فظن أنها كعجرود وليس كذلك، وربما قل ماؤها، وهو فيما يبدو لشاربه عذب، إلا أن معه من الثقل مايضر حتى الدواب، فلقد شاهدنا من شربه من البغال فمات لحينه، واشتهر عند الحجاج وأهل مصر حتى جعلوا يحذرون من تناوله حتى للدواب والعذر لأبي سالم ومن تبعه على مدحه، ولعلهم وردوه إثر المطر وليس بالمكان نخل وإنما هو حصن صغير، بجانبه بئر وفسقيات في عراء من الأرض وفيه يقول البكري:

إلى نخل الحصينة سِرْ حميدًّا ... ترى فيه المُنى والخير باقي
ولا تشكو الظماء لفقد ماءٍ ... فساقيها مقيم بالفساقي[2]

وفي الصغرى: من القباب قبل العصر فحططنا النخيل ضُحى في مشيْ زائد على المعتاد، وبه سَوَّقَنا أعرابُ غزة بناحية الشام بالمحتاج من إبل وشعير وأنواع الفواكه، الزبيب واللوز وغيرهما، وأقمنا به بقية يومنا والليلة بعده، وحملنا ماء ثلاث مراحل إلى بندر العقبة.

بئر العلائي ــ عرقوب البغلة، وقال: ثم منه وقد مضى من النهار سبع ساعات ومررنا بوادى القريض وفيه يقول الشاعر:

في وادى القريض كم سائر[3] ... من غير نعْل ثابت الكعب
قد صار كالاعجام من شوكه ... يرقص من رقص على الكعب

ثم نزلنا بئر الصعاليك ويقال بئر العلائي وبئر البارود بعد أن مضى من

(١) حاشية: (قلت: بل بداخله وبجانبه قديماً كما وقفت عليها سقي منها جميعاً، وسقينا منها أيضاً فالصواب مع السيد عبد المجيد). انتهى. وهو يقصد عبد المجيد الزبادي ورحلته معروفة.

(٢) ص ١٩٩/٢٠٠.

(٣) في العياشية ١٦٧/١: (في وادي فيحاء) وهي (الفيحاء).

النهار بعده ساعة، وهي بئر عادية واسعة، مبنية بالحجارة في فلاة من الأرض قليلة الماء مع برودة وملوحة، لايطمع في مائها مع قبحه إلا الصعاليك ولذلك نسبت إليهم، وكثيراً مايموت بها الكثير منهم بسبب زحمتهم على الماء سيا فى القيظ، وبجانبها أثر بناء وبركتان مندثرتان، قال الشاعر:

إلى بئر العلائى قد أتينا وفزنا بالنجاح وبالثناء
شكرنا للدليل وقد دعانا إلى شيء يوصّل للعلاء

ثم ارتحلنا في الساعة العاشرة من يومنا فمررنا بعد هُدْء من الليل بعرقوب البغلة وهي عقبة صعبة إلا أنها نحتت وسُوّيت وبنيت وعلى جانب الطريق بها مسجد صغير غير مستكمل، عمل الأمير رضوان المتولى لإمارة الحاج مايقرب من ثلاثين سنة، وتوفي سنة ستة وستين وألف أو قريباً منها. قلت: وفي هذا المكان حجر منقوش فيه تاريخ تسعمائة، وكانت له آثار حسنة في طريق الحجاز من قطع الأشجار، وإزالة الأحجار وحفر الآبار، وتجديد البرك:

وإنما المرء حديث حسن فكن حديثا حسناً لمن وَعَى[1]

وقال الآخر:

وكن حديثا حسنٌ ذكره فإنما الناس أحاديثُ

ثم نزلنا سطح العقبة على غير ماء، وهو مكان فسيح منبسط كثير البرد شديد الخوف من المحاربين.

وفي الصغرى: ثم ارتحلنا قبل الزوال ــ من النخيل ــ وحططنا العلاء ضحوة، بعد تعدي بئر الصعاليك التي لايغني ماؤها الضنين القبيح شيئاً. ثم منه، قبل الزوال، ونزلنا سطح العقبة بعد حلول النافلة، وأقمنا به بقية اليوم والليلة.

العقبة: قال: ثم منه وقد مضى من الليل ثلاث ساعات فهبطنا فنزلنا عقبة أيلة وهي عقبة كؤود شاقة، في الذهاب حدور وفي الرجوع صعود، ثم نزلنا بندرها،

---

(١) ص ١٩٩/٢٠٠ البيت لابن دريد والمعروف: وإنما المرء حديث بعده.

دو الآبار العذبة والنخيل على شاطيء البحر، وبه حصن حصين، وقد مضى من النهار أربع ساعات، ولم يصل أواخر الركب إلا بعد الزوال من طول العقبة وشدة مالاقت الدواب بها، بعد ترتيب الجيش على فتن الجبال يمينها وشمالها، فسوّقنا الأعراب ـ يقال لهم الأعلوين[1] وأهل غزة بجميع المحتاج، وليس في بنادير الحجاز أكثر سوقاً، وأجمع من هذا المكان إلا ما كان من بندر المويلح و ينبوع(؟) فيقربان منه، وبمقبرة هذا البندر قبر الشيخ إبراهيم اللقاني المصري، وبه هلك السيد عبد المولى بن يعقوب الدّرعى صاحب الركب السجلماسي في سنتنا هذه بعد خروجنا نحن مع المصرى، فمرض ومات فدفن هنا رحم الله الجميع.

قال في «الروض المعطار»: أيلة في طريق مكة من مصر وهي حدّ الحجاز، وهي مدينة على ساحل البحر المالح، جليلة القدر، بها يجتمع حاج مصر والمغرب، وبها التجارة الكثيرة، وأهلها أخلاط من الناس، وسميت بأيلة بنت مدين. قالوا: وهي القرية التي كانت حاضرة البحر المذكورة في القرآن. قال ابن إسحاق: ولما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك أتاه يحنة بن رؤبة صاحب أيلة فصالحه وأعطى الجزية وكتب له كتاباً أمنه، وروى أبو حميد الساعدي أنه أهدى النبي صلى الله عليه وسلم بغلة بيضاء وكساه برداً وكتب له. وتسير من أيلة فنقطع العقبة التي لايصعدها راكب لصعوبتها ولا تقطع إلا فى طول اليوم ثم تسير مرحلتين في فحص التيه.

وأيلة حَدُّ مملكة الروم في زمن الغابر، وعلى ميل منها باب معقود لقيصر قد كان مسلحته يأخذون المكوس فيه، ومن أيلة إلى بيت المقدس ست مراحل والطور الذى كلم الله عليه موسى من أيلة على يوم ونصف، و ينزلها اليوم قوم من بني أمية، وأكثرهم موالي عثمان رضى الله عنه كانوا سقاة الحاج، وبها علم وآداب، ومتاجر وأسواق، كثيرة النخل والزرع وأصلح عقبة أيلة (فائق) مولى خماريه[2] بن أحمد بن طولون، وسوى طريقها وبنى مايحتاج إلى البنيان[3]

---

(١) يقصد فرعاً من قبيلة الحويطات يعرفون باسم (العلاوين) انظر ص ١٨٩ من «معجم قبائل المملكة العربية السعودية» وحرف العين منه.

(٢) ص ٢٠١.

(٣) في «الروض»: وردم ما استرم منها. وبأيلة أسواق ومساجد، وفيها كثير من اليهود يزعمون أن عندهم برد رسول الله صلى الله عليه وسلم الخ.

إصلاحا بعده السلطان الأشرف الغوري آخر ملوك الشراكسة من جملة ماأصلح في طريق الحجاز في أواخر عمره قبل العشرين وسبعمائة[1]. وبأيلة كثير من اليهود، يزعمون أن عندهم بُرْدَ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه وجهه إليهم أماناً، وهم يظهرونه، رداء عدنيّا ملفوفاً في الثياب، فما برز منه مقدار شبر.

وفي «خطط المقريزى» أن أيلة مدينة على شاطيء البحر ــ فذكر ماتقدم وزاد:ــ واختلف في تعيين القرية التي كانت حاضرة البحر، فقال ابن عباس وعكرمة والسدي: هي أيلة. وعن ابن عباس أيضاً أنها مدينة بين أيلة والطور، وعن الزهري أنها طبرية. قال: وسُئل الحسن بن الفضل هل تجد في كتاب الله تعالى الحلال لايأتيك إلا قوتا والحرام يأتيك جزافاً؟ فقال: نعم في قصة أيلة (إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً ويوم لايسبتون لاتأتيهم). واقتصر الحافظ ابن كثير في تاريخه المسمى: «البداية والنهاية» على أن القرية التى كانت حاضرة البحر هي أيلة بين مدين والطور، ونسبه لابن عباس وفي العقبة المذكورة يقول الشاعر:

عقباتٌ تسلك الناس بها	بقلوب لم تزل مرتعبه
قد قطعناها بوقت هيّنِ	لم نَرَ فيها أموراً متعبه
نحمد الله الذى خلصنا	وأرحنا من عقاب العقبه

---

(١) قال ابن إياس في حوادث ربيع الأول سنة ٩١٤: (رسم السلطان لخاير بك المعمار بأن يتوجه إلى عقبة ايلة ويأخذ معه جماعة من المهندسين والبنائين وقد شرع السلطان في بناء خان بالعقبة، والبروج، وفساقي برسم ملاقاة الحجاج، وعمر رصيفا على البحر عند العقبة. ورسم بإصلاح العراقيب التي بالعقبة، وكانت تتضرر منها الحجاج، قيل: أصلح ذلك(؟) وجاء من أحسن المباني في ذلك المكان: «بدائع الزهور» ١٣٣/٤.

وذكر في حوادث المحرم سنة٩١٥ أن الحجاج لما رجعوا أخبروا بما فعله السلطان من العمارة بالعقبة وقد أنشأ هناك خاناً وفيه عدة حواصل برسم الودائع وأبراجا، وجعل فيها جماعة من الأتراك يقيمون بها سنة ثم يعودون إلى مصر ويتوجه جماعة غيرهم إلى هناك وأصلح طريق العقبة وقطع الأماكن الصعبة التي كانت بها العراقيب، وأنشأ برجاً بعجرود، وبرجاً بنخل وأصلح عدة مناهل بطريق مكة، وبنى هنالك أشياء كثيرة من هذا النمط، وأنشأ بالازنم(؟)برجاً أيضاً وجعل فيه جماعة من المماليك يقيمون به، وكل مامضت سنة يحضرون ثم يتوجه غيرهم.

وذكر في حوادث رجب سنة ٩١٥ عودة خايربك المعمار من بناء الخان والأبراج التى أنشأها السلطان في العقبة: «بدائع الزهور» ٤ ــ ١٥٢/١٦٣.

وقال:

بطريق أيلة أجبل وعقاب لايرتجي فيها النجاة، عطاب
فكأنما الماشي عليها مذنبا وكأنما تلك العقاب عقاب

وقال:

سلكنا عقابا في طريق كأنها صياصي ديوك أو أكف عقاب
وما ذاك إلا أن ذنبي أحاط بي فكان عقابي في سلوك عقاب[(١)]

وقال العبدري[(٢)]: وهناك قصير وأثر بناء قديم، وهو موضع مدينة أيلة، وماؤها أحساء في الرمل في ساحل البحر، إذا طممت الموج كستها، ومع ذلك مأثر البحر. وأيلة معدودة من كور مصر، فيها عدها البكرى. وجعلها القاضي صاعد حد طول مصر، وذكرها التجيبي صاحب الرسالة في رسالته فقال: إن منها إلى مكة نصف شهر فغلط فيها أيضاً كما رأيت وذلك غير مستنكر، فإن لم يشاهد الشيء يصعب عليه وصفه، وقل مايسلم فيه من الغلط.

وفي الرحلة العياشية[(٣)]: بحثنا عن أثر القرية التي كانت حاضرة البحر هل بقي من رسومها شيء؟ فقد ذكر بعض المفسرين أنها أيلة، فلم نجد من يشفي لنا خبرها، وقد ذكر لنا بعض الناس أن بأعلى الوادي أثر بناء كثير يشبه أن يكون مدينة، ولعلها هي، وقد أخبرنا كثير من متوسقة الأعلاف[(٤)] الذين هنا أن وراء الجبل الكبير المشرف على القرية بلدة بها نخل وماء إلا أنها خالية، ويمكن أن تكون هي فإنها قريبة من البحر. والعلم عند الله. هـ.

فظاهر كلام صاحب «الروض» المتقدم أن محل البندر العامر الذى فيه السوق اليوم بين أهل غزة والأعراب مع الركب هو أيلة نفسه، و يدل له قول العبدري: وأيلة من أسواق الركب الكبار، وربما أقام فيها يومين أو ثلا ثة لأنها

---

(١) ص ٢٠٢.
(٢) ص ١٦٧.
(٣) ج ١ ص ١٦٧.
(٤) في العياشية: الأعراب.

مجمع المصريين والشامين، يتحيَّنونها في طلوع الركب ورجوعه بأنواع المبيعات ولاسيا الطعام ونحوه، قال القسطلاني في باب صلاة الجمعة في القرى والمدن من «شرح البخاري»: وأيلة مدينة ذات قلعة، وهي الآن خراب، ينزل بها حجاج مصر وغزة، و بعض آثارها ظاهر(١).

وفي الصغرى: وارتحلنا بعد صلاة الصبح ــ من سطح العقبة ــ عقبة أيلة، ونزلنا البندر ظهراً، وهل هو محلُّ القرية المعنية بقوله تعالى: (واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر) أو غيره بقربه، اضطراب، كما اختلف أيضاً في القرية التي استطعم أهلَهَا موسى والخضرُ ــ عليهما السلام ــ المشار إليها فى سورة الكهف، فقيل أيلة إذ هي ــ كما في ابن عطية وغيره ــ أبعد أرض الله من السماء، وأهلها أبخل خلق الله وأكثرهم لؤماً. وقامت به سوق في كل محتاج، على ما بالشعير والفول من الغلاء التام، وأما الغنم فلا تسل عن رخائها، جيء بها كغيرها من الفواكه من نواحي الشام. وأقمنا به بقية اليوم والليلة، وهذا ربعُ هذه البريّة، برية مابين مصر ومكة ــ على ماقيل ــ و يقال له الربع الخراب، لقلة مائه، وانعدام حطبه ومرعاه، إلا أن اذاية الأعراب به قليلة لتناول أحكام مصر لهم، عكس الربع الثاني من هنا إلى المويلح، فهو كثير الماء والكلإ، كثير إذاية سكانه من أعراب العُمران، والاعلوات وغيرهم، وهي بلاد طيء في القديم(٢).

ثم ارتحلنا ــ من أيلة ــ وقد مضى من النهار خمس ساعات وسرنا في مضيق بين الجبل والبحر في اعوجاج، لا تمر إلا دابة بعدها أخرى، وقلما يخلو المكان من متلصصة الأعراب سيمّا في الرجعة ومررنا بأحساء عذبة في نخيل على شاطىء تسمى حفائر النخل، تسكنه ضعفة الأعراب في وقت جذاذ النخل، وبها رطب، وبعدما تعدنياها نزلنا بعد مضى ساعتين من الليل ظهر الحمار و يسمى عند

(١) ص: ٢٠٢/٢٠٣.

(٢) هذا خطأ طيء شمال نجد، ومنشأ هذا الخطأ وجود واد يُدعى سَلْمَى بين ظبا والوجه، ظنه هو جبل سلمى أحد جبلي طيء.

الأعراب الحقل[1]، وهو بسيط عال من الأرض في حروشةٍ، يصعد إليه من عقبتين، واليمني وربع من اليسرى في المسلكين قال الشاعر:

صعدوا على ظهر الحمار لعلهم أن يبلغوا بصعودهم كل الأمَلْ
تعب الحمار من الطريق وطُوْلِهَا ومَدِيْدِهَا واجْتُثَّ من بعد الرملْ
حتى الجمال به شكت ياهل ترى يقبل به[2] عذر الحمار أم الجملْ

وليس النزول بهذا المكان عادة منذ القديم وإنما ينزل بعده بِعُشّ الغراب. ومن هذا لايرى البحر إلى عيون القصب بعد ثلاث مراحل.

ثم ارتحلنا من البندر ــ بندر العقبة ــ قبيل الزوال ونزلنا الحقل بعد غروب الشفق، في مياه عذبة سوقتنا الأعراب بالمحتاج.

ثم ارتحلنا عند الزوال وعلونا ظهر الحمار على صعوبته، وقاست الإبل به شدة عظيمة، وحططنا الشرافة[3] على غير ماء ضحوة.

وفي الكبرى: ثم منه وقد مضى من النهار خمس ساعات تاركين البحر عن يميننا، وسرنا في صعود بين جبلين في أرض كثيرة الغبار، تسمى وادي القرّ لبرودته وهو طويل متصل إلى مغارة شعيب وليس فيه ماء، ويسمى قبال بين البحر وبين الجرفين، وهو كما قال البكرى وكان كأن الجبال قسمت فيه قسمين، يحترز منه أن يَقْذف بالحجاج إلى البحر الملح الأجاج، وقال الشاعر ملغزاً فيه:

---

(١) كذا قال: والظاهر أنه اختلط عليه الأمر، فما يعرف باسم ــ حَقْل ــ غير مُعرَّف ــ هو مادعاه حفائر النخل وهو في واد منخفض سهل، ليس كما وصفه، وانظر للتعريف بحقل كتابنا «في شمال غرب الجزيرة» ص ٤٥٣ / ٤٦٠. و«المعجم الجغرافي» قسم شمال المملكة ــ رسم (حقْل).

(٢) في العياشية نقلاً عن البكري: «نقبل».

(٣) المعروف الشَّرفة، وشرفة بني عطيةو وقديماً تعرف بـ(شرف البعل)

وخمسةُ أحْرُف في اللفظ تقرا فإن صحفتها صحت بحرفينْ
وإن أسقطت خُمْسَيْها فيبقى ثلاثة أحرف من أصل ألْفَين[(١)]

فررنا جوف الليل بِغُشِ الغراب، وهو عن يمين الذاهب، فيه موضع قدر جلسة رجلين أو ثلاثة في صخرة عالية، وهذا المكان هو المسمى بذلك وربما تُوسُع فيه فانطلق على الجبَل كله، ثم بأرجام من الحجارة كالشعاب عن اليمين أيضاً تسمى عند العامة اليوم بالعظام، وذكر العبدري في رحلته أنه قبر السفاف قال: وهو رجل من العرب ذكروا أنه كان فيا مضى يسكن هنالك و يقطع على الحجاج ولايكاد يسلم منه أحد حتى مرض مرضه الذي مات فيه فسمع بأن بعض الحجاج على الطريق فاستدعى بنيه وهم يظنون أنه يأمرهم بإكرامهم وأنه قد تاب، فوجدوه قد اعتقل لسانه فقالوا له: نجيز الحجاج؟ فاشار إليهم أن لا. فما زالوا يراودنه و يذكرونه بما حلَّ به حتى أضجروه فرفع يديه وأشار إلى فيه ــ أى سُفُوهم سَفّاً ــ فسمي السّفاف ثم مات فرجم قبره من ذلك العهد إلى الآن وقد صار جَبَلاً من الحجارة.

ثم نزلنا قبل طلوع الشمس (بالشرافة) وهي المسماة في القديم بشرف بني عطية نسبة لقبيلة تسكن هذه البلاد، وأما الآن فتعرف الأعراب النازلون بها بالعُمْرَان، وهم أجرأ على الحرابة وأشد على الحاج، فقد تعرض أعداء الله قبيل طلوع الفجر من هذه الليلة للجمالين من الأعراب، و يدعون اليوم بالربائع في عرف أهل مصر، وقد سبقوا بركبهم قافلين بالكراء للركب فأخْذوا زهاء مائة جمل سلعة (؟) وقتلوا جماعة معهم من حجاج المغاربة الذين لم يألفوا القطار فجعلوا بدله النفار(؟) واثنين من الأعراب، ولم ينتطح عليها عنزان، وإنما ذهب أرباب السلع إليهم فصالحوهم على مائة ريال لكل جمل، فأخذوا المقدور على حمله وخلفوا الباقي، حتى صار المحاربون يبيعون عود النوار ونحوه من العطر المنهوب لمن جاء بعدنا من حجاج المغاربة بالكيل رخيصاً بأبخس ثمن كما يباع الشعير والتمر، وردُّوا لإخوانهم من الأعراب إبلهم، مجّاناً، فظَّن بعض الناس عند ذلك أنها مكيدة من الجمالين، والله تعالى من رواء الظالمين.

---

(١) يقصد اسم (جُرفين) فهو خمسة أحرف، وإن صحفته صار (حرفين) وإن أسقطت (جر) بقي (فين). ولايزال الموضع معروفاً وقد يقال فيه (أم الجرفين) أو (بين الجرفين).

لطيفة: (زعم الأعراب أن الإبل تنفر في هذا المكان، وأنها تسمع صوت سقب[1] ــ بالسين والقاف أى ــ ولد ناقة صالح عليه السلام ــ و يقال بالصاد بدل السين ففي «القاموس».. في مادة السقب بالسين مانصه: السقب ولد الناقة أو ساعة يولد، أو خاص بالذكر، وفي مادة الصقب ــ بالصاد منه مانصه: الصقب من الناقة ولدها. (وأنه في هذه الجبال وأنها الصخرة التى دخل بها لمّا عُقرت أمُّهُ، فالإبل إذا وصلت إلى هذا المحّل تسمع صوت العشار فتنفر. قال الشيخ أبو سالم: (ولا أدْري من أين لهم ذلك وهو بعيد، إذ ليست هذه بديار ثمود الذين عقروا الناقة وهم قوم صالح عليه السلام) قلت: وقد تقدم نحوه في إيالة طرابلس مما يلي إيالة تونس، ولاإخال شيئاً من ذلك يصح لأن ديار ثمود ليست بتلك ولابهذه، والله أعلم بغيبه، وتخبر العرب أيضاً أن من وراء الجبل عن يسارك وأنت ذاهب بلد واسع، فيه ماء جار، وأرض مخصبة وربما عطش الركب في ذلك المحل فتأتيهم الأعراب بما يبتاعونه. وفي الشرافة[2] المذكورة يقول الشاعر:

إذا ماجئْتَ للشرفَه ... ترى العُرْبانَ مختلِفَة
وأما العِيْسُ فاجعلها ... بِخُشْنِ الحفظ مُتّصِفَة
فإن مُنِعتْ بِحُرَّاسٍ ... وإلاَّ فهي مُنْصرفَة

ثم ارتحلنا من الشرافة[2] وقد مضى من نهارنا خمس ساعات في انحدار مع الوادي، وتعرَّض المحاربون أيضاً ليلاً فأخذوا عشرة من الإبل بما عليها فذهبت مذهبها ونزلنا مغاير شُعَيْب، والعرب تقول له البِدْع، وقد مضى من النهار بعده ساعة وثلث، وهو وادٍ ذو مياه دافقة عذبة إلى الغاية، باردة إلى النهاية، جارية في نخيل بطرف الغاية، وتَسَوَّقَنَا به أعرابُ مَدْيَنَ يدعون العُمَيرات وغيرهم بتمر وغنم وغيرها من المحتاج. قال الشاعر:

قد وصلنا إلى مغار شعيب ... فرأينا المياه كالأنهار
فاستقينا من مائه واشتفينا ... وظفرنا بغاية الأوطار

---

(١) العياشية ١٦٩/١ : صقب ومابين القوسين منها.

(٢) كذا والصواب (الشرفة).

وذكــرنــا بــغــاره غــار ثَــوْرِ مــن حــوى للـصـديـق والمخـتـار
خير مــن أنْــزل الإلــهُ عــلــيــه : (ثاني اثنيْن إذ هُمَا في الغار)

والمحل محل سرقةٍ واختلاس، وعن يسار منزل الركب خارج المضيق مغارة كبيرة مرتفعة السّمك جدا معجبة الصفة، متسعة من بابها إلى داخلها، مضيئة لأجل اتساعها، وهي في حجر أصَم بأصل حدب غليظ، وفي بابها يسير ارتفاع، فإذا دخلتها انحدرت في درج حجارة جعل لأجل الزلق.

قال العبدري: والمغارة نفسها من صنع الله الذى اتقن كل شيء لاقدرة على مثلها لآدمي، والماء في قعرها كثير ظاهر بالباب راكد، كأنه بركة مطر، وبين باب المغارة وقعرها بالتقدير ستون أو سبعون ذراعاً، وهي آخر وادي القر.

قال الشيخ أبو سالم[١]: يقال إنَّ فيها كان شعيب على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام يأوى بغنمه، وبإزائها بئر كبير معطلة وبجانبها بركة، يقال إن هناك كانت البئر التي سقي منها موسى عليه السلام غنم شعيب عليه السلام وبينها وبين مَدْيَن نصفُ يوم، وهي بلدة على ساحل البحر كثيرة الفواكه والمياه الغزيرة، وسكانها أعراب بادية، وكانت قبل ذلك مدينة يُذكَرُ أنَّ أثر البنيان باقٍ بها إلى الآن هـ.

وفي «الرحلة الناصرية»[٢]: أن عنب مَدْين يطعم مرتين في العام حسبما حدثنى به رجل من أهلها، وأتانا بشيء منه في نصف مارس وكان عِنَباً جديداً.

وفي «الروض المعطار»: **مَدْيَنُ** بالشام على ساحل بحر القُلزم، وهي أكبر من تبوك، وبها البئر التى سقى منها موسى لابنة شعيب عليه السلام[٣] قال الله تعالى: (ولما وَرَدَ ماء مدين) يحكى أنها بئر معظمة، وسميت مدين بالقبيلة التى كان منها شعيب عليه السلام وفيها معايش ضيِّقة، وتجارات كاسدة، ومن مدين إلى أيلة خمس مراحل، ومَدين الذى سميت به البلدة هو مَدْين بن إبراهيم عليه

(١) العياشية: ١٦٩/١.

(٢) ص: ٢٠٥

(٣) في الروض: لسائمة شعيب بدل (لابنة شعيب). معطلة: بدل (معظمة).

السلام وفي القرآن (وإلى مدين أخاهم شعيباً) وقال بعضهم: لم يكن شعيب عليه السلام من ذرية إبراهيم عليه السلام وإنما هو من ذرية بعض من آمن به، وهم أصحاب الأيكة، من ولد مدين بن إبراهيم عليه السلام وسلّط الله تعالى على قومه حَرّاً شديداً أخذ بأنفاسهم، ثم بعث الله سحابةً ظُلةً فوجدا لها بَرْداً فلما صاروا تحتها أرسلها عليهم ناراً فذلك قولهُ تعالى: (فأخذهم عذابُ يوم الظُّلّةِ) فاحترقوا كما يحترق الجراد في المقلاة وكانوا أهل كفر بالله وبخس بالمكيال والميزان. وزعم قوم أن أهل مدين الذين بعث الله إليهم شعيباً من العرب العاربة والأمم الدائرة وليسوا من ولد مَدْين بن ابراهيم.

ومدين في الطريق من مدينة النبي صلى الله عليه وسلم إلى مصر، وهي بين جبال شامخة، وبقرب مدين البئر التي استقى منها موسى عليه السلام قد بني على أقنيتها[1] بيتٌ من صخر، فيه قناديل معلقة وبها كهف يُسَمَّى كهف شعيب كان يؤوى إليه غنمه، وفي الجبال التى هناك بيوت منقورة في صخر صم قد حفر في البيوت قبور، وفي تلك القبور عظام بالية كأمثال عظام الإبل، يكون مقدار كل بيت عشرين ذراعاً ونحوها، ولتلك البيوت روائح خبيثة، ولايدخل الداخل فيها حتى يضع يده على أنفه من شدة النتن، يقال إنهم لما أخذهم عذاب يوم الظُّلّة دخلوا فيه فهلكوا، وفي قرب هذه البيوت تلالُ تراب عظيمة، قيل إنها كانت مواضعهم عامرة فَخسفت بها.

ومع يهود مَدْين كتاب يزعمون أن النبي صلى الله عليه وسلم كتبه لهم، وهم يظهرونه للناس حتى الآن وهو في قطعة أديم قد اسوَدّت لطول الزمان عليها إلا أن خطها بَينٌ، وفي آخره: وكتب علي بن أبو طالب غير مَعرب، وقال قوم: إنه بخط معاوية بن أبي سفيان، ولم يذكروا علياً وهو عند أهل قرية من ساحل مدين يقال لها متني[2].

---

(١) في «الروض»: على أسِّها.

(٢) كذا وفي الروض (مسى) والصواب: «مَقْنَا» بفتح الميم وسكون القاف بعدها نون مفتوحة، فألف مقصورة (مَقْنا) وقد اعتور هذا الاسم التصحيف منذ القدم، ولكنه ورد في كثير من الكتب

ثم قال ابن عبد السلام: وقال المقريزي في «الخطط»: مَدْيَنُ على بحر القلزم يحاذي تبوك على نحو ست مراحل، وهي أكبر من تبوك، والجمهور أنه عجمي قال: وقيل إن الأيكة المذكورة في قوله عز وجل: (كذّب أصحاب الأيكة المرسلين ــ وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين) هي مَدْيَن. وقيل: من ساحل البحر إلى مدين، وقيل: هي غيظة(؟)... مدين. وقيل: بل أصحاب الأيكة الذين بُعث إليهم شعيب كانوا بتبوك بين الحجر وأول الشام، ولم يكن شعيب منهم، وإنما كان من مدين.

وقال أبو عبيد البكري: مَدْيَنُ بلد بالشام معلوم تلقاء غزَّة، وهو المذكور في القرآن وهذا وَهْمٌ فإن بلد مَدين من أرض مصر، وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية إلى مَدْيَن أميرهم زيد بن حارثة فأصاب سبياً وفرق بين الأمهات والأولاد فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يبكون فقال: «مالهم؟» فأخبر خبرهم، فقال: «لا تبيعوهم إلا جميعاً».

ومدين من منازل جذام بن عدي بن الحارث وشعيب أحد بني وائل بن جذام، يروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لوفد جذام: «مرحباً بقوم شعيب وأصهار مُوسى، ولا تقوم الساعة حتى يتزوج فيكم المسيح ويولد له» وكان بأرض مدين عدة مدائن كثيرة قد باد أهلها وخربت وبقي منها إلى يومنا هذا ــ وهو سنة ست وعشرين وثمانمائة ــ نحو الأربعين مدينة قائمة، منها مايعرف اسمه، ومنها مآجهل اسمه، وبمدينة مدين إلى الآن آثار عجيبة وعُمُدٌ عظيمة. هـ. مختصراً).

وفي «البداية والنهاية» لعماد الدين ابن كثير: مدين مدينة قريبة من أرض معان من أطراف الشام مما يلي ناحية الحجاز، قريباً من بُحيرة قوم لوط، وكانوا بعدهم بمدّة قريبة، ومدين قبيلةٌ عرفت بهم المدينة. هـ.

= صحيحاً وكانت قرية مقنا معمورة منذ العهد النبوي فيها نخل ويعمل أهلها في البحر وذكر الواقدي في (المغازي) ــ ١٠٣٢ ــ أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) اعطى عَبيد بن ياسر بن نمير ورجلاً آخر أسلما وقدما عليه بتبوك أعطاهما رُبْعَ مقنا، مما يخرج من البحر ومن التمر من نخلها ونص كتاب الرسول (صلى الله عليه وسلم) لأهل مقنا أورده الدكتور محمد حميد الله في كتابه «مجموعة الوثائق السياسية» ــ ٥٦ ــ.

والبئر المذكورة لم يبق اليوم لها أثر، نعم : حدثني بعض الثقات من حجاج مصر أنه يعرف ببطن الوادي صفواناً كبيراً غاية تَوَاتر أن البئر تحته غُطِي فَمُها به، فجاءت السيول بعد ذلك برمال وتراب فأعفتها، فلم يبق لها ولاسيما غطيت به من الحجر أثر والله ربنا أعلم وربما يرده قول المقريزي: (ومدين بها البئر التي سقى منها موسى سائمة شعيب. فظاهره أنها داخل مدينة مدين اللهم إن عنى قُطْرها فوادي المغارة منه، ويدل له قول «الروض» المتقدم: وبقرب مدين البئر الخ —

وفي الصغرى: ثم منها — أي الشرافة — قبيل الزوال، ونزلنا مغاير شعيب قبيل الفجر، في مياه جارية عذبة، وقامت بها سوق عظيمة مع سكان مدين، بناحية البحر وغيرهم، فى كل محتاج، مع الغلاء التام.

وقال: ثم ارتحلنا وقد مضى من نهارنا سبع ساعات ونزلنا عيون القصب وتقول الأعراب، عينونة، وقد مضى من النهار بعده ساعة وخمسة أدراج، وماؤها عذب نمير جار عن يسار الذاهب في مضيق من الجبل ثابتة على ديس[1] قريب من البحر، وهو أقرب مياه الدرب وأقلها كِلْفَةً. وفى أعلى الوادي في الجبل نخل وأرض زراعة فلا يخلو من الأعراب فيكثر ضررهم، وعلى شفير الوادى قريب من منزلة الركب مسجد مبني بالحجارة المنحوتة ومنبر بإزائه، وفي هذا المكان يقول الشاعر[2] :

قد وصلنا لعيون القصب	واستراح القلب بعد النّصَبِ
وعيون الماء فيها قد جرتْ	كسيول الغيث بين القصبِ
فجلسنا في صفاءٍ حولها	وظفرنا عندها بالأربَ
وتشوقنا لشاد مُطْرب	يتغنّى بعيون القصب

وبهذا المنزل قال شاعر في بدوية اسمها ساكتة:

بروحي أفدى ظبية بَدويّةً	لها وَجْنة فيها الأَزَاهِيْرُ نابتهْ
إذا رمتُ منها أنْ تكلمني غدت	تكلمنى ألحاظها وهي ساكتهْ

---

(١) كذا في العياشية ١٧٠/١ والدّيس لغة جمع ديسة وهي الغابة المتلبدة.

(٢) الشعر للبكري كما في العياشية ١٧٢/١.

وفي الصغرى: ثم منها ــ مغاير شعيب ــ عند الزوال ــ ونزلنا عيون القصب، ذى المياه العذبة، ضحوة.

ثم منه وقد مضى من النهار بعده ست ساعات ونزلنا المويلح وهو بندر حصين، به وخارجه آبار كثيرة منها العذب وغيره وبه بعض نخل، وهو أكبر البنادر وأجمعها للأعراب، بنو عقبة ومعّازة وغيرها، وربما ورده أعراب بَلِيٍّ، وهم الذين يحملون الفول وغيره للركب بالكراء إلى قرب جُهَينة وقامت فيه سوق في المحتاج حتى الفواكه الكثيرة والمقاثي المنوعة، وبه قبر سيدى محمد والد الشيخ عبد الكريم الفوني القسمطيني[١]، وعليه بناء على شاطيء البحر قرب منزل الركب، وبه أيضاً ضريح صالح يدعى المويلحي، وبه سمي المكان حسبما تقدم مثله في عجرود، حدثنا بذلك الثقات من أهل مصر، وبه مَرْسَى في البحر تنزل بها السفن الجائية من مصر وجُدَّة وسُويْس والقُصير وغير ذلك وبه تخزن الميرة، وبه جيش سلطاني لايفارقه دائماً وأقمنا به ليلتين، قيل: وهو النصف فيما بين مصر ومكة.

ويقال للربع الأول من مصر للعقبة الخراب، لخلوه من ساكن من الأعراب ومن الحطب والكلإ وقلة الماء مع شدة الحر والبرد فى وقتهما.

وأما الربع الثاني من العقبة إلى هنا فكثير المياه إلا ماكان من يوم الشرافة(؟) كما تقدم ــ

وفي الصغرى: ثم من عيون القصب بين الظهرين، ونزلنا المويلح ضحى، ذى آبار كثيرة عذبة، وقامت به سوق عظيمة، لم يُرَ مثلها، شهدتها أنواع الأعراب ابلى[٢] وجهينة وحرب وغيرهم مما استقبلنا من الأعراب، على مابالمِيَر من الغلاء التام الذى لم يُر مثله، وها هنا ينتهي درك مصر، الاحويطات[٣] وغيرهم، يحملون الكراء إلى هنا، فيحمله أعراب الحجاز، ابلى[٢] وجهينة وغيرهما، وأقمنا بهذا البندر بقية يوم السبت ١٥ ذى القعدة وهو الثاني من ميه[٤]، والليلة بعده.

---

(١) كذا في العياشية ١/١٧٠.

(٢) الصواب بلي ــ بحذف الألف والخطأ نشأ من كون العامة تنطقه باسكان الباء فيتوهم أن الألف أصلية.

(٣) الصواب الحويطات، والخطأ سببه النطق العامي الذي يبدأ بحرف ساكن (حويطات).

(٤) يقصد (مايو).

وقال: ثم ارتحلنا في السادس والعشرين من ذى القعدة وقد مضى من النهار أربع ساعات غير ثلاثة أدْراج ونزلنا آبار السلطان كما تقول المغاربة، وبعضهم يقول: دار أم السلطان، وبعضهم يسقط (أم) مقتصراً على قوله دار السلطان، نسبة لأميرٍ أمر بِحَفرها.

والكفافة جبل عن يسار الطريق قد برزت منه شماريخ مصطفة كأنها أضراس. قال العبدري: يقولون إنها نصف الطريق من مصر إلى مكة، وأهل مصر يقولون: سلمى، وأهل البحر: الكفافة والعرب: الظبا، وقد مضى من الليل تسع ساعات وهي ثلاثة آبار عذبة غاية قلما يكاد يُرى مثلها عذوبة وصفاء في مياه الدرب، وقد كانت من قبل فيما تواتر أجاجاً لفيضان البحر عليها ثم إن الله تعالى ردَّها لحالها من العذوبة مع برودة، ولازالت على ذالك، وفي واديها يقول الشاعر:

إن وادى سلمى بَهِيٌّ بهيجٌ ... حيث فيه قبر الولي المُسمَّى
صاحب السر والمعارف مرزو ... ق الكفافي طاب روحاً ومعنى
فإذا جئت قبره فتأدَّبْ ... ...

وفيها يقول سيدي عبد المجيد الفاسي:

هذي بلاد سلمى ... إنزل بها وسل ما
هناك ذاك الأسمى ... طاب أباً وأُمّاً
مرزوق قد تسمى ... ذاك الكفافِى الاجما
أما رأيت اليَمّا ... بين يديه ثَمّا (١)

(١) يحسن التنبيه على ــ ١ ــ أورد أبياتاً تتعلق بالتوسل بمرزوق الكفافي، ومعلوم أن التوسل بالأموات من الأمور المحرمة، اللهم إلا إذا كان للتوسل بمحبتهم، فحبّة الصالحين من الأعمال الصالحة التي هي خير الوسائل لمرضاة الله ــ ٢ ــ وجود الرائحة الطيبة عند قبر مرزوق الكفافي لأن كثيراً من العامة والجُهّال والمنحرفين يوقدون عنده شموعاً مطيبّة، وقد رأينا عند كثير من القبور في مصر والشام، وليس كما علل الرحالة، وذكر أن المسك تشم رائحته عند قبر الجزولي صاحب «دلائل الخيرات» في مراكش، وعبد الوهاب القيسي في طرابلس المغرب ــ ٣ ــ هذه البلاد التى تحدث عنها ليست بلاد طيء في القديم كما ظن المؤلف، وظنه هذا ناشىء عن إطلاق اسم سلمى على هذا الوادي، ومعلوم أن الاسم يطلق على مسميات مختلفة، فسلمى الذي من بلاد طي جَبلٌ وليس وادياً، وهو في نجد، ولايزال معروفاً.

وبالجملة فهذه بلادطيء في القديم، كما في «الروض المعطار».

ثم منها وقد مضى من النهار بعده سبع ساعات ومررنا بعد نحو فرسخين بضريح ولي الله سيدى مرزوق الكفافي على شاطيء البحر، وقد دارتْ به أحجار وأعواد عُلم بها عليه، وزرناه، والعامة تزعم أنه يُشمُّ بضريحه رائحه المسك ولايبعد في ذلك..

وهو النصف بين مصر ومكة:

وقال : ثم نزلنا الأزلم، وبه بندر قد صاح به البُوم وآبار ثلاثة محكمة، ماؤها بالقبح معلوم، وفيه أنشد الشيخ أبو سالم لغيره:

إذا لم يكن فيكن ظِلٌ ولاجنى فأبعدكُنَّ الله من شجرات

ثم على يسار البندر وأنت ذاهب على بعد أحساء ماؤها قليل لابأس به. ولايعرفها إلا الأعراب أو قليل من الحجاج ممن مارس المياه.

وسوقنا به أعراب بلي(١)، وبه قلت لعربية: أعندك جبن(؟) تبيعينه؟ فقالت ــ بهذا اللفظ ــ: لا والله البلاد ممحولة. تريد مجدبة أصابها محل أي جَدْب، فتعجبنا من فصاحتها. وماأحسن قول البكري: ثم سرنا إلى بندر الأزلم، ولايرغب فيه من بحقيقته يعلم، فماؤه ملح أُجاج، ماشربه إنسان إلا احتاج إلى العلاج.

وفي الصغرى: ثم ارتحلنا ــ من المويلح ــ قبل الزوال ضحوة الأزلم(٢)، ووقع الازدحام على مائة الضنين الخبيث، وليحذر من هذا المكان لاسيا زمن الصيف، فقد وجدنا داخل البندر وخارجه من موتى السنة الماضية مالا يكاد يحصى كثرة، نسأل الله تعالى العافية، ولاانتدب.. عياذاً بالله ــ أحد لدفنهم ومواراتهم، الكل يقول: نفسى، نفسى!!

---

(١) المؤلف يغلط في كتابه اسم بلى فكتبه آونة (بَلي) كما هنا وإبْل كما في كلامه على الاصطبل والوجه، وقد كتبناها في المواضع على الطريقة الصحيحة.

(٢) يظهر أن في الكلام سقطاً، فالأزلم بينه وبين المويلح مسافة.

ثم قال: ثم منه ــ وقد مضى من النهار سبع ساعات غير ثلث، فمررنا في مضيق طويل بين جبلين وعقبات صغار، وبه وقع بالليل بنو سعد على رجل نائم على ظهر بغلته، ثم لايُدْرَى مافُعِل به ولابمر كربه، ونزلنا اصطبل عنتر، وقد مضى من النهار بعده ساعتان، وبه بندر دائر، وآبار ثلاثة محكمة البناء بحجر منحوت، وماؤها عذب غير أنه في الغاية من القلة بل كثيراً ما ينزف، وفيه يقول الشاعر:

إن جئت للاصطبل لا	تغفل به عند النزول
واحذر من العرب التي	بجباله أبداً تصول
واعلم فديتك أنه	صعب ولكنّي أقول
قد سُمِّي الاصطبل مِنْ	عَرب به شبه الخيول

وعنتر المنسوب إليه هو عنتر المشهور في التاريخ بالقصص والخرافات، يزعمون أنه كان يربط فيه خيله في زمانه، وسوقنا به أعراب بلي[1] وهذه بلادهم، ومأكثرهم إلا أن الله تعالى أذآهم وفرقهم، فتحت كل قبيلة من قبائل الحجاز نتفَةٌ منهم، ولايقيم لهم أحدٌ من الأعراب وزْناً فهم الآن ضعفة مُتَضَعِفُون دأبهم حمل الكراء والسرقات.

الوجه: ثم قال: ثم ارتحلنا في السابعة من نهارنا فمررنا بوادى الأراك، وهو واد واسع قريب من البحر وبه شجر الأراك الأخضر الناعم، ثم بمضايق ذات صُعود وحدور في الوادى المذكور يقول الشاعر:

سمعت الأراك بأرض الحجاز	فصرت أسائل عن غابته
لنأتِ الحبيب بمسواكه	لأن رقيبك إنْ غابَ تِهْ

وفيه يقول ابن سيّد الناس ــ وفيه تورية ــ:

بالله ان جزت بوادى الأراكْ	وقَبّلتْ عِيدانُه الخُضر فاك
فابعث إلى المملوك منْ بعضها	فإنني ــ والله ــ مالي سواكْ!!

---

(١) يظهر أن في الكلام نَقْصاً وأن المؤلف يقصد بهذا الوصف قَوْم عَنْتر، وهم عَبْس، كما ستأتي إشارةإلى ذلك قريباً، إذ قبيلة بَلِيٍّ قوية متماسكة ليست مفرقة، ولها منزلتها بين القبائل العربية.
=

ثم نزلنا الوجه، وتقول العامة الوش ــ بالشين، وهو لغة أهل مصر في الوجه[1] ــ وقد مضى من النهار بعده ساعة، وبه بندر متقن حصين دائر من العمارة في هذا الزمان، ورُبّما نزلته الأعراب تخزن به ماتبيعه من الحاج من الكلأ والحطب، وبه آبار قليلة عذبة يقل ماؤها بقلة الأمطار ويكثر بكثرتها وبها أخرى قبيحة الماء غاية، والتي جوف البندر أحسن، وداخل البندر بئر تسقى بالبقر وتصب في ثلاث برك خارجة، ملاصقة به، وبأعلى الوادي بين جبلين على قرب من البندر ماء عذب زلال في اذس[2] يتكلف حفرها بنحو قامة، تسمى اليوم الزّعفران، وتعرف في القديم بالشعبين غير أنه ضنين وربما نزف، ومن هنا يحمل الكثير من الماء لما بعده من المفازات، والمحل ذو خوف عظيم، وسوقنا به أعراب بَلّي وجهينة. وفيه يقول الشاعر:

قد دخلنا بندر الوجه الذى	فيه قوت كل عام يختزن
وشربنا من مياه عذبت	شربها يجلو عن القلب الحزن
نشكر الله الذى أسعفنا	ورأينا ذلك الوجه الحسن

قال العبدري: والوجه هو منتصف الطريق على التحقيق، وياعَجَباً من اختلافهم هذا الاختلاف الفاحش في منتصف الطريق بين مكة ومصر! ويغلب الظن أن مقالته هذه لاتصح بل تعدّى منتصف الطريق على التحقيق حسبما حرر ذلك من كثر تردده للحرمين من المصريين، ولايقال: هلا اعتبرتم ذلك بعدد المراحل حتى يتبين المحقُ من المبطل؟ فنقول: المراحل غير متساوية في المسافة، فربّما مرحلة من النصف من أخرى والثلثين، ونحو ذلك فلا يتأتى التوصل إلى معرفة نصف الطريق بذلك. نَعَمْ لو كان السيرُ والمراحل معتدلين لأمكن ذلك والله ربنا أعلم.

= ووَصْمُ العربان في طريق الحج بتلك الأوصاف التي ذكرها المؤلف له بواعثه وأسبابه مما لايتسع المجال للإفاضة فيه ــ ٢ ــ عنتر من قبلية عَبْس، ومنازلها في شرق الحجاز بقرب وادي الرمة في أعلى القصيم، ولا تصل منازلها في العهد القديم إلى هذه الجهات، وعلى هذا فليس صحيحاً ماذكره المؤلف عن الاصطبل الذي هو من قديم من خصائص الحضري.

(١) ليس المقصود البلدة التي على ساحل البحر، بل منزل الحجاج الذي في أعلى الوادي المعروف قديماً باسم الوحه.

(٢) يقصد جمع دِئسَة.

وقال أبو سالم: الوجه واد كبير يخرج من بين جبلين، والناس يتهيّبون النزول في أصل الوادي إذا كان وقت السيول فيرتفعون عن جنبي الوادي.هـ.

قلت: وقد وقع به سنة ست وستين ومائة وألف ــ فيما حدثني به الثقات ممن حضر من حجاج أهل مصر ــ سَيْلٌ عَرِمٌ بغت الحجاج فذهبت بسببه رقاب ودواب وأموال عريضة، ولم ينج إلا من كان على التلول والكُدَى ومن الغريب أن رجلاً من أهل مصر، وكان ذا أبّهةٍ خرج قبل مجيء السيل من رحله لقضاء حاجته، وخلف زوجته وأولاداً له أربعة وسِرِّيّة، وأموالاً عريضةً ناضّةً وغيرها وإبلاً وبقالة، فلم يرجع إلا هو صفر اليدين من الجميع أصبح غنيّاً فأمسى فقيراً فريداً وهو ينظر إلى جميع ذلك وقد ذهب به السيل حتى القاه في اليمّ.

وهذه البلاد الحجازية مطرها قليل، وإِ نزل كان طوفاناً في لحظة لكثرة الجبال والأودية والشعاب المتطاولة بها، وربما نزل المطر في بعض الأماكن منه فيتضرر من لم يره ولا اعتاد نحو ذلك من السيول الطارقة بغتة، فينبغي اجتناب النزول في بطون أودية الحجاز كلها، ولا ترى أحذق ولاأنبه من حجاج أهل فاس من المغاربة، فتراهم يتجنبون ذلك دائماً، وإن نزل المطر وهم معه على العادة في بطن واد انعزلوا ثم إلى تلٍ مرتفع فكأنهم يستحضرون دائما: (المؤمن لا يلدغ من الجحر مرتين) وربما نزل البَرَدُ بهذه البلاد يحاكي في الكبر بيض الدجاج فيهلك الناس والدواب بذلك.

تنبيه: من هنا يستقبل الحاج المياه القبيحة، وبعد العمارة وشدة الحرّ لقربها من بلاد الحجاز بل غالبها منه، وسوء أخلاق أعرابها، وهو آخر البنادر وليس بعده عمارة إلى الينبوع(؟) الذى هو أول عمارة ببلاد الحجاز على طريق المصري والمغاربة.

وفي الرحلة الصغرى: ثم من الاصطبل بعد صلاة الظهر ونزلنا الواش[1] صحوة، وبه بندر خرب، ومياه كثيرة عذبة، تكثرت بالأمطار لا تكاد تجد في

---

(١) يقصد بـ(الوش) الوجه وورد هذا الاسم بهذه الصورة في الرحلات المغربية من عهد ابن عبد السلام فما بعده، وهذا ناشيء عن كون أهل هذه الجهة يخرجون الجيم من مخرج يقرب مخرج الشين ويفخمونها فتختفي الهاء.

الحجاز أعذب منها، إلا أنها تقلُ جداً بقلة الأمطار لا تكاد تجد في الحجاز أعذب منها:

النهدين ـ اكرة: ثم ارتحلنا وقد مضى من النهار تسع ساعات، ومررنا متقابلتان[1] بينها فرجة إحداهما عن يمين الذاهب والأخر عن شماله، ونزلنا اكرة، والعامة تقول عُكرة، وقد مضى من النهار بعد أرْبَعُ ساعات ونصف، وهو واد كبير تأتيه السيول من بعيد، يذكر أن سيل المدينة المشرفة يصله، وماء آباره قبيح زعاق جداً، أقبح من عجرود، إلا أن يكون عقب سيل، والمحفور في الوقت اقرب للتجرع من القديم، ومع ذالك فهو سريع الإسهال، وماأحسن إغْنَاءَ الله عباده عنه بالطيب، ونزلنا هذا المكان في حرٍّ شديد بعد سير مديد، وهبت علينا به سموم حارّة هلك بها الآدميون والدواب، ومن أمثالهم: لاجمال إلا جمال عكرة. يعني التي ترد ماءها ثم لا تذوق خبيثها(؟) وسوقنا به أعراب هتيمْ[2] وهم أذل الأعراب وأكثرهم فواحش، وقد تفرقوا في البلاد الحجازية ومصر والشام كأهل الذمة.

ومافي رحلة العبدري من مدح مائه قائلاً: وهو واد كبير وماء أحسائه يحفر منه نحو القامة وهو غزير عذب ـ فلعله ورده إثر المطر. قال: وعن يمينه من ناحية البحر على مسافة بعيدة أحساء عذبة في واد يقال له اليَعْبُوب وهو واد بأكرة من أسفله وفيه يقول الشاعر:

يامن أتى أكره في سيره	أبشر بنيل القصف والمنّه
لاتكره المكروه في أكره	فبالمكاره حفّتِ الجنّهْ

قال سيدى عبد المجيد الفاسي في رحلته: أكره أرض لا ترتاح لها النفوس، ولاينفك طارقها عن العبوس، ماؤها زعاق، من أخبث مايفضي إلى الاطلاق.

(١) كذا ولعل الصواب: قرينان متقابلان.

(٢) قبيلة هتيم، في عهد المؤلف ومابعده، تنزل في حرار خيبر وأطرافها وهذا الموضع ليس بعيداً عن خيبر، ولعلها كانت منازلها تمتد إلى أطراف بلاد قبيلة بلى، ومن هنا وقع الخلط بين القبيلتين مما أشرنا إليه قريباً، وهتيم هاؤلاء ينفرون من هذا الاسم، ويسمون بني رشيد، وقد كتب المؤلف هتيم بالثاء في موضعين وهم هنا من بقايا غطفان وأشجع من عبس وغيرهم، مع ملاحظة أن الاسم أصبح الآن يطلق على كل وضيع النسب مجهوله.

ووجع المراق، وإن غلب سيلٌ حَسُنَ، والمحفور منه في يومه وفي القاموس: أكرة ــ بالضم ــ لغة في الكرة، والحفرة يجتمع فيها الماء فيغرف صافياً، فلعل الموضع سمي بذلك لأن فيه يحفر الماء، ويحتمل أن يكون منقولاً من مضارع كَرَهَ وفي الصغرى: ارتحلنا فنزلنا أكره، والحجاج يقولون عكرة بالعين ضحوة وماؤها أشهر من أن يُعرف بالقبح. اهـ

الحنك:

ثم قال: ثم منه ــ وقد مضى من النهار إحدى عشرة ساعة، ونزلنا بين الدَّرَكَين ــ حسبما تسميه به المغاربة، وأهل مصر الحنك، والأعراب عُكلة، وقد مضى من النهار بعده ساعتان وخمسة أدراج، سمي بذلك (لأنه فوق مابين درك أعراب مصر وأعراب الحجاز، فإن مابعده من عمل الحجاز وفي دَرْك أعرابه)[1] و يعنون بالدرك الكفالة والضمان هذه أول بلاد جهينة من عرب الحجاز التي بينبوع[2]. وهلك بهذه المراحل الثلاث من الصعالكة بالعطش والحرّ كثير ولم يغسلوا ولاكفنوا، بل ولاصُلّي عليهم ولاووروا، سبُبه المضي بالليل وكل يقول: نفسى نفسى!! من شدة الخوف، تراهم صَرْعَى جوانب الجادّة، والبهائم تدوسهم ــ فلا حول ولاقوة إلا بالله ــ عُهْدَتُهُمْ على الأمير وعلى كل من له على ذلك طاقة.

العقبة الزرقاء ــ الْحَوْرَاء: وقال: ثم منه مضى من النهار ست ساعات فمررنا ليلاً بالعقبة الزرقاء لزرقة أحجارها، و يقال: السوداء وهي صغيرة من غير صعوبة، في حرةٍ سوداء مائلة إلي الزرقة قال الشيخ أبو سالم[3]: يقال إنها أول أرض الحجاز ولا يبعد ذلك فإن من هنالك تخالف الأرض ماقبلها، وتباين الجبال ماسواها و يشتد شبهها بجبال الحجاز السود و يتقوى البحر وتسترمل

---

(١) مابين القوسين في «العياشية» ١٧٦/١.

(٢) المؤلف يكتب اسم ينبع: الينبوع، وهي كتابة شاعت في عهود متأخرة، أما صواب الاسم فهو ينبع ــ غير مُعَرَّف ولا واو فيه ــ.

(٣) العياشية ١٧٦/١.

الأرض هـ. وفيها نظر فقد تقدم أن منتهى إيالة مصر عقبة أيلة، وهي مبدأ الحجاز، وأنت إذا أمعنت النظر وجدت مابعدها من الأرض والجبال يباين ماقبلها لناحية مصر والله أعلم.

وفي «مسالك» الإمام البكري أن الينبع أول بلاد الحجاز في الذهاب وآخرها في الإياب وكأنه يعني في عرف سكان الحجاز خاصة والله أعلم والعامة قبل اليوم تقول بين الدركين باعتبار زعمهم أن أهالي المغرب الأحياء والأموات كالسيد البدوي بمصر يصاحبون الركب النبوي إلى هنا فيتلقاه صالحو المشرق كذلك فيذهبون معه و يرجع المغاربة عدا السيد البدوي، في خرافات لا أصل لها من فَضْل، منها انهم إن وصلوها يجأرون إلى الله تعالى و يزعمون مع ذلك أن الإنسان الحاج لابُدَّ من هنا أن[1] (....) بالحرمين أو بأحدهما، وتقرر ذلك عندهم، ولايبعد فقد قال الشاعر:

وأبرح مايكون الشوق يوما إذا دنت الديار من الديار

وسرنا فنزلنا الحَوْرَاء وقد مضى من النهار ساعتان وعشر دقائق و بتنا بها، وسوقنا أعراب جهينة وأهل الينبوع(؟) و بنو عَبْس، وهم فخذ من هُتَيم[2] وبها نخل ومياهها كثيرة، في حفائر على ساحل البحر، يحيط بها ديس كثير، وبها ملوحة ماء، والقريب العهد أجود، وكلما طال في القُرَب خَبُثَ، وهو مع ذلك يورث إسهالاً حتى للدواب، نعم بالقرب منها ماء عذب زلال يدعى بصمة(؟) لايأتي به إلا الأعراب أو ذو النجدة من الحجاج أولى الارهاب، وبها مَرْسى وجدنا بها سُفُناً تعرضت للركب بمَيْرٍ حملته من مصر. ففي القاموس: الحوراء موضع قرب المدينة، وهو مرفأ سفن مصر، وماء لبني نبهان.. وبها الجبل المنقطع فى البحر و يسمى الحساني يسكنه أعراب في أخصاص وكهوف، و به ماء عذب، وكثير عيشهم صيد السمك و باعوا في الركب منه كثيراً، ولهم مراكب شبه القوارب يعبرون فيها إلى البر و يصطادون عليها و يغوصون في بعض

(١) بياض في الأصل.

(٢) كذا والصواب هتيم ــ بالتاء ــ ينبوع خطأ صوابها: ينبع.

الأحيان بمكان قريب منهم في البحر فيقعون على جواهر نفيسة، يشتريها منهم بعض من مرَّ بهم من الحجاج بثمن بخس، وما أحوج هذا المكان إلى بندر يبني به، إلا أنه في حكمه عند المصري من الإقامة والسوق وأعمال الحراقين ونحو ذلك من الغواصين والنزاهات(؟) وفيها يقول الشاعر:

جئنا إلى الحوراء وهي محطة	فيها الأراك نزاهة للرائي
ناديت خلي قف بها متأملا	وانظر لرمل مغمر بالماء
واغنم زمانا مقبلا بسعوده	فيه اجتماع الشمل بالحوراء

وفي الصغرى: ثم من أكره قبيل الزوال ونزلنا الحوراء وقت الأسفار في مياه كثيرة، على مابها من بعض الجزر، ووجدنا بها جموع الأعراب جهينة وحرب وأهل الينبوع، وقامت معهم سوق عظيمة وغلاء تامٌ، وليحذر من مسافة مابين الحورا و ينبع من اذابة أعرابها وسرقتهم الليلة، وحرابتهم، وربما هبت بها السموم الحارة والباردة في مفصليها[1] فهلك به الكثير من الحجاج.

العُقيّق ــ النبط: وقال: ثم منه وقد مضى من النهار أربع ساعات ومررنا بعد نحو فرسخين في مضيق بين جبلين عن يمين الذاهب يدعى المغاير(؟) تحبس به غالباً مياه الأمطار، فإن لم توجد على ظاهر الأرض حُفر قليلاً فينبع الماء العذب الزلال فسقينا به وحملنا ماقدر، ثم بوادي العُقيق مصغراً. قال الشيخ أبو سالم[2]: ولامناسبة بين الاسم والمسمَّى، بل تسميته بوادي العقوق أنسب لشدّة جُرْأة أعرابه على السرقة، فإنهم من أجرأ الناس على ذلك، قلت: وفي هذا الوادى يقول الشيخ أبو عبد الله بن أبي القاسم بن القاضي في رحلة له صغيرة:

فيا سائرا يبتغي حجة	بدرب الحجاز انتبه ياصديق
فمن أرض مصر إلى مكة	فسهل ووعر بكل الطريق

---

(١) لعله (فصليها) وأقول: نقل المؤلف عن «مسالك» الإمام البكري أن ينبع أول الحجاز في الذهاب وآخرها في الإياب، وسيأتي هذا الكلام عند الحديث على ينبع، في جمل مسجوعة مما يدل على أن المؤلف خلط بين البكري المتقدم صاحب «المسالك» والبكري المصري المتأخر صاحب «الرحلة» فالذي ذكره صاحب «المسالك» و«معجم ماستعجم».

(٢) «العياشية» ١٧٧/١.

ففي الرمل تلقى كثير العنا | وفي عقبة تلق سوء المضيق
ولكنه(؟) لاترى مثلما | تراد على أرض واد العقيق
وكل يهون على ماترى | بواد يسمى بوادى الحريق

ويعني بالرمل وادي الرمل المسمى بالمنصرف قرب التيه، والعقبة أيلة، ووادي الحريق هو وادي النار الذى بعد النبط ــ وسيأتي قريباً ــ من أمثال الحجّاج: لا رجال إلا رجال الحوراء ولاجمل إلا جمل الدوراء[1] المعنى أن الرجال الحقيقيين هم الذين يأخذون بالحزم في هذه الأرض فيقطعونها وهم من تعديات أعرابها سالمون، وهذا بالنسبة إلى الحجاز فإن المثل فيه ضربَ، وإلاَّ فأعراب الجزيف(؟) خصوصاً أعراب واد سيدنا خالد أكثر الأعراب نهباً وسرقة واختلاساً وفتكاً بمن مرَّ بهم.

ويعنون بالدورة الرجعة، يعني لايُعَدُّ صابراً من الجمال إلا من صبر في حال الرجوع من الحجاز إذ هو آخر السفر محل قلة العلف. هـ. قلت: هو ذلك أضيق وأحرش وأحرّ، وبعد ذلك وقفنا في رمال بين جبلين يدعى هذا المكان عند العامة بوكالة الحمير لفناء الكثير منهم(؟) كالإبل وبعض البغال بها وبهذا الوادي شجر يقال له شجر القفل ــ بقاف وفاء مفتوحتين ــ له رائحة طيبة يتخذ منه بمصر والحرمين وما والاهما أعواد يبخرون بها أواني الشرب قبل وضع الماء فيها فيبقى بها نسمة طيبة يتمتع بها الشارب.

ثم أسرعنا السير فنزلنا النبط ــ ويقال النبك بالكاف ــ ولعله هو الذي عنى العبدري بالمغيرة ــ تصغير مغارة ــ قال: وهي العرجاء التي ذكرها ناصر الدين في رسالته وفي «القاموس»: نبط الماء ينبط نبطاً نبع، والبئر استخرج ماءها، ونبط واد بناحية المدينة قرب حوراء التي بها معدن البرام وكان نزولنا فيه بعد ساعة ونصف من النهار، وبه آبار عذبة محكمة البناء بالحجر المنحوت وماؤها عذب زلال غزير غالب. قال الشيخ أبو سالم[2]: وغزارة مياه أودية الدرب إنما يكون بحسب كثرة المطر وقلته فإذا حمل الوادي ولو مرة في السنة غزر

---

(١) في «العياشية»: ولاجمال إلاّ الجمال.
(٢) «العياشية» ١/١٧٧.

الماء في سائر السنة. قلت: وفي رحلة شيخ شيوخنا سيدي عبد المجيد الزبادي الفاسي: أن ماء النبط هذا تمدحه الأطباء هـ وقال الشاعر:

وفي أكرة والتي بعدها مرارة ماء تزيد القساوه
فجئنا إلى النبط نشكو الظما فأنعشنا ماؤه والطلاوه
ولما صبرنا على غيرها فأعقبنا صبرنا بالحلاوه[1]

وفي ذلك يقول الامام أحمد بن محمد المقَّريُ صاحب «نفح الطيب»:

اسقني من ماء نبط إن يطل عمريَ مرّه
ودع الحورا فإني أبغض الحورا وأكره

وادي النار ــ الخضيراء: وقال: ثم ارتحلنا وقد مضى من نهارنا ثمانُ ساعات في رمل بين جبلين فمررنا بوادي النار، سمي بذلك من شدة حرِّه، وبعضهم يقول: وادي النور لأجل رؤية الأنوار منه لنواحي المدينة أو مكة فحرف الناس التسمية إذ ذاك، وقلّما يسلم الركب فيه من شدة تقع له من حرٍّ أو محارب، وعدم ماء إلى الينبوع(؟) وربما أتلف الناس به عطش مهلك، وربما هلكت به الآلاف من الخلق والإبل من قبح الهوى(؟) في أسرع مدة، ويأخذ الرجل الماء فلا يضعه من يده حتى يموت، ووقوع ذلك غالبا في الإياب خصوصاً في الركب المصري، وبالجملة فوادي النار كثير الأخطار، لايخلو في الغالب عن الأكدار، والألطاف لا تنفك عن الأقدار.

ثم نزلنا الخضيرا ــ مكبرة ومصغرة ــ على غير ماء، وقد مضى من النهار ساعتان وفيها يقول الشاعر:

انظر إلى الخضراء واغنم بسطها تلق رباها نزهة للرائي
فلربّ حشاش شكى من همه قد زال عنه الهمّ بالخضراء[2]

وفي الصغرى: ثم من الحورا بعد الزوال ونزلنا الخضيرة على غير ماء ضحوة.

---

(١) الشعر للبكري.

(٢) «العياشية» ١/١٨٠ وهي للبكري.

الوعرات السبع ــ ينبع: وقال ثم منها وقد مضى من نهارنا سبع ساعات في رمال، ومررنا بعد العشاء على امرأة فلاَّحيّةٍ من الركب على قارعة الطريق، والركب سائر، وبها وجع الطلق فنزلت عن حمارها ووضعت إلى جانب الطريق وحمارها واقف عند رأسها، فكانت قابلة لنفسها، وهي مجتهدة في لف خرَق لها على مولودها، وياسهولة الطلق على هذه كسائر نساء أهل مصر فيما حدثنا به الثقات قالوا: حتى أن المرأة منهن تلد وتخفي نفاسها إن أرادت حتى على زوجها ومن كان معها في بيتها، وجاءهن ذلك من كثرة أكلهن للملوخية والباميّة واختلاط الأطعمة، فيورث ذلك في المحل كمال الرطوبة والرخوة(؟) فينشأ عنه عدم عُسْر الطلق والله ربنا أعلم بغيبه وبهذه الليلة رأينا بَرْقاً مَرَّة واحدة لنواحي(؟) الظلام، فلم أشك أنه برق فلما أصبحنا زعم الحجاج بل وبعض من ينتمي للخير والصلاح والسلوك والجذب منا ومن أهل مصر أنه رأى الأنوار بهذه الليلة عمّت المشارق والمغارب. ثم بعد هذه الليلة رأينا الأنوار تسطع بلا ريب أعظم من البرق لنواحي المدينة المنورة، وأدرك ذلك حتى النساء والصبيان والجمالين، ويصلون على النبي صلى الله عليه وسلم عند ظهورها وانتشار لمعانها حتى يرتجّ الجوّ بأصواتهم وقد أنكر ذلك أبو سالم وشيخه أبو بكر السجناني(؟) وقالوا: ماذاك الابُروق والحقُّ الذي لامرية فيه أنها أنوار تكاد تغشى(؟) منها الأبصار. فلقد شاهدناه في جماعة من الثقات بالفُرع بعد رجوعنا من مكة في سفرنا هذا إلى طيبة، عموداً من نور بين السماء والأرض لنواحي المدينة، ومكث كذلك نحو ساعة من أول الليل، لاأشك ولاأظن أنه غير برق.

وسرنا ومررنا بسبع عقبات، ويقال وعرات، بعف الثلث من الليل، وهي صخور في رمال ليس فيها صعوبة.

لطيفة: كثيراً ماتقدم في سفرنا هذا القهوة جَرْياً على عادة المشارقة، فأمتنع من شربها لمرارتها، ولأني لم آلفها ولم تكن بأرض قومي فأجدني أعافها، مع مايزعمون فيها من المنافع، وفي هذه الليلة، قدّمها لي بعض المحبين من أهل فاس لمّا اعتراني وخم وكسل آخر الليل من السهر، ومزجها بسكر، فناولني كاساً فكان مابي من الوخم بعد شُرْبها كأمْسِ الدابر، وشملني من النشاط مالم أعهد من نفسي فقلت ارتجالاً:

شربت فنجل (؟) قهوة　　بسكّر مزجوة
فصحّ أنها تنفى　　من وخم عهدوة
أكرم به من شراب　　لولا الذى احدثوة
من دور كاس ببيت　　بزخرف موهوة
ونقر طار وعود　　وشادن ألفوة
بذا غدت ذات إلف　　لراحٍ اغتنموة

ثم أسرعنا السير فنزلنا **الينبوع** (؟) وقد مضى من النهار ساعتان ونصف ــ في السابع والعشرين من ذى القعدة ــ وبتنا به ليلة، وقام بيننا و بين أهل البلاد وأعراب جهينة وحرب و بنو سالم (؟) سوق عظيم. قال في «القاموس»: والينبوع العين والجدول الكثير الماء، وكَيَنْصُرُ: حصن به عيون ونخيل وزروع بطريق حاج مصر. وقال البكري[1]: (وهو أول بلاد الحجاز في الذهاب، وآخرها في الرجوع، وبها حدائق ونخيل، وعيون بين زروع تسيح وتسيل، وكان به سور منيع وجامع مفرد وسيع، و بيوت فسيحة الرحاب، فآل أمرها إلى الخراب، و به الآن سوق للحاج، يأخذون منه الذخيرة عند الاحتياج، و به أميران وجيشان كبار، وعشش تُسْقَى منها القهوة من أيدى الجوار، قال الشاعر:

حبذا[2] بندر ينبوع وما　　في رباه من رياض وعيون
وسُقَاةٍ من مِلَاحٍ نُهَّدٍ　　يصرعان الصّبّ من نبل العيون
فارتحل عنهن واذهب وانتصح　　فلئن خالفت أذهبت العيون

قلت: ولعله يعني أول بلاد الحجاز العامرة، وإلا فبدأ الحجاز من عقبة أيلة كما تقدم عند الكلام عليها، أو من العقبة السوداء و يقال الزرقاء كما تقدم، ولأبي سالم: وسمي حجازاً لحجزه بين تهامة ونجد، أو بين الغور والشام أو بين نجد والسراة قالوا: بلاد العرب من الجزيرة التي نزلوها خمسة أقسام: تهامة والحجاز ونجد والعروض، واليمن، وجبل السراة هو الحدّ بين تهامة ونجد لأنه أقبل

(١) مابين القوسين للبكري عن العياشية ١٨٠/٠.
(٢) في الأصل: حسنوا والتصحيح من العياشية ١٨٠/١.

من اليمن وهو أعظم جبال العرب حتى بلغ أطراف الشام فسمته العرب حجازاً.

قيل: وعمران الينبوع متصل نحو ثلاثة أيام، والقرية التي ينزل بها الركب هي آخر القرى التى من ناحية البحر، وليس بعدها إلا ينبوع البحر، يطؤه الماشي، وأهل هذه القرى يجتمعون عند الركب، وتجلب إليه البضائع والسلع والثمار والفواكه والحبوب والفول، ومن هنا يجلب المِيَرُ للمدينة، فإن السفن الجالبة للطعام من مصر ترسو في ينبوع البحر ماكان منها للمدينة، و يتجاوز إلى جدّة[1] ماكان لمكة، (وأكبر جبال هذه البلاد جبل رَضْوَى، وهو الجبل الكبير المشرف على الينبوع) قال أبو سالم[2] وفيه نظر ففى «الروض المعطار» وإن لم يكن معه تحقيق «في أخبار الأقطار» وإنما يتلقفها من غيره ولم يجل في الأمصار مانصه: رضوى جبل ضخم من جبال تهامة، وهو من ينبع على يوم ومن المدينة على سبع مراحل ميُامنة طريق المدينة، وعلى ليلتين من البحر، و بقرب خيبر، وهو جبل منيف ذو شعاب وأودية، ورأسها من ينابيع الماء مخضرة البقل، وغلاة الشيعة تزعم أن محمد بن الحنفية لم يمت وأنه حي بجبل رضوى، وفي ذلك يقول السيد الحِمْيريُّ في كلمة له:

وما ذاق ابن خولة طعم موت　　وما وارت له أرض عظاما

لقد أمسى بمورق شعب رضوى　　تراجعه الملائكة السلاما

وإن له لرزقا من طعام　　وأشربة يعلّ بها الطعاما

وقد توسع فيه صاحب «القاموس» فقال: ورَضْوى كسَكْرَى: جبل بالمدينة.هـ. وفيه يقول الشاعر:

وكنت أظن أنّ جبال رضوى　　تزول، وأنّ ودّك لايزول

(وإلى هذه البلاد كانت غزوة العُشَيرة من غزواته صلى الله عليه وسلم ومسجد القرية الآن هو مسجد العشيرة المعدود في المساجد التى صلى بها النبيُ

---

(١) في الهامش: (كثيراً مايرد في هذا الكتاب جدة بفتح الجيم، وكثير من العلماء يضمونها).

(٢) «العياشية» ١/١٧٩.

صلى الله عليه وسلم قال السمهودي: ومسجد العشيرة معروف ببطن ينبع، بعين بولا[١] قلت: وعنده عين جارية لكنها لا تعرف بهذا الاسم) وبإزاء منزلة الركب قرارة على ربوة تنسب لأبي الحسن النفاتي (؟) وفوق القرية قبر أبي علي الحسن المثلث، ولما عزمنا على الجولان في تلك العرصات، وزيارة ما بها من السادات، قامت نائرة بين الركب والأعراب، فلم نقدر آنذاك من الخوف على الذهاب. فزرنا الجميع بالنية في محلّنا، لاأحرمنا الله من العود إليها في أمننا.

وفي «الروض المعطار»: الينبوع[٢] على تسعة بُرُدٍ من المدينة في طريق مكة قالوا: ومن الجار إلى الينبوع (؟) وهو الوادي الذي فيه ضياع علي ابن أبي طالب رضى الله عنه أربعون ميلاً. ومنها أبو دُلف الخزرجي الينبعي ذكره الثعالبي في «اليتيمة» وكان شاعراً متشيّعاً وهو القائل:

دار السلام هنيئا　　بدعوة ابن الرسول

جاء النهار وولى　　ظلام تلك الذحول

ما أن رأيت حصانا　　مثاله في الأصول[٣] (؟)

قال ذلك للبساسيري، القائم بدعوة المنتصر العُبَيدي خليفة مصر، وذلك سنة خمسين وأربع مئة.

وقد وصف العبدريُّ في زمانه الينبع بقوله: وينبع من بلاد الحجاز المعروفة، وهي بُليدة فى أصل جبل ضعيفة البناء، قليلة الساكن، والخراب بها كثير، وغربيها متسع هو محط الركب، ولكنه سبخة لاينبت، وفيه نخيل وماء معين طيب، وصاحب ينبع مستبد بها، كاستبداد صاحب مليانة إذ لايرغب فيها، ولو كان كل بلد مثلها لوقع الأمان، ولم ينتطح فيها عنزان، ومن ذا الذى يرغب في عيش الفنا، فهم طلقاء الجوع، وعتقاء الشظف، مأمنهم الخوف ومنجاهم التلف،

(١) في الأصل (نبولا) والتصحيح من العياشية ١٧٩/١ ومابين القوسين منها.

(٢) في الروض المعطار ص ٦٢١ (الينبع) والمقصود ينبع النخل، لا ينبع البحر، فالحجاج لايمرون بها أعني القادمين بطريق البَرِّ.

(٣) في الروض: حماله في النصول.

ولكن ينبع على ما هي عليه، ترتاح بها النفوس، و يقضي برؤ يتها البوس، لأنها مصاقبة لدار الحبيب، وربع يدعى فيه الشوق فيجيبُ، ويخطر به الخاطر فيعرف، ولايستر يب لو نطقت بقعة لأفصحت بكل عجب، منزل غدا للعقول عقالاً، ينفر إليه جند الوجد خفافاً وثقالاً، تود الخدود به لو كانت نعالاً: ذا المعالي فَلْيَعْلُونْ مَنْ تَعَالى.

ثم قال: وأهل ينبع في خدمة أمير مصر، وهو يميرهم بالزرع، و يُمدهم بالتحف، ليجدهم الحجاج ركنا، و يأمن المنقطع لديهم، و بخارج ينبع من ناحية الجبل مسجد محكم مليح يقولون: إنه مسجد علي بن أبي طالب رضى الله عنه ولعله كان بنى هناك مسجداً حين تَنَحّى إلى ينبع أيام عثمان رضى الله عنه هـ. وهذه بلدة السادات الشرفاء العلو يين، ولازالوا بها، ومنهم[1] (؟) خرج جدهم مولانا الحسن ومولانا علي المقبور ين بسجلماسة المغرب ــ نفع الله بهم وبأسلافهم آل النبي صلى الله عليه وسلم ــ ورأينا بها فقراء ضعفاء يتعرضون للعطاء في الركب، في يد كل منهم عُود أو قصبة طو يلة في رأسها معقود نحو قفَّةٍ صغيرة يأتي لمن أراد استعطاءه فيدني إليه رأس العصا الذى فيه الظروف المذكور، ولايتكلم، فإن تيسر على غيره صدقة دراهم أو غيرها وضعه فيها وإلا ذهب لغيره وهكذا وهذه العادة رأيناها بعد هذا في الحرمين ومصر.

وبها ــ كالحجاز ــ دلاَّعٌ، أحلى دلاَّع يوجد وأطيب، ولاينقطع عن الحجاز صيفاً ولاشتاءً إلا في سنة الجدب والعام الأشهب، يسمى لديهم الحَبْحَب، وهو مع ذلك يصلح للتداوى حسبما جرَّبه أهل الطبايع.

وفي الصغرى: ثم من الخضيرة للينبوع[2] بعد حلول النافلة، وقامت به سوق عظيمة وقى الله شرها.

وفي الصغرى: ثم منه (ينبع) بعد الزوال ونزلنا السقيفة سحراً، وبها قطعت

---

(١) ص ٢١٦/٢١٧.

(٢) وأقول: الينبوع تحريف (ينبع) وهو الصواب، ومثل هذا وقع في كتابة كثير من المؤلفين من أهل القرن العاشر فمن بعدهم.

رؤوس جماعة وافرة من المحاربين أعراب حرب، أظفر الله بهم أمير الركب أيوب بابي الغزي.

الدهناء ـ الأبرقان ـ بدر: ثم ارتحلنا ـ من ينبع ـ وقد مضى من النهار ثلاث ساعات ونصف في حر شديد، ورمل هائل مديد، ومررنا عشية يومنا بالسقائف (؟) وهو فضاء بين جبلين به رمل وشجر الغيلان وكان من قبل دار الحاج بحيث يوقدون الشمع، وتسمى ليلة الوقدة والآن لاينزلها الركب غالباً. وهي صحراء لاماء بها، نَعَمْ بقربها بئر لايعرفها إلا القليل من الناس وهذه مبدأ أراضي الدهناء، ومن مواضعها الخلصاء كما في «القاموس»: قال في «الروض المعطار»: الدهناء رمال في طريق اليمامة إلى مكة لايعرف طولها، وأما عرضها فثلاث ليال، وهي على أربعة أميال من هجر، ويقال في المثل: أوسع من الدهناء[1].

وقال العبدري: الدهناء من عمل ينبع، وبها ماء معين ونخل كثير، وأرضها سبخة.. وماؤها طيب لأن الركب لايمر في طريقه منها على ماء ولا على نخل. وفي «القاموس»: الدهناء الفلاة ثم قال: وموضع أمام ينبع، والنسبة دهني ودهناوي هـ. وانظر ماقال مع وصف صاحب «الروض» ولعله يصف موضعاً آخر اسمه الدهناء غير هذا الموضع، وذلك أن اليمامة ـ كما في «القاموس» بلاد كثيرة النخيل، وبها تنبّأ مسيلمة الكذاب وهي دون المدينة، في وسط المشرق، عن مكة على ست وعشرين مرحلة من البصرة، وأما هجر فبليدة باليمن[2] وأخرى اقرب للمدينة المنورة، وتنسب القلال إليها والله أعلم.

وبهذا المكان ـ أيضاً ـ يزعم الكثير من الحاج أنهم يرون الأنوار، تراهم يضجون بالدعاء وإن يروا أنْوَاراً. قالوا بأرفع صوت: العادة العادة يارسول الله!! ثم يختمون ذلك بقولهم على ماجرت به عادة الفلاحين: الفاتحة، وعلى ذلك دأبهم

---

(١) هذا الكلام ينطبق على الدهناء الواقعة شرق نجد، الطويلة العريضة، والاسم قد يطلق على مواضع. هناك الدهناء أيضاً في منطقة جازان، أما الدهناء الواقعة بين بدر و ينبع فقد خربت أثناء حروب فَصَّلها صاحبا «بدائع الزهور» و« الدرر الفرائد المنظمة».

(٢) هجر ـ عند الاطلاق يراد بها هَجَر البحرين ـ الأحساء ـ وفي اليمن يقصد بها المدينة. كهجر ضمد، وهجر جازان ـ وهكذا.

طول هذه الليلة ويزيد النساء في الولاويل، وكل يظهر من الفرح والسرور مايرويه الاوائل عن الأواخر، وتاه الركب في رمال الدهنا قبل بزوغ الفجر، حتى وصل لكل واحد من الآخر الهناء (؟) إذْ وصلنا إلى الأبرقين، فدخلنا في فرجة بين جبلين، رمال متراكمة على اليسار، وجَلاً مِدَ عن اليمين في شوامخ كبار، وبينهما فيما يقال ــ تدق الطبول، لنصرة أفضل نبي وأكرم رسول، فيممنا قرية بدر، ذات البها والنور والزهر، والعيون الجارية العذبة، والنخيل الباسقة المحدقة ونزلنا في فسيح خارج البلدة، ووجدنا الشاميَّ في بطن الوادي قبلنا مخيّماً، وللرحيل قد استعدّ بحيث صار الجبل النصرى (؟) بمرأى منا، وقبور الشهداء قريبة غير بعيدة منا، وبها مسجد العريش والغمام، وموضع حوض النبي عليه السلام، ورَبْع نصرة سيد الأنام، على عَبَدَةِ الأوثان والأصنام، وهى الغزاة الكبرى التي شاهَتْ بها وجوه الكفر جهراً، فقاتلها بها ملائكة الرحمن أشدّ قتال لم يَرَ مثله قط إنْسان، فبدد الله تعالى به جموعهم، وأخزى به أكابرهم وأصاغرهم، فاستشهد به من المسلمين سادات قادات قد خلد ذكرهم في دواوين، وقتل بها فرعون هذه الأمة أبو جهل اللعين، وغيره من أهل ناديه المهين، وسُحبوا في القليب، يغشاهم به من هيب، فلم يغن أهاليهم إذ ذاك وَيْلَ ولا ثبور، فانقلب المسلمون بفضل من الله ورحمة لم يمسهم سوء في فرح وسرور، قد عَلتهم السكينة والوقار والبهاء والنور. قال الشاعر:

ياأهل بدر لقد طابت مآثركم	وقد علا قدركم في أرفع الدَرَجِ
فزتم بغفران أوزار وحسن ثنا	على المدى نشره من طيّب الأرجِ
يكفيكم في علاكم قول مادحكم:	(هم أهل بدر فلا يخشون من حرجِ)

وقال الآخر:

ياأهل بدر فزتم بمزيّة	مانالها أحد من الأخيار
شاركتم الأملاك في قهر العدا	وظهور دين المصطفى المختار
فجزاكم الرحمن إذ شاركتم	أملاكه في المحو للأوزار

وقال :

نزلت ببدر والشؤون مصاحبي وأذكرني أهلي وناسي وصاحبي

تمنيت أن لو شاركوني بمنزل به نصر الرحمن خير المواكب

وقال :

تمنيت لما أن نزلت على بدر قتال بغاة بارزوا الله بالكفر

مع المصطفى والصحب أنصر دينه وملّته بالسيف أيّتما نصر

وقال :

يابدر أهلك جاروا وعلّموك التجرّي[1]

وقبّحوا لك وصلي وزينوا لك هجرى

فليفعلوا ما أرادوا لأنهم أهل بدر

ومأأحسن قول الإمام الصفدي في رسالة وقدم حاجاً من الشام إلى المدينة إلى بدر، وهي عندنا بخطه:

أتينا من البدر المنير محمد نجدّ السرى حتى نزلنا على بدر

فهذا بديع ليس في اللفظ مثله وهذا جناس ليس في النظم والنثر

فيالها من ليلة بهيّة، وَوَفْدةٍ سنيّة، ملأت الشموع عرصاتها بالنور، وأحضرت أشربة السكر فطاب الهنا والسرور، وضاهت الليلة من قصرها طرفَةَ عين أو أقصر منها، سيّما وقد وجدنا بها الركب الشامي قبلنا مخيّما، فعندما أطمأنت بنا الذكر آذن بالرحيل، ولم يُبْق ِولا قيا (؟) وبالجملة فهذا البلد كما قال أبو سالم[2]:

---

(١) في الهامش: ليس فيه شاهد، فالشاعر يخاطب البدر الذي هو القمر، لابدر المحل المشهور الذي وقعت فيه الغزوة الكبرى.

(٢) العياشية ١/١٨٣.

(عليه أنوار تلوح، ورياض النصر تغدو وتروح، ينشرح فيه الصدر والقلب، ويتجلى فيه بصفة الجمال لكل مسلم الرب، ومعالم النبوة لاتخفى، ومواطىء أقدام الرسول صلى الله عليه وسلم لاتخفى[1]، وقد ظهرت على أهل هذا البلد بركة الرسول صلى الله عليه وسلم معلنين بذلك فأسعارها ــ في الغالب ــ أرخص من غيرها مع صغرها وانقطاعها عن البلاد، وأهلها محظوظون آمنون مطمئنون مع سوء أخلاق عرب صُبْح المجاورون لهم) وتقام بها سوق عظيم لأن أهلها ومن جاورهم من وادي الصفرا والْجُدَيِّدَةِ وغيرها إلى المدينة يتحيّنون مجيء الركب فيستعدون لذلك، ويستحضرون مايبيعونه من تمر وعلف وجمال وغير ذلك.

وسميت باسم بِئْرٍ هناك حفرها بدر بن قريش، وقيل غير ذلك وفي (الروض المعطار)[2]: بدر ماء على ثمانية وعشرين فرسخاً من المدينة. في طريق مكة، وبين مدينة الجار إلى بدر نحو المشرق إذا أردت المدينة عشرون ميلاً، وببدر عينان جاريتان عليهما الموز والعنب والنخل، وسميت بدراً لأنه كان ماء لرجل من جهينة اسمه بدر. قال: وببدر جَبْل عظيم من رمل شديد البياض كأن بياضه إذا طلعت عليه الشمس يغشى الأبصار، وهم يسمعون من ذلك الجبل دويّا، فيدل ذلك على خصب العام عندهم، ويُرى على بَدْر في الليل الدامس نور ساطع مايُرَى على سواه.هـ. قلت: وبآخر المضيق وأنت داخل إلى بدر في أصل جبل الطبول مشاهد مدوَّر عليها بأحجار، يزعمون أنها قبور الشهداء، وبعضهم يقول: محل العريش، فزرنا ذلك بالنيّة وإن كان التحقيق أن قبور الشهداء بسفح الجبل قرب القرية، مدور عليهم (؟)بحوش من حجر مبني بالجير، وبأعلى ذلك قبيبة مبينة على حجر يزعمون أنه ساخ بالنبي صلى الله عليه وسلم فبقي أثر قدميه به.

ويقال : إن ذلك أثر جلوسه عليه وقت دفنه للشهداء، هكذا اشتهر على ألسنة أهل البلد والله أعلم.

---

(١) في العياشية: (لاتعفي).

(٢) ص ٢١٩/٣٢٠.

وبجانبه فيها حجر مرقوم عليه أسماء شهداء بَدْرِ الأربعة عشر: عبيدة بن عبد المطلب نقل جريحاً إلى الصفراء، ومات بها وقبره هنالك مشهور، عمير بن أبي وقاص الزهري، ثم ذو الشمالين وهو عبد الله بن عمير الخزاعي، ثم مبشر بن عبد المنذر، ثم عاقل بن البكير الليثي، ثم صفوان، ثم سعد بن خيثمة، ثم حارثة بن سراقة، ثم عمير بن الحُمام الأسلمي ثم مهجع مولى بن الخطاب، ابن بيضا[1] ثم يزيد بن الحارث، ثم رافع بن المعلي الجشمي، ثم عوف ومعوذ ابنا الحارث بن رفاعة ــ وهما ابنا عفراء اللذان طعنا أبا جهل ــ ياليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً ــ عُبيدة وعمير ابن أبي وقاص وذو الشمالين وعاقل بن بكير وصفوان ومهجع مهاجرون، وسعد بن خيثمة ومبشر من الأوس وباقيهم من الخزرج.

وبأعلاها مسجد صغير مدور بحجارة ينسب لعلي بن أبي طالب، بأسفل، في سهوة السادات، الشرفاء الردينيون اليمانيون في بيت، وفي كل هذه المشاهد أناس من أهل البلد يتعرضون للعطاء من الحجاج، وكلّ ينال ماقسم له، وفي وقعة بدر يقول العلامة ابن جابر:

بدا يوم بدر وهو كالبدر حوله	كواكب في أفق المواكب تنجلي
وجبريل في جند الملائك دونه	فلم تغن أعداد العدو المخذّل
رمى بالحصا في أوجه القوم رميةً	فشرّدهم مثل النعام المجفّل
وجالدهم بالمشرفّي فسلموا	فجاد له بالنفس كل مجندل
عُبَيْدة سل عنهم وحمزة واستمع	حديثهم فى ذلك اليوم من علي

(١) كذا وقع خلط وغلط في أسماء الشهداء:
١ــ صفوان هو ابن بيضاء من بني الحارث بن فهر.
٢ــ سعد بن خيثمة من الأنصار.
٣ــ حارثة بن سراقة من الأنصار.
٤ــ عمير بن الحُمَام السَّلمي من بني سَلِمة ــ بكسر اللام ــ من الْخَزْرَج ــ لامن أسلم ــ من الأنصار.
٥ــ يزيد بن الحارث من الأنصار.
٦ــ رافع بن المعلّى الجشمي من جشم من الخزرج من الأنصار.

فهم عتبوا بالسيف عتبة إذ غدا	فذاق الوليد الموت ليس له ولي
وشيبة لما شاب خوفاً تبادرت	إليه العوالي بالخِضاب المعجل
وجال أبو جهل فحقق جهله	غداة تردّى بالردى عن تذلل
فأضحى قليباً في القليب وقومه	يؤمونه فيها إلى شرّ منهل
وجاءهم خير الأنام مُوَبِّخاً	ففتح من أسماعهم كل مقفل
وأخبر: ماأنتم بأسمع منهم	ولكنهم لايهتدون لمقول
سلوا عنهم يوم السّلى (؟) إذ	فعاد بكاء عاجلاً لم يؤجل
لقد علموا علم اليقين بصدقه	ولكنهم لايرجعون لمعقل
فيا	وحبّك ذخرى في الحساب ومدخلي(١)
عليك صلاة يشمل الآل عرفها	وأصحابك الأخيار أهل التفضل

وأما مسجد الغمامة وهو العريش فهو في وسط القرية، وهو صغير تقام فيه الخطبة،وخطيبه في الوقت شريف رُدَيْني، ومرتبه أنه يأخذ في وقت جذاذ النخل قسطاً من التمر إعانة من أهل القرية له.

وعلى باب المسجد عين عظيمة عذبة مع (...) تبرد إن جعلت في نحو قربة.

وأول من بنى هذا المسجد ــ على ماقيل ــ أبو بكر الصديق، ثم بُني بعده مراراً وآخر من بناه بعض ملوك مصر، وزاد على ماكان في العهد القديم عليه صفوفاً أربعة، ووجدت به ضريراً من أهل القرية ملازماً له، تلوح عليه لوائح الخير يحفظ بعض القرآن، اسمه عبد الله بن أحمد، وقد شكى استحاضة زوجته

(١) دعاء الرسول (صلى الله عليه وسلم) شرك إذ الدعاء من أنواع العبادة التي لايجوز أن تصرف لغير الله ولهذا حذفنا صدر البيت.

فكتبت له تميمة في ذلك[1]. حدثني أن سكان القرية من قبيلة صُبْح، وهو خلاف ظاهر قول الشيخ أبي سالم قيل: وأهلها محظوظون آمنون مطمئنون مع سوء أخلاق عرب صُبْح المجاورن لهم. اللهم إلاّ أن يقال: إن أعراب صبح تغلبوا بعد ذلك على القرية فسكنوها مع بقاء ضعفاء من أهلها بها. والله أعلم. وقال الرجل المذكور: قبيلة صُبْح تقرب من ألفي رجل، وهي دائرة بجبال بَدْر، تسكن الخيام، وجدهم وايل بن بدر الصحابي وهم حلفاء حرب الآن بعد أن قامت بينهم نايرة، فأجلوهم عن ديارهم إلى ينبع وخربوا قريتهم هذه، ثم إن الله تعالى ردَّهم لمقرهم فدخلوا في حلفهم إلى الآن وكلهم شافعية المذهب. قال: وأما حرب فغالبهم أيضاً شافعية وفيهم من الزيدية كثير، ومن الدهنا إلى الطائف إلى المدينة المنورة وعواليها وأحوازها ينيفون على مائة ألف رجل، لايقيمون وزناً لقبيلة من قبائل الحجاز أصْلاً، مع ماهم عليه من الظلم والحرابة (؟) والتوغل في الفحش والجهل.

فائدة: بإزاء العريش مسجد النصر صلى الله عليه وسلم وهناك مبرك ناقته القصْوىَ، ومقابر الشهداء ولعله هو المنسوب اليوم لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه تقدم.

تنبيه: قال العبدري: وأكثر سكان بدر ضعفاء، وهم رفضة، وكذلك أكثر أهل المدينة على ساكنها السلام.هـ. قلت: أما إثبات الرفض لسكان بدر فلا يبعد لشيوع مذهب الزيود بالحجاز حتى بمكة، وأما أهل المدينة المنورة على ساكنها الصلاة والسلام فلا نَعلم من وصفهم بذلك لا في زمان القائل ولافي غيره، نعم إن طرقها في أيام الموسم رافضي ونحوه من أهل الأهواء والبدع أو استوطنها أفراد منهم فلا ينبغي أن يطلق ذلك أو في أكثرهم جملة، ومجمل كلامه ــ والله تعالى أعلم ــ على ماعلم في القرن السادس والسابع من استيلاء الروافض على الحرم الشريف بالمدينة حتى كان الأمير والقاضي والخطيب منهم وكم أَسَاؤوا فيه من الأدب ولذا قال ابن جبير في رحلته: وجُد عقب الحريق على بعض جدران المسجد مانصه:

---

(١) إذا كانت التميمة تحوي آيات قرآنية أو أدعية نبوية فلا بأس بها، وأما إذا حوت كلمات ذات حروف مقطعة أو أدعية غير مشروعة فلا يجوز تعليقها كما نص على ذلك محققو العلماء.

لم يحترق حرم النبيّ لحادث   يخشى عليه، ومابه من عار

لكنّها أيدي الروافض لامست   تلك الرسوم فطهرت بالنّار

ووجد أيضاً:

قل للروافض بالمدينة منكم   لقيادكم للوم كل سفيه

ماأصبح الحرم الشريف مُحَرَّقاً   إلا لسبكم الصحابة فيه

ثم قال العبدري: وفي غربي مقبرة بدر هضبة فيها لِصْب ــ أى شعب صغير في الجبل أضيق من اللهب ــ بكسر اللام ــ وأوسع منه قاله في القاموس والحجاج يتمسحون به، ويتقاومون (؟) عليه، ويكثر زحامهم عنده، ويتكلفون الصعود منه إلى أعلى الهضب فيقاسون فيه شدّة لضيقه، وقلّما يتخلّص منه الصاعد حتى يأخذ بيده شخص على الهضبة، ويذكرون أسباباً مالها من أصل. قلت: والذي رأيت هناك حجراً محروقاً شبه مغارة ينزل الناس إليها متبركين بها وينسبونها للنبي صلى الله عليه وسلم ويأثرون في ذلك خرافات مالها فصل ولا أصل. قال: ومن جملة غرائبهم تسميتهم بدراً ببدر وحنين ولاينطقون بها إلا هكذا مقرونين على أنها اسم واحد، واشتهر ذلك عندهم حتى صار في حيّز المقطوع بصحبته وفشى ذلك على ألسنة الخاصة والعامة، حتى لقد أوهم اشتهار القضية ناصر الدين رحمه الله على جلالة قدره، فذكر حنيناً مع بدر، في رسالة له قد مضى ذكر فصل منها وليست غزوة بدر في السنة الثانية من الهجرة، وبدر هو الوادي المذكور على أربعة أيام أو نحوها من المدينة، وكانت غزوة حنين عام ثمانية من الهجرة بعد فتح مكة، وحنين في جهة الطائف على بضعة عشر ميلاً من مكة. قلت: وقع للإمام البوصيري في الهمزية نحو ما وقع لناصر الدين(١) (....) وانتقد عليه بذلك أيضاً، ولا أدري ماسبب توهم القائلين بذلك (....) يجرى على لسان هذين الإمامين، ألا يكون لكل من المكانين (....) مشهوراً لايجهله مثل هؤلاء الأئمة الأجلة(٢).

---

(١) البياض منطمس في الأصل.

(٢) كنت تأثرت بقول العبدريّ فنشرت في مجلة «المنهل» قبل أربعين عاماً أُنْكِرُ ذكر بَدْر مَع حُنَيْنٍ هنا لِبُعْدِ مابين المكانين، ولكن اتضح لي ــ فيا بعد ــ وجود موضع بقرب بَدْرٍ يُعْرَفُ باسم =

تتميم: الوقدة المذكورة اليوم حلت (؟) لبدر عادة الركب المصري أنه يستصحب الشمع الكثير والقصد الأعظم إيقاده بهذا الموضع، و يباع به، تراهم يوقدون الشموع على أقتاب الجمال وسروج الخيل وأكتاف البغال والحمر ليلاً، و يوقدون في كل خيمة منه العدد الكثير فترى الركب كله كأنه من أعظم المساجد المسرجة في أحد المواسم، بل شمس أشرقت على معالم، وشاع وذاع عند العامة أن الصحابة في غزوة بَدْر أوقدوا نيراناً كثيرة فيتشبهون بهم. قال الشيخ أبو سالم: وتلك غفلة، وخطأ لأن وقوع الأمر بإيقاد النيران إنما كان في غزوة الفتح بمرّ الظهران كما في كتب السير، ولو سلّم أن ذلك وقع ببدر فقد كان لإرهاب العدو وإظهار قوّة المسلمين وكثرة عددهم، فحيث لاعدّو فلا مَعْنَى له، ولاشك أن الفرح بنصر الله تعالى أولياءه على أعدائه، والاستبشار بالأماكن التي أعزَّ الله تعالى فيها الإسلام أمر مطلوب مستحسن مالم يؤد ذلك إلى محظور مثل اعتقاد أن الوقود سُنّة متبعة، بل ربما ظنَّ بعضهم أنها من أفعال الحج، فلتعظم بغير ذلك من فرح وسرور وصدقة وعبادة ودعاء وشكر. وقد جاءني كثير ممن لاشمع عنده، يستفتون و يقولون: لاشمع عندنا فهل يلزمنا شراؤه ممن هو عنده؟ ظانين أن ذلك من مناسك حجهم وشعائره وكم مثلها من بدعة محدثة، يرى الناس أنها من أعظم القربات، فنسأل الله الثبات على السنة التي لا ترى فيها عوجاً ولاأمْتاً، ثم نقل عن الإمام ابن مرزوق في «شرح البردة» من الآيات ببدر الباقية: سماع كهيئة طبلِ ملوك الوقت. لنصر أهل الإيمان، قال: وسمعه مراراً سماعاً محققاً، قال وقال المرجاني: وضربت (طبلخانة) النصر ببدر فهي تضرب إلى يوم القيامة نقله عنه السمهودي في تاريخه الكبير والصغير. قال الشيخ أبو سالم: وقد مررت ببدر سبع مَرَّات وشيخنا أبو بكر السجتساني[1] نحواً من سبع وعشرين مرة فلم

= حُنَيْن. قال قطب الدين النهروالي محمد بن أحمد القطبي المكي (٩١٧/٩٩٠) مؤرخ مكة ــ قال في إحدى رحلاته إلى المدينة المنشورة في مجلة «العرب» س ١٦ ص ٥٢٥ ــ مانصُّهُ: (وفي قبالة بَدْرٍ عين ضعيفة يقال لها عين حنين في سفح جبل به مزارع، ومساكن وبعض نخيل، وبه طائفة من الأشراف يقال لهم الفضول، ساكنون هناك وبها بيوت دائرة، وماءُ حُنين أخلى من ماء بدر، وفي شعب حنين مواضع بها ماء حلو من المطر يكاد بعض أهل القافلة يستقى منه، وذلك الشعب يقال له شعب المنادي. انتهى.

(١) في الهامش: (كم حج الشيخ العياشي)، فلعلّها واحدة.
نص كلام العياشي: (وقد سألت عن هذه المسألة محقق زمانه شيخنا سيدي أبا بكر =

يسمع منا أحد شيئاً يتحققه والعلم عند الله، وإذا ذكر ابن مرزوق وغيره ممن يوثق به أنهم سمعوه فالصحيح أن بعض الناس يسمعه دون بعض قلت: ولقد صعدت جبل الرمل الذى يزعمون سماع الطبل فيه متثبتاً في ذلك فلم أسمع شيئاً من ذلك ولاسمعت في ركبنا مع كثرته من ادَّعى سماعه ــ والعلم في ذلك لله تعالى ــ.

لطيفة: ومن بدر طَرِيْقٌ مشرقة إلى المدينة على وادي الصفراء وهي التي سلك الركب الشامي، فيجتمع هاهنا غالباً مع المصري، والمصري أكثر منه آدمياً وخيلاً وبغالاً وحُمُراً، وأضبط، والشامي أكثر منه إبلاً في جودة، وأحسن صنعة في نصب الأخبيه، كأنها أزقة ملتوية، مع ماهي عليه من مزيد حسن الصنعة وكمال البهجة، والمصري يكثر من أثقال السلع، والشامي تجارته في كنحو جوهر ويواقيت، فترى الإبل فارغة من غير الزاد، وعسكره مغاربة، وأميره في الوقت لا يد فوق يده عند السلطان العثماني، وهو رجل صالح فيما يؤثر عنه. وأهل الشام الذى رأيناهم واجتمعنا بهم بعد هذا في الحرمين من أحسن الناس هدياً وسمتاً وديناً وسخاء، يأبون مايدنسهم بين غيرهم ممن اجتمعنا به في الموسم من أهل الآفاق، وأما ركب المدينة المنورة فهو ركب صغير معظم، تعلوه مهابة، يمرون أيضاً ببدر إلى جدَّة ثم منها لمكة، ثم يرجعون على جدَّة أيضاً، وصاحب الشاميِّ منهم جماعة وبنفس ماخيَّمنا جاءني رجل منهم في جماعة، وعليه رونق الخير والصلاح بتمر ورمان قال: إنه جاء من المدينة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، ففرحت بها من هدية ماأعظم شأنها. وقال ــ مع ذلك ــ: أردت إن قضيت المناسك إن شاء الله ورجعنا لطيبة أن أكون في خدمتك في سائر ماتحتاجه بها من زيارة المشاهد، وقضاء ماعسى يُحتاج إليه من العوائد، ويستفاد بها الفوائد، وكتب اسمي واسم حرمي. ورفاقي في ديوان له. وكتبت عنه في نسبه مثل ذلك ولكن غاب عني اسمه الآن، وفعل ذلك تودداً وتوثقاً وتجديداً للعهد وتذكرة، ولأن الموسم على كثرة الخلق لايكاد يجتمع الإنسان فيه مع من لَهُ مقر

= السجتاني (ض) فقال لي: كنت حريصاً على تحقيق ذلك وقد مررت ببدر نحوا من سبع وعشرين مرة فلم أسمع شيئاً أتحققه والعلم عند الله. وهذه المسألة مثل ماشاع على ألسنة الحجاج أنهم يرون الأنوار.الخ).

معلوم من الحاضرين فضلاً عن الغرباء المسافرين، فعند ذلك لم أتمالك نفسي فتواجدت حتى كدت أن أخرج عن حسّي، ففاضت عيناي فيضان فرح وسرور، وأردفت أعينهم بمجارى تحكي الدر في النحور، فقلت ارتجالاً ولم ألق لاعوجاجي بالاً:

مرحبا مرحبا بجار الحبيب ... يكتب الاسم في دفاتر طيب

يروم وصلنا بذاك الطيّب ... ياله من وصال بدر نجيب

حبذا وهو في معاهد بدر ... جا بتمر من طيبة لغريب

هذه والله نفحة من نبي ... عليه من صلاة رب رقيب[1]

وبهذا المحل استهل لنا هلال ذي الحجة[2]، وكانت ليلة الخميس فاستبشرنا بوقفة الجمعة وقد وقع الإجماع عليها من سائر الآفاق.

وفي الصغرى: ثم منها ــ السقيفة ــ قبيل العصر ونزلنا بَدْراً محلَّ الوقعة المباركة ضحوة، وقامت بها سوق عظيمة في كل محتاج، وبه اجتمعنا مع ركب طيبة.. وأما الشامي فلم نلقه هذه السنة على عادته في ذهابه من المدينة لمكة، على درب آخر يسمى دَرْبَ الليمون، لايجتمع مع دَرْبِنا هذا إلا بقرب مكة.. وجُلْنَا في نواحي المكان المبارك، وسبحنا في مسجد عريش رسول الله صلى الله عليه وسلم، وزرنا الشهداء، وبه استهل لنا هلال ذي الحجة.

البَزْواء: قال: فارتحلنا ــ من بدر ــ ضحوة الخميس الأول من ذي الحجة بعد مضي ثلاث ساعات، ولما تجاوزنا القرية بنحو ميلين مررنا بغار على يمين الذاهب في هضبة بحرف الوادي يذكرون تخرصاً أنه الغار الذى دخله رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر حين هاجر من مكة. قال العبدري: وذلك باطل،

(١) من هذه المقطوعة ومن المقطوعة التى تقدمت في الكلام على الوعرات السبع قبل ينبع تتضح منزلة المؤلف في الشعر، وأنه ليس منه في قبيل ولادبير.

(٢) في الهامش: (قلت: هي بالحساب التعديلي ١٥ في (الموافقة!) ٥٩٨١٥ (فإن أول الشهرا (٣٠ بابة قبطية ١٤٩٨٣، ٧ نونبرس ١٧٨١).

فإن الغار المذكور في جبل ثور قريباً من مكة في ناحية الجنوب منها، وهو أشهر وأعرف من أن يعرف به.اهـ. وأسرع إليه لما وازيناه الخفاف من الناس، واستقبلناه وزرناه ونحن على دوابنا بالنية، إذ لا يبعد أن يدخله النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر أو في بعض أسفاره، وبالجملة فبدر وساحته كلها مزارة عظيمة.

ثم سرنا فمررنا بعده غير بعيد على سبيل ماء مبني بين جبيلين عن يمينك وأنت ذاهب، قيل، وهو لخناثة بنت أمير المؤمنين محمد بن عبد الله بن اسماعيل من قبل أبيه، قد كانت لما مرَّتْ بهذا المحل حاجّةً دفعت مالاً لسكان بدر على ذلك، فإذا قرب مجيء الحاج نقلوا إليه الماء، ووجدناه مملوءاً أخذ منه من احتاج إليه كفايته، وسرنا بقية يومنا وجميع ليلنا في أرض بطحاء متسهلة، مجهلة وأي مجلهة، وأظنها هي طريق الساحل التي مرَّ بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر في هجرتهما من مكة إلى المدينة وفيها[1] تعرض لهما سراقة بن مالك بن جعشم على فرس له فساخت به وأسلم إذ ذاك.

ثم نزلنا فبتنا بقاع البزوا الشبيهة بالتيه على غير ماء وقد مضى من النهار ساعة وهو كما قال الصفدي: قاع لايظفر غائص بحره بقاع، ولايرى المسافرون له نظيراً في البقاع، لأنه قاع صفصف، ومهمه نفنف، ولا ترى فيه عوجاً ولا أمتاً، ولاتجد السماء سَمْتاً، يخر خرّيته من الضلال، ويفر عفريته من الظلال.

وقلت:

قد سلكنا القاع الذى أضحى مضافا دون البقاع لبزوه

وهو قاع لانبت فيه تراه عَيْنُ سَارٍ وكم لنا فيه سروه

فما رأينا أكثر تسليطاً من الزيلع على الجمال التى عجزت وفزعت... متى

---

(١) ظن المؤلف أن البزواء هي طريق الساحل الذي مر به الرسول (صلى الله عليه وسلم) ظن خاطىء، فالساحل المقصود بين غار ثور وبين قديد، أي أنه جنوب قديد لاشماله وبعده، كما يفهم من وصف طريق الهجرة في كتب السيرة.

يبرك أو يَعْيَى بعيرٌ اعتوروا على أخذ جلده للأحذية، واشتووا (؟) على جلد (؟) لحمه للأغذية، ولما نزلنا وجدنا الحشيش كثيراً ومحل الماء في العِزّة أثيراً فقلت:

مررنا بقاع البزوة الأفيح الذى عليه صريح الذم راح حبيسا

فكان به للماء قدر وعزّة وقد أذهبت فيه النفوس نفيسا

وكم زيلع وافى وموسى بكفه لينحر في وسط المفازة عيسا

وبهذه المنزلة جاء الثبت من ورائنا أن الركاب المغربية تقاتلوا مع أعراب ينبع فوقعت بينه موتى ونهب، ومنعوهم الماء.

وفي الليلة الماضية ــ أيضاً ــ ظهرت الأنوار لمن شاهدها من الركب من نواحي مكة والمدينة، فإن كانت أنوارا خاصة فذاك، وإلا فالبرق، وسائر مايهتدى به من شمس وقمر ونجم من نوره صلى الله عليه وسلم فلا غرابة في شيء من ذلك حتى يجزم الشيخ أبو سالم وشيخه أبو بكر السجستاني بأنها بروق من غير دليل يقوم على ساق.

تنبيه: هكذا تنطق العامة فتقول: قاع البزوا، وربما أفردوا البزوا عن القاع، والقاع عن البزوا قال شيخ شيوخنا سيدى عبد المجيد الزبادي الفاسي فى رحلته: ووجهه أن هذه الأرض في هذه المرحلة تسمى بزوا لما فيها من الضيق والاحديداب وعدم الاستواء وهذا الطرف منها لما اطمأن واتسع وسهل ومارتفع سمي بالقاع وأضيف إلى البزوا لأنه بعضها سمي بالقاع وأضيف إلى البزوا لأنه بعضها أو مجاورها ولا ترا(؟) ا.هـ. قلت: والقاع في اللغة اسم للأرض السهلة المطمئنة قد انفرجت عنها الجبال والآكام، والحاج يبيت بهذا المكان الموصوف بهذه الصفات، وعن يساره جبال، ومن العادة أن يلازمها عدم الاستواء. والبزا في أصل اللغة انحناء في الظهر عند العجز أو إشراف وسط الظهر على الإست أو خروج الصدر ودخول الظهر وأن يتاخر العجز. فصحَّ إطلاق البزو على الجبال بهذا المعنى والله أعلم بغيبه.

قال العبدري: ومن بدر تشير إليك البزوا وهي بريّة ممتدة ملساء مجهل من أعظم المجاهل نكراء، يضل بها لنكارتها الدليل، و يذهل فيها الخليل عن الخليل،

وهي مسيرة ثلاثة أيام، وليس بها على التوفيق إلمام، ولانصبت بها على المسالك أعلام، اشتبهت فما يتميز وراء من قدام، يسرح الطرف فيها فلا يقف عند مَدَى، وتظمأ الأفواه فلا تجد بَلَّة تنقع صدى. هـ.

رمال عالج (؟) ــ سبيل محسن ــ مستورة:

ثم قال: ثم ارتحلنا ــ من قاع البزواء ــ وقد مضى من نهارنا خمس ساعات ونصف في مجهلة بطحاء، وهي رمال عالج التي تضرب بها الأمثال في غابر الأزمان، وهي كما قال الصفدي: بقعة من رمقها أصبح ذا نظر عالج[1] رأينا فيها رمالاً نصبت جبالاً، وعُدّتْ للأهرام في الرفعة مثالاً، وعزّت أعاليها على النجوم منالاً، ورأينا بها أفاعي بيضاً بُتْراً لها قرون، قدْ مَرّتْ عليها في تلك البقاع دهور متعددة وقرون، من كل حيّة بترا، لايجد السليم منها دون الموت ستراً، لو كان الجمل جبلاً لَسَعَتْ إليه، وَلَسَعَتْ، وأضرمت فيه نار سمّها فَلدغت ولذعتْ، فما كدنا نقضي العجب مما بصرنا به، ولا أدينا شكر الله تعالى الذى ما ابتلانا بضر نابه، وقلت:

في وسط رمل عالج ... عجيبة أبينها
حيّاتها البتر غدا ... بياضها يشينها
رأيت فيها حيّةً ... أشبه لي تكوينها
مفتاح عاج أبيض ... أسنانه قرونها

---

(١) القول بأن الرمال الواقعة بين البزواء ومستورة هي رمال عالج خطأ، وقع فيه كثير من المتقدمين قبل صاحب الرحلة، كالصفدي وغيره، هذه الرمال هي رمال حسنا التي قال فيها كُثيِّر:

عفت غيقة من أهلها فجنوبها ... فروضة حسنا، قاعها فكثيبها

أما رمال عالج فتعرف الآن باسم النفود الكبير وتقع شمال بلاد حائل ــ من نجد ــ تفصل بين تلك البلاد و بلاد الجوف (دومة الجندل).

والقول بأن مستورة سميت باسم بنت عنتر خطأ أيضاً فبلاد عنتر وقومه في عالية نجد ــ كما سبقت الإشارة إلى ذلك ــ ولكن هذه البلاد كان نصيب الشاعر ــ وهو مولى أسود ــ كان يسكنها، كما هو معروف.

ثم مررنا بسبيل محْسن، وليس به في الوقت ماء وفيه يقول الشاعر:

قد شكى لي بعض المحبين يوماً ظمأ الماء قلت ذا غير ممكن

كيف تشكو الظما وتجزع منه وبهذا السبيل أحسن محسن

ثم مررنا عشية يومنا **بمستورة** و يقال: مِستيرة ـــ بالياء ـــ قر ية سُميّت فيما يقال على ألسنة العامة باسم بنت عنتر المنسوب إليه الاصطبل، قد كانت نزلت هذا المكان القديم، وبها بئر كبيرة مطو ية بالحجر المنحوت وماؤها عذب كثير في الوقت، وحولها عمارة قليلة، وبها قبر يزار، عليه قبة[1]، اسم صاحبه الشيخ يحيى، شر يف يمني، و بروضته قيّم يأخذ صدقاته، وقامت هناك سوق مع أعراب حَرْب، و بالقرب من هذا الموضع كانت **ودَّان.**

قال في «الروض المعطار»: وهي من أمهات القرى بالحجاز، وهي فَعّالٌ من الود، وفي سِيَر ابن إسحاق في غزوة الأبواء وهي وَدَّان. وقال يعقوب بن حميد: أقبلت من مكة فلما صرت بودان لقيت صفراء من مولداتها فقلت: ياجار ية ما فعلتْ نُعْم؟! فقالت: سَلِ النُصَيب، تر يد قوله:

ألا تسأل الخيمات من بطن أرثدٍ إلى النخيل من وَدَّانَ مافعلت نُعْمُ

أسائل عنها كل ركبٍ لقيتهم ومالي بها من بعد أن فارقت عِلْمُ

قال فعجبت من ظرفها.

قال البكري: ومن ودّان إلى مدينة الجار، وهي بئر تنزل عليه القوافل بينهما خمسة وثلاثون ميلاً.هـ. وقول ابن إسحاق: غزوة الأبواء وهي ودّان يقتضي أنهما اسم لموضع واحد، وليس كذلك[2] فقد سألت سكان هذه البلدة من الأعراب فقالوا: هما موضعان[3] وفي «القاموس»: والأبواء موضع قرب ودّان ـــ وسيأتي

---

(١) بناء القباب على القبور محرم شرعاً.

(٢) في الهامش: (إقدام كبير على مقام إمام مقدم في هذا الشأن بإجماع أئمة الإسلام).

(٣) في الهامش: (وهو كذلك فإن الأبواء غير ودان وبينهما نحو ثمانية أكيال كما نص على ذلك «معجم البلدان» لياقوت وعليه فإن انتقاد المؤلف على ابن إسحاق في محله، ولامعنى لما كتبه المطرر أعلاه على أن تحقيق مسألة علمية لاتؤثر في مكانة الإمام ابن إسحاق وماهو إلا بشر والعظمة لله وحده.

الكلام على الأبواء في الرجوع إن شاء الله ــ وهو عن يسار مستورة داخل الجبال.

رابغ والجحفة:

ثم نزلنا رابغ وقد مضى من النهار نحو ساعة وهو واد أفيح يسيل بالأمطار الكثيرة تجتمع إليه مِن أماكن بعيدة، وكثيراً ماتوجد به الحياض المتوفرة(؟) بالصيب فيستغنى الركاب بها، وإلا حفروا قليلاً فوقعوا عليه، وهو بكسر الباء الموحدة والغين المعجمة، من رَبَغَ القوم في النعيم: أقاموا وعيش رابغ ناعم، وربيع رابغ مخصب، قاله في «القاموس» ولما كان هذا الوادي المبارك من أخصب أودية الحجاز سمي بذالك.

وفي «رحلة» العبدري: رابغ ــ بالغين المعجمة ــ قال: وبعضهم يقوله بالعين، فظاهره أنَّه الأشهر فيه قلت وفيه نظر. ففي «القاموس» رابع موضع بنجد، وكأنَّ هذا ونحوه هو الذي أوهم العبدري، ونجد ما ارتفع من أرض الحجاز لنواحي المدينة، وليس هذا منها والله أعلم إذْ هو في بسيط من الأرض، وبه آبار ليست بذاك، وبعض نخل، وتزرع به مَقَاثِي كثيرة ودخن وذرة، وهو من أخصب أودية الحجاز، تسكنه قبيلة حرب في قرية وأخصاص، تقوم معهم سوق عظيمة، ووجدنا به الشاميَّ مخيَّماً فارتحل محرماً في الساعة الرابعة من نهارنا، فعند ذلك تأهبنا بغسل الثياب والاغتسال للإحرام وشراء الرداء والإزار والنعال لمن لم يستعدها من مصر، فلما صلينا الظهر ومضى من النهار تسع ساعات نودي بالرحيل، فلما برزنا إلى البرية على ظهر مَطِيّنا ركعتي الإحرام[1]، ثم بعد أن تجردنا وانتعلنا وارتدينا ثم اتزرنا أحرمنا ملبينَ بالحج مفردين، وعلى استحضار النية محافظين، ومتابعة التلبية ولها مجددين حتى أشارت (؟) علينا الجحفة عن يسارنا، إذْ لم يتأتَّ تأخير الإحرام إلى مقابلتها لنا. قال الشاعر:

تَجَرَّدتُّ لما أن وصلت لرابغ ... ولبَّيْتُ للمولى كما حصل الندا[2]
وقلت إلهي!! عندك الفوز بالغنا ... وإني فقير قد أتيت مجرَّدا

---

(١) في الهامش: (كذا).
(٢) للبكري عن العياشية ١/١٨٧.

وقال آخر:

وفي رابغ رَكْبُ الحجيج تَجَرَّدا ليسأل مولاه الأمان من الرَّدى
خضوعاً أذِلاً، سائلين إلهَهُمْ يُفيض عليهم أبْحُرَ الجود والندى

قال العبدري: ورابغ دون الجحفة بمسافة، والجحفة عن طريق الركب على أميال وهي الميقات، وما أظنُّ الآن بها عمارة، وإنما لم يكن الإحرام منها لأنها زائغة عن الطريق، وفي «البخاري» عن ابن عمر: لما فتح هذان المصران ــ يعنى الكوفة والبصرة ــ أتوا عُمَر فقالوا له: ياأمير المؤمنين إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حَدَّ لأهل نجْد قَرْنَاً وهو جَوْرٌ عن طريقنا، وإنا أردنا قرْناً شقَّ علينا، قال: فانظروا حَذْوها من طريقكم، فحدَّ لهم ذاتَ عِرْقٍ وإنما لم يترك الإحرام إلى موضع يحاذي الجحفة لعدم وجود الماء هنالك ومن سنة الإحرام أن يكون عقب الغسل، على أنه ليس بين الموضعين من تفاوت المسافة مايتقي فيه تقديم الإحرام قبل الميقات، وللقرب تأثير، وإن كان ابن المَوَّاز روى عكس هذا من جواز تقديمه من موضع بعيد، وكراهته من موضع قريب، ويدل على صحته ماقدمت أنه قد حدد الميقات بالجحفة ومرَّة بِمَهْيَعَةً. وقال صاحب «الدلائل»: هي قريبة من الجحفة، وإن كان أكثر الناس على خلاف ماحكى أن الجحفة مهيعة وقال في إحرام النبي صلى الله عليه وسلم: تارة تذكر البيدا والأكثر ذو الحليفة. وما أوجب ذالك إلاَّ تقارب الموضعين. ثم قال: ذكر أهل الأخبار أن الجحفة كان اسمها قديماً مَهْيعة حتى نزلها بنو عبيل إخوة عاد في الدهر الأول حين أخرجتهم العمالقة من يثرب، فأتى عليهم سيل اجتحفهم فسمّيت الجحفة. وحكى القاضي عياض في «مشارقه» قولاً أنها سميت الجحفة من سبب سيل الجُحاف الذى اجتحف الحجاج عام ثمانين ولا أدري كيف ينطلق اللسان بحكاية مثل هذا، وبعد أن يُحْكَى كيف لا ينبه عليه، وذالك أنها كانت تسمي الجحفة قبل الإسلام وإلى الآن، وجاء ذكرها في الأحاديث الصحيحة والأخبار الثابتة، وكان سيل الجحاف في إمارة عبد الملك بن مروان فكيف سميت به قبل وجوده؟ وأعرب من ذلك أن السيل الجحاف كان بمكة واجتحف الحجاج من المحصَّب، وذهب بهم وبأمتعتهم وهدم بمكة دوراً كثيرة، ودخل المسجد الحرام

وأحاط بالكعبة، وكان ذلك سحر يوم التروية من عام ثمانين فما شأنه والجحفة حتى سميت به؟؟ هذا مما يكون الإضراب عنه صفحاً أولى وبالله التوفيق.

وفي رحلة سيدي عبد المجيد الزبادي الفاسي: ومازالت الجحفة ميقاتاً لأهل مصر والشام حتى تعذر ذالك، ولست أدري الآن ماسبب تعذره، فصار الناس يحرمون اليوم من رابغ، والبقية منهم يحافظ على استحضار النية ومقابلة التلبية حتى يقابل الجحفة. هـ. وقد علمت من كلام العبدري السبب قلت: والظاهر في الجواب أن الناس تركوا الإحرام بها لما بها من الحُمّى التي انتقلت إليها من المدينة بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم وقد أحرم منها الإمام جدُّنا أبو عبد الله ابن ناصر اقتداء في ذلك بالسنة فأصابته منها حُمّى، وأما ميلها عن الطريق فليس بعذر، على أنه لاكبير بُعْدٍ بينها وبين الطريق. فإن قيل: لو ترك الإحرام قبلنا في العهد النبوي وفي زمان أصحابه والتابعين يكون الجواب ماذكرتم، ولكن لم يترك إلا في هذه الأزمان المتأخرة؟ فالجواب فأولاً: فالعهد النبوي لم ينتظر به ركب شامي ولا مصري وإنما الإحرام من ذي الحليفة لأهل المدينة ومن نحا نحوهم كأهل الشام اليوم لأنهم يمرون بالمدينة ذهاباً وإياباً فيقع إحرامهم من ميقاتها، وإنما حدَّها رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل مصر والشام لما يستقبل بعد زمانه، فيبقى النظر بعد ذهاب العصر النبوي وافتتاح مصر والشام في زمان الصحابة فمن بعدهم، ويجاب بأنهم مع ماعُلِمَ من ورعهم كانوا يستسهلون ما بها من الوباء فيحرمون منها، فلما جاء من بعدهم ارتكب الرخصة في ذلك، والله أعلم، وقول العبدري في الجحفة: لاأظنُّ الآن بها عمارة جاء بعده صاحب «الروض المعطار» وزعم أن بها في زمانه عمارة فقال: الجحفة قرية جامعة بينها وبين البحر ستة أميال، وبين مكة ستة وسبعون ميلاً، وهي منزل عامر آهل فيه خلق، ولاسور عليه، ثم قال: وبين الجحفة وعسفان غدير خُم. وعن الأصمعي قال: لم يولد بغدير خُمٍّ مولود فعاش إلى زمن الاحتلام إلا أن يرحل عنها، وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم عَرَّس في غدير خُمٍّ وقال هناك: «من كنت مولاه فعليٌّ مولاه، اللهم والِ مَن والاه وعاد من عاداه» وذلك منصرفه من حجة الوداع. ثم قال: وغدير خُمٍّ على ثلاثة أميالٍ من الجحفة يُسْرَةَ الطريق، وهذا الغدير يصبُّ فيه عينٌ، وحولها شجر كثير ملتفٌ وهي الغيضة التي تسمى

خُمٍّ، وبين الغدير والعين مسجد النبي صلى الله عليه وسلم قال: وفي أول الجحفة مسجد النبي صلى الله عليه وسلم وقال عليه السلام: «اللهم انقل وباء المدينة إلى مَهْيَعَة». ولَمّا قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وُعِكَ أبو بكر وبلال رضي الله عنهما قال عائشة: فدخلت عليه فقلتُ: ياأبتِ كيف تجدك؟ قالت: وكان أبو بكر رضي الله عنه إذا أخذته الحمّى يقول:

كلُّ امرىءٍ مُصَبَّحٌ في أهله والموت أدْنَى من شراك نَعْلِهِ

وكان بلال رضى الله عنه يرفع عقيرته يقول:

ألا ليت شعري هل أبيتَنَّ ليلة بواد وحولي إذخرٌ وجليلُ؟!

وهل أردنْ يوماً مياه مَجَنّةٍ وهل يبدُوَنْ لي شامة وطفيل؟!

قالت عائشة رضي الله عنها: فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته: فقال: «اللهم حبِّبْ إلينا المدينة كحبّنا مكة، أو أشدّ، وصححها وانقل حُمّاها إلى الجحفة». قال أهل التاريخ: فكانت إذا مَرَّ بها حتى الطائر سقط مما بها من الوخم والوباء.

وفي الرحلة الصغرى: ثم ارتحلنا من بدر بعد الزوال فنزلنا قاع البَزْوَة بعد ماحلّت النافلة. ثم منه قبيل الزوال فنزلنا رابغ ــ بكسر الباء ــ إسفاراً، وأقمنا بقية يوم الثلاثاء وليلة الأربعاء، وقامت به سوق عظيمة[1]، متأهبين في كل ما نحتاج سيما أثواب الإحرام من أزر وأردية ونعال مجلوبة من مصر، وغيرها للدخول في النسك ــ ثم أورد كلاماً طويلاً عن مناسك الحج ــ قال بعده ــ ورابغ هذا بكسر الباء كما في «القاموس» من أخصب أودية الحجاز، تأتي إليه السيول بمن بعيد، تزرع فيه كثرة المقاثّي والدخن والذرة، وبه آبار وبركة ماء كبيرة، وديار تقام عندها مع الحاج سوق عظيمة مع أعراب حرب وغيرهم.

فلما كانت صبيحة الأربعاء في الساعة الرابعة اغتسلنا للإحرام.. فلما تعدينا القرية أحرمنا... إلى أن وازينا عن يسارنا الجحفة ميقات المصري والشامي

(١) كذا وفيه نقص.

والمغربي في القديم، فراراً من الخلاف الذى في رابغ، هل هو من عمل الجحفة أولا، المشار إليه بقول أبي المودة: وفي رابغ تردُّدٌ.

وقال في الكبرى: فلما تجاوزنا الرّمال المسماة بالقرينات[1] الطول، وأخذنا في الأرض الصلبة لاحت لنا من بطن هَرْشا الأطلال. حيث يقول الأول:

خُذَا بطن هَرْشاً أو قفاها فإنما ... كلا جانِبَيْ هرشا لهن طريق

و(بطن) معناه (واد) وَهَرشا ثنيّة في الجبل، قال في «القاموس»: قُرْب الجُحفة، والمعنى الوادي الجاري من هذه الثنية ــ وسيأتي الكلام عليها إذا مررنا عليها في الرجعة. ــ ثم نزلنا قُدَيداً وقد مضى من النهار بعده ثلاث ساعات وخمسة أدراج.

قُدَيد:

وقال في الكبرى:ــ

قديد واد بينه وبين البحر خمسة أميال، به أعشاش وأخصاص، وبه بئرٌ لها صِهْريج، ماؤها ليس بذاك، بل أقبح من ماء الرابغ (؟) تتعرض فيه الأعراب بسوق، به دَلاّع،[2] بطيخ كثير، وفيه يقول الشاعر:

قد نزلنا بطارف لقديد ... ودخلنا حماك نرجو الحماية

فتفضل على عبيد وفود (؟) ... منك يرجو دَفْعَ العنا بالعناية

قال في «الروض المعطار»: قديد بين مكة والمدينة، بينه وبين الجحفة ٢٧ ميلاً وهو حصن صغير، فيه أخلاط من العرب، وبه نخيلات يعيشون بها، وبينه

---

(١) القرينات سماها متقدمو الرحالين الجرينات بالجيم، وهرشى ليست بعدها إلى قديد، ولكنها قبلها بل قبل رابغ.
أما هذه الثنية التى بعد الجرينات فهي ثنية المشلل المشرقة على قديد، وقد ذكر ثنية هرشى في موقعها عندما وصف الطريق من رابغ إلى المدينة ــ في العودة كما سيأتي.

(٢) الدلاع الحبحب (الجح)

وبين البحر خمسة أميال وبقرية قُديد كانت مناة تعبدها الأوس والخزرج ومن دان دينهم من أهل يثرب، فبعث إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا سفيان بن حرب ــ ويقال علي بن أبي طالب رضى الله عنه ــ فهدمها وبها مات مسلم ابن عقبة المرّي صاحب وقعة الحرة مُنْصَرَفَهُ من المدينة بعد وقعة الحر، فإنه لما عمل بالمدينة ماعمل أخزاه الله توجه بجنده إلى مكة، قاصداً حرب ابن الزُّبير، فمات بقُديد لأربع بقين من المحرم سنة أربع وستين بعد أن عهد إلى الحصين بن نُمير بالتوجه بالجيش إلى مكة لحرب ابن الزبير، وينسب إلى قديد كثير، وروى عن ابن عباس رضي الله عنه قال: إن النبي صلى الله عليه وسلم صام حتى أتى قُدَيْداً وأفطر حتى أتى مكة.

وسميت قديداً لتقدُّد السيول بها.

وبقديد حدثت وقعة الخارجي الذى يقال له طالب الحق مع أهل المدينة، قال أمرة ترثيهم:

يــاويــلــتــي ، وَيْــلاً لــيــة　　　أَفْــنَــتْ قُــدَيْــدُ رجــالِــيَــهْ

وهناك مات القاسم بن محمد حتف أنفه، وفي القديمة أن قُديداً هو الوادي الذي وقعت فيه الريح لسليمان، وأنه هو الذي أتي فيه بصاحبة سبأ. انتهى. قلت: وليس به الآن عمارة غير ماذكرناه، ولانخل ولابستان ولا ماءٌ جار ولاراكد غير بئر ــ كما تقدم ــ نعم ساحتها أراضي واسعة تصلح للزراعة لو كان بها ماء جار أو ينزل بها مايكفيها من الأمطار وعادة أهلها ــ كغالب أودية الحجاز ــ يزرعون على ماء المطر في الأماكن التي يستنقع فيها الماء. وقد أخبرنا أن كثيراً منها ينبت بغير استنبات، حتى أنهم يغرسون النخل في بطون الأودية على ماينقع بها من السيول فتصلح عليه، غير أن سائر نخل الحجاز لا يبلغ مبلغ غيره في الطول، قال في «الروض»[1] ــ فى مادة الجحفة ــ: وبقديد خيمتى أم معبد الخزاعية، بل بينهما ميلان، قال الشيخ أبو سالم: (وسألنا عن موضع مناة بالمشلّل

(١) هنا حاشية في تعريف كتاب «الروض المعطار» وأخرى في بيان الرحلات كلاهما من «كشف الظنون» المطبوع مع ذكر الجزء والصفحة مما يدل على تأخر كاتبها.

حَذْوَ قديد هل يعرفه أحد؟ فلم نجد أحداً يعرفه والحمد لله الذي هدم رسوم الطواغيت، حتى لايبقى أحد يعرف أمكنتها[1]).

عقبة السكر

وقال في الرحلة الكبرى: ثم منه وقد مضى من نهارنا ست ساعات، ومررنا بعقبة السُّكر، في جبل صغير، في حرّة ورمال، سُوِّيت ونُحِّيَتْ، ومع ذلك قاست الإبل بها مشقة عظيمة وهلك بسببها من الإبل شرذمة، وفيها يقول العبدري وماأحسنه!!

كم جمل منتصب للشقا(؟) ماجرَّه الجمال إلا انكسر

وكان في الركب يُرى مبتدا فما له من بعد هذا خبرْ

وبني مسجد صغير بجانبها، وأكثر الناس اليوم خصوصاً أهل مصر يجلبون السكر من مصر بالقصد ليشربوه هنا، ويأثرون من ذلك أثراً لا أصل له، يزعمون أن رمل هذا الجبل انقلبت للصحابة سكراً فشربوه، وهذا نظير ماتقدم في الوقدة ليلة مبيتهم ببدر[2] وفي «الرحلة» للعبدري: والناس يقصدون هذه العقبة بشرب السويق، ويستصحبونه برسم ذلك من مصر، ويخلطونه مع السكر، ويسمونها عقبة السويق، وأصحاب مصر يسقونه الناس هناك كثيراً، ويذكرون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مَرَّ بها ولم يكن معهم طعام فأخذ من رملها وأعطاهم إياه فشربوه سويقاً(؟) ولم أقف على هذا فيما وقفت عليه من معجزاته صلى الله عليه وسلم وما هو ببعيد في حقه، والله أعلم.

خُلَيْصْ

وقال فيها أيضاً: ثم نزلنا خُلَيصاً قرب غيبوبة الشفق، بقدر ماتعشينا وعلفنا الدواب، وما مضى من الليل الثلث حتى ارتحلنا من أجل أنا وجدة الركب

---

(١) العياشية١/١٨٦.

(٢) تقدم كلامه عن الوقدة.

الشامي في ارتحال منها(....)[1] البركة العظيمة المبنية في صور صهريج عظيم، كاد يغرق به من لايحسن العوم (....) قطرة ماء، ووجدنا كثرة الأعراب هناك تعرضت للأركاب، فخاف الناس السرقة والنهب من كثرة الاختلاط، واستقى الناس من الآبار الكفاية، وزايلنا المحل لما به في الوقت من الأذاية. قال العبدري: وخُلَيص قلعة منيعة على شرف مرتفع، ولها نخل كثير وماء جار طيب، وصاحبها من الشرفاء، مستبدٌّ بها، وهو رجل صالحٌ محبٌّ في الحجاج، مكرم لهم، وإذا نزل الركب به تلقاهم وأحسن مثواهم، والقرية اليوم خالية، مابقي إلا أثر أنقاضها، وبالمكان ضعفاء من الشرفاء أهل البيت، وربما تعدّى عليهم يسكنون الأخصاص والشعاب، وربما بنوا بنياناً ضعيفاً، وبالجملة فالمكان عليه طلاوة قد كساه البهاء، ينشرح فيه الصدر كل الانشراح، مع ماهو عليه من توفر أسباب العمران، من مياه عذبة وأرض مخصبة يصلح بها الزرع وأنواع المقاثي، وبه آبار كثيرة مطوية بالحجارة قد بلغت النهاية في العذوبة والخفّة، فسبحان من يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين:

وفي خليص يقول الإمام الصفديّ رحمه الله:

يقول سائق ركبي	ولاتَ حين مَنَاص
لقد بُلينا بدَرْب	بطول يوم القصاص
فقلت: جيء بي خُلَيْصاً	وابشر بحسن الخلاص

وقال في الصغرى: وتابعنا السير ــ من رابغ صباح الجمعة ــ حتى تعدينا قديداً وعقبة السكر، فحططنا خليصاً ضحى، بعد هلاك جمال وبغال ورجال، وبه عين ماء، وأبنية قهاوى، وقد سيق الماء في قنوات محكمات من العين، يتفجر عنها في مواضع للسقي والوضوء إلى أن يرجع الماء إلى بركة عظيمة تحت القرية، وهو ماء عذب زلال تزرع عليه زروع ومقاثي.

(١) مكان النقط غير واضح في الأصل.

مدرج عثمان

قال ابن عبد السلام في الرحلة الكبرى: ثم أزمعنا السير في غيطة(؟) ذات أشجار ملتفة من الطرفا وغيرها، وفي خلالها مزارع حتى نزلنا مدرج عثمان، ثنية يُهْبَط منها إلى عسفان وهي شاقة لولا أنها بُنيتْ ولُقِطت أحجارها وسُويَتْ، ومع ماهي عليه من بعض الطول، وبجانبها مسجد صغير، أثر فيه السيل، وكاد عن مكانه أن يزول، وفيها الصفديُّ يقول:

طوينا الفَلا نبغي الوصول لمكة ... فناحت علينا الورق في عَذَبِ البان

وكم مُدْرَج قد راح في كفن البلا ... بيوم التلاقي في مُدَرَّج عثمان

وقد كان يصفها قبل تسويتها، ثم لاأدري من عثمان الذي سواها، وبنى بها، وما (...) ملك من الملوك.

عسفان

وقال في الرحلة الكبرى: فلما قطعنا العقبة نزلنا عسفان في الساعة الأولى من النهار، وشربنا من الماء أعْذَبَهُ، وبها آبار متقنة، قليلة الماء، غير صاحبة التُّفْل النبويّ فهي بَحْرٌ لاينزح وشفاء من كل داء به الإنسان يُبْرَح، وقد بحثت عنها على التعيين فقال من اشتبهت عليه قالوا: غارت أوبها ماء ضنين، وحملتني عليها الغيرة فأنشدت ارتجالاً جهرة:

عسفان رِدْ وتَضَلَّعْ ... منه، ففيه شفاءُ

ولا تَقُلْ قالوا: غارَتْ ... ريقُ النبيّ روَاءُ

فذيّلها الزلال الصافي، والخل الموافي أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن الدمناتي بقوله: [١]

---

(١) البيت الأول غير واضح منه سوى (من أصبعيه هناء).

والـــضــــرع درت لــــديـــــه   وكــــــان منهــــا الــــغـــــذاء
فـــكــــيـــف بـــالــبئر حَــتّـــى   فَـــــارَتْ بـــــئـــــار ومــــــاء

وقد شربنا منها ــ تبركاً ــ وفيها يقول الشاعر:

إن عــســفــان تــســامــت رفـعــة   وعــلــت قــدراً عــلــى كــل الــقـرى
وبهـــا بئر الـــنـــبـــي المـــصـــطـــفـــى   خير مـــن صـــلّـــى وصـــام وقـــرا

تـنـبـيه: في الرحلة العبدرية مانصه: المدرج على نصف يوم من خُليص وهو مضيق بين جبيلين، في موضع منه بلاط على صورة الدرج، وأثر عمارة قديمة، وهنالك بئر تعرف ببئر علي، و يقولون إن علي ابن أبي طالب رضي الله عنه أحدثها هناك.هـ. قلت: لاذكر لسَيِّدي علي في هذا المكان، وإنما به البئر التي تفل فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم في عسفان.

مَرٌّ وسَرِف:

وقـال ــ عـن مرَّ ــ ولم نَـنْـزل بـه، وأسرعـنا السير فوصلنا سرف وقد حلت الـنـافـلـة وزرنا به على قارعة الطريق قبر أم المؤمنين ميمونه الهلالية في قبة تحت مـسـجد صغير، وصهريج (...) يخرج إلى هذا الموضع في تلقي الحاج وفي انتهاز فرصة البيع والشراء، ومن غريب الاتفاق أن بهذا الوادى بَنَى بها صلى الله عليه وسلـم مرجـعـه مـن مكة حين قضى نسكه من عمرة القضية، وقد كان قد عقد عـليها وهو محرم حسبما تظافرت بذلك الروايات. وقيل عقد عليها وهما حلال. قال ابـن إسحاق: زوجه إيـاهـا الـعـبـاس بن عبد المطلب. وقال ابن هشام: كانت جـعـلـت أمرهـا إلـى أختهـا أم الـفـضـل، فـجـعلت أم الفضل أمرها إلى زوجها الـعـبـاس، فزوجها منه صلى الله عليه وسلم وأصدقها عنه أربع مئة درهم، وذكر الـسـهـيـلـي أنه لما انتهت إليها خطبة النبي صلى الله عليه وسلم وهي راكبة على جمل قالت: الجمل وماعليه ــ أي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ــ قال: وفيها نـزلـت الآيـة (وامـرأة مـؤمـنة إن وهبت نفسها) وفي هذا الموضع ماتت، قال في «الـروض الـمـعـطـار» نـاقلاً عن البكري: لأنها اعتلت بمكة فقالت: أخرجوني من

مكة فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبرني أني لاأموت بمكة. فحملوها حتى أتو بها سرف. إلى الشجرة التي بنى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم تحتها في موضع القبة فماتت هناك، سنة ثمان وثلاثين أو إحدى وخمسين أو ثلاث وستين، أو ستة(؟) وستين، وصلى عليها ابن عباس. ودخل قبرها هو وزيد بن الأحم(؟)[1] وعبد الله بن شداد وبنو أخواتها وعبيد الله الخولاني وكان يتيماً في حجرها، وهناك حُفر قبرها.. وبسرف كان منزل قيس ابن ذريح الكناني الشاعر، ولذا قال حين بانت لُبْنَى عنه:

الحمد لله قد أمست مجاورة	أهل العقيق وأمسينا على سرف
حيٌّ يمانون والبطحاء منزلنا	هذا لعمريَ شكل غير مؤتلف
قد كنت أجهد جهداً لاأفارقها	او لا أكثر ذاك القيل والحلف
حتى تكنفني الواشون فافتلتت	لا تأمن أبداً إفلات مكتتف

وبسرف مات عدو الله تعالى أُبيٌّ بن خلف بسبب طعنة النبي صلى الله عليه وسلم له بالحربة مرجعه من أُحُد، في الخبر المشهورو ذكره ابن إسحاق[2].ا.هـ.

التَّنْعِيمُ

وقال: ثم سرنا تاركين الجعرانة محلّ الإحرام في القديم في جبال عن يسارنا لناحية الطائف وهي إلى مكة أدنى وبها قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم غنائم حنين، ومنها أحرم بعمرته في وجهته تلك قالوا: دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم الجعرانة فجاء إلى المسجد فركع ثم أحرم ثم استوى على راحلته ــ الحديث ــ ورُبما أحرم منها اليوم النادر من الناس. على خوف من متلصصة الأعراب.

---

(١) في «الاستيعاب» لابن عبد البر:(يزيد بن الأصَمّ).

(٢) ص ٢٣٤.

وسرنا حتى مررنا بالتنعيم ضحوة، وهو على فرسخين، قيل أو ثلاثة أميال أو أربعة من مكة، سمي بذالك لأن الجبل الذى عن يمينه يسمى نعيم، وعن يساره ناعم الوادي نعمان، قاله في «القاموس» ثم قال: ونَعْمان كَسيحان أيضاً واد وراء عرفة وهو نَعْمان الأراك وواد قرب الكوفة، وواد بأرض الشام قرب الفرات، وواد بالتنعيم، وموضعان آخران.هـ.

وفي «الروض المعطار» نعمان ــ بفتح أوله ــ وادي عرفة، دونها إلى منى، وهو كثير الأراك. قال الشاعر:

تضوّع مسكاً بطن نعمان إذ مشت   به زينب في نسوة خفرات

فانظره مع «القاموس» فظاهره أن نَعمان وراء عرفة لناحية الطائف عكس ما في «الروض» إلا أن يقال: وراء من الأضداد، على حَدّ: (وكان وراءهم ملك) أي أمامهم.

وفي نعمان الأراك يقول الشاعر:

تخيرت من نعمان عود أراكه   لهند، ولكن من يبلّغها هندا؟

وفيه يقول أبو بكر ابن الصايغ المعروف بابن باجة التجيبي النسب، السرقسطي الدار يتغزل:ــ

أسكّان نعمان الأراك تيقنوا   بأنكم في ربع قلبي سكّان

ودوموا على حفظ الوداد فطالما   بلينا بأقوام إذا شحطوا خانوا

سلوا الليل عني إذ تناءت دياركم   هل اكتحلت لي فيه بالنوم أجفان؟

وهل جردت أسياف برق سحابها   فكان لها إلا جفوني أجفان؟!

وجبلا نعمان أحدهما عرفات والآخر غيره أضيفا إليه لكونه بينهما، يحكى أن امرأة تزوجها رجل تهامي، وحملها إلى تهامة فأصابها حرّها فقالت له:

مافعلت الريح التي كانت تأتينا بنجد ــ تعني الصبا ــ فقال لها: حال بيننا هذان الجبلان فقالت:

أيا جبلي نَعمان بالله خليا نسيم الصبا يخلص إليّ نسيمها

أجد بردها أو تشف مني حرارة على ... ...[1]

وقال عن التنعيم: وبه يحرم الناس اليوم، أهل مكة وغيرهم للعمرة، وهو أدنى الحل للحرم، وفي «الصحيح» عن عائشة أنها اعتمرت به حين بعثها رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أخيها عبد الرحمن من مكة في حجة الوداع، لما قال له رسول صلى الله عليه وسلم: «أردف أختك عائشة فأعمرها من التنعيم، فإذا هبط من الأكمة فلتحرم، فإنها عمرة متقبلة» وفي الخبر أن ابن الزبير رضي الله تعالى عنه لما فرغ من بناء الكعبة خلّقها من داخلها وخارجها من أعلاها وأسفلها وكساها. قال: من كانت لي عليه طاعة فليخرج فليعتمر من التنعيم، ومن قدر أن ينحر بدنة فليفعل وإلا فليذبح شاة، وخرج الناس معه مشاة حتى أعمروا من التنعيم شكراً له عز وجل، ولم يُرَ يومٌ أكثر منه عتقاً وصدقة وذبحاً ونحراً، ونحر ابنُ الزبير مائة بدنة.

وبه مساجد ثلاثة تنسب لعائشة ويقال: مساجد عائشة، وهو المكان الذي ابتدأت منه الإحرام لعمرتها، وبقربه يُنْشَأُ اليوم الإحرام، وتصلّى به ركعتاه، وهو الآن مسجد صغير متقن البناء، بجانبه يليه بركة ماء، وبه آبار عذبة، ومن عادة أهل مكة الخروج لملاقاة الركاب فتنصب هنالك الأسواق ويخرج حتى الطباخون.

واعلم أن العامة إن مَرُّوا بسرف أشاروا عن يسارهم للجعرانة، وقالوا: هذه العمرة القديمة، وإن وصلوا التنعيم قالوا: هذه العمرة الجديدة، وهو ــ كما قال الشيخ أبو سالم ــ من باب تسمية الشيء باسم مايقع فيه على أحد التأويلات في قوله تعالى: «لهدمت صوامع وبيعٌ، وصلوات» أي أماكن صلوات، سميت الأماكن بالصلوات تسمية للشيء باسم مايقع فيه.[2]

---

(١) بقية الكلام لم يظهر في التصوير، لأنه كان في الهامش. وهو: (تَجَلَّتْ هُمُومُها).

(٢) ص ٢٣٣ ــ ٢٣٥.

الزاهر - ذو طوى

قال : وسرنا حتى مررنا بين جبلين مضيق، وبه مشهد عن يمينك وأنت ذاهب إلى مكة يقف الناس عنده للدعاء يزعمون أن النبي صلى الله عليه وسلم جلس فيه، فجاوزناه إلى الزاهر، واد بين جبلين، يسمى جناب مكة، وبه آثار كثيرة متقنة (.....)[1] وبعض أشجار ومبان، وبه في سفح جبل عن يمينك وأنت ذاهب إلى مكة قبور للصحابة وغيرهم، يزعمون أن فيهم سيدنا عبد الله بن عمر بن الخطاب، وقد صح أنه مات بمكة بعد الحج، وقد بنى عليهم سلطان مكة في الوقت السيد سرور بناءً عظيماً وجعل عليه حاجباً، وكتب الباني على كل قبر اسم صاحبه، زرنا جميع ذلك بالنية، وإن قال الشيخ أبو سالم: قيل إنه دفن خارجها بوصية منه، كراهية أن يدفن في هذا البلد التي هاجر منها، ومن قائل أنه بهذا الوادي ومن قائل إنه بالوادي الذى بطرف المحصب، وهو الذى شَهَرَهُ كثير من الناس إلا أنه ليس هناك قبر ينسب إليه. هـ.

وفي «الروض المعطار»: ذو طوى عند مكة، فيه دفن عبد الله بن عمران رضي الله عنه سنة ثلاث وستين وقيل: بل دفن في فخّ ــ الخاء المعجمة من فوق (...) مكة بينه وبين مكة ثلاثة أميال، وقيل ستة، وفي الخبر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اغتسل بفخّ قبل دخوله، وبه كانت وقعة الحسين وعقبة قاله البكري، وللشعراء فيه كلام وبفخ كانت مقابر المهاجرين من كل من جاور بمكة فمات فدفن هناك، وبهذا المكان (تخيم) الأركاب الشاميّة والمصرية قبل الوقوف وبعد الصدور من مكة حتى يجتمع الناس خلاف العادة القديمة من التخيم بالمحصب، وهو بطحاء مكة، عدّى الشامي إذا صدر من منى فلا زال يخيّم به، ثم ينتقل منه إلي الزاهر، وبه يغتسل الكثير من الناس لدخول مكة بناء على أنه هو ذو طوى الذى بات به النبي صلى الله عليه وسلم واغتسل به، والتحقيق ما عليه كثير من المؤرخين أن ذا طوى أمام كدًا، وليس بينه وبين مكة وادِ آخر، وهو الوادي الذى وراءه قُعيقان وبأسفله الموضع المسمى بالشبيكة حيث الثنية السفلى التي يخرج منها الحاج، فأعلى هذا الوادي هو ذو طوى

---

(١) كلمة غير واضحة وفي العياشية: (وحضرات).

وأسفله هو الشبيكة، فينبغي تأخير الغسل إليه خلافاً لماعليه كثير من الناس اليوم، ففي الموطأ «والبخاري» أن عبد الله بن عمر رضي الله عنه كان يبيت بذي طوى بين الشنيتين، ويغتسل فيه ثم يغدو منه إذ أصبح إلى مكة، زاد البخاري: ويذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يفعل ذلك، والثنيّتان ثنية الحصحاص وثنية مقبرة الحجون، ويقال المعلاة، وهي كَدَاء ــ بالفتح ــ قال الأزرقي في «تاريخ مكة»: والمسجد الذي هناك بنته زبيدة نزل النبي صلى الله عليه وسلم وفي «البخاري» عن ابن عمر قال: ومصَلّى رسول الله صلى عليه وسلم على أكمة غليظة ليس في المسجد الذي بُني ثَمّ، ولكن أسفل من ذلك. وفي «الرحلة العبدرية» ــ بعد ذكر الخلاف في محل ذي طوى وضبطه ماحاصله ــ: وإذا سار الركب من ثنية الحصحاص حيث قبور المهاجرين على ذا طوى (؟) رأوا مكة يميناً وساروا ميسرتها وقد سترها عنهم الجبل المطل عليها حتى يدوروا من ورائها، ويدخلون من ناحية الشرق على ثنية كدا التي بأعلى مكة، وهي ثنية المقبرة، ويهبط منها على مقابر مكة وهي الحجون، وقيل: الحجون الجبل المشرف عليها، ويهبط منها على المحصب، وهو الأبطح، وهو خيف بني كنانة. وفي «البخاري»: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وهو بمنى: «إنا نازلون غداً إن شاء الله بخيف بني كنانة حيث تقاسموا على الكفر» وفسر الحديث نفسه بأنه المحصب، وهذه الثنية هي التي دخل منها رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع، وهي ثنية بيضاء بين جبلين، وبينها وبين مكة بسيط سهل، هو منزل الركب إذا صدر من منى، وفي مضيقها كوم عظيم من حجارة، يقولون إنه[1] قبر أبي لهب، رجُم حتى صار

(١) ملاحظتان حول قبري أبي لهب وأبي رغال ــ ١ ــ المعروف عند أهل مكة أن قبر أبي لهب في جرول، بقرب مايدعونه (القشلة) وهناك جبل يدعى جبل أبي لهب، وليس بقرب ثنية الحجون ــ ٢ ــ الاختلاف في قبر أبي رغال كما أشار إليه المؤلف، معروف، ولكن هناك من يقول إنه بين الشرائع ووادي سبوحة، في طريق السيل الكبير وهناك من الآثار مايؤيد هذا، ولقد كنت شاهدت ــ قبل توسعة الطريق وتعبيده لمرور السيارات ــ في تلك الجهة تلاً عظيماً من الحجارة يدعه المقبل على مكة قبل النزول في وادي يدعان ــ جدعان ــ يساره متصل بقارة ــ جبيل صغير، وعندما مررنا للحج في ذي الحجة سنة ١٣٤٨ قال الذين ترددوا في هذا الطريق إنه قبر أبي رغال فنزل بعضنا عن الإبل وصاروا يرجمون ذلك التل، ثم مررت بهذا المكان فوجدت التل قد أزيل، غير أن آثاره باقية، وذلك لإصلاح الطريق.

كذلك، ويقال إنه قبر أبي رغال، ولايصح، فإن أبا رغال كان من ثقيف، بعثه أهل الطائف دليلاً على الكعبة لأبرهة ملك الحبشة حين أراد هدمها، فلما نزل بالمغمّس مات أبو رغال فرجم قبره إلى اليوم، والمغمّس على يمين المصلي بعرفة وليس منها بعيداً، وقد سألت بعرفة شيخاً من أهل البلاد خبيراً عن حدود عرفة ومسجدها فدلني على موضع المسجد وذكر جهات عرفة حتى ذكر المغمس فقلت له: أين هو؟ فأشار إلى ناحية اليمين وأنت مستقبل القبلة. وقد وهم فيه أبو القاسم السهيلي رحمه الله فذكر أنه من مكة على ثلثي فرسخ وذلك لايصح، وليس المغمس من الحرم، ولاوصل أصحاب الفيل إلى الحرم بل المرويُّ خلاف ذلك، وهو أنهم لما نزلوا بالمغمس برك الفيل، فكانوا إذا وجهوه إلى ناحية الشام وَلّىَّ يهرول، وإذا ردّوه إلى الْيَمَن فعل ذالك، وإذا وجهوه إلى الحرم برك ولم يبرح، وإن صح الحديث الذي ذكره السهيلي وهو أنه صلى الله عليه وسلم إذا أراد قضاء حاجة وهو بمكة خرج إلى المغمس على ثلثي فرسخ فقال (؟): إنه يخرج إلى ناحية المغمس لأنه يصل إليه، ولعل التقييد بثلثي فرسخ إنما كان لمسافة المذهب لالمسافة المغمس، ولايصح غيره إلا أن يكون بالحرم موضع آخر يقال له المغمس غير الذي انتهى إليه أبرهة ومات به أبو رغال وماأظن ذلك كائناً والله الموفق.هـ قلت: انظر قوله: لم يصل أصحاب الفيل إلى الحرم الخ مع ماورد أنهم وصلوا بطن مُحَسِّر، وبه نزل عليهم العذاب، المشار إليه بقوله تعالى «ألمْ تر كيف فعل ربُّك بأصحاب الفيل» الخ السورة حسبما للمفسرين وفي ابن حجر الهيثمي على «الهمزية» أن أصحاب الفيل لم يدخلوا الحرم على الأصحّ، وإنما برك بهم الفيل في المغمّس، وقيل: دخلوه، وإنما برك لما وصل وادي محسِّر، ولذا سمي بذلك، لأن فيلهم حسر أى أعيا بِهِ هـ. واقتصر الحافظ ابن كثير في تاريخه على أن فيلهم برك بالمغمس، فتحصل الخلاف في المسألة.

كَــدَاء ــ كُدَى

ثم قال: تنبيه: غالب الناس يخالف السنة اليوم في دخول مكة، فيدخلونها من باب الشُّبيكة، من أسفلها وهو كُدَى ــ بالضم على الأشهر عند الفقهاء وصوب العبدريُّ أنه بالفتح، والذي بأعلاها بالضم ــ وقد أبدى الفقهاء لما

شهروا حكمة، وهو أن يدخل من أعلاها وهو كَدَاء ــ بالفتح والمدّ ــ تفاؤلاً أن يفتح الله على الداخل في سائر مايطلبه من مولاه في حرمه، ويخرج من كُدَى ــ بالضم والقصر ــ تفاؤلاً أن يضم الله تعالى شمله بأهله، ثم مايخلو ماللعبدري أيضاً من حكمةٍ وفي كَدَاء يقول حسّانُ:

عدمنا خيلنا إن لم تروها ... تثير النقع، موعدها كداء

وفي «البخاري» وغيره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر خالد بن الوليد يوم الفتح يدخل من أعلى مكة من كداء بالفتح، ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم من كُدىً ــ بالضم ــ من أسفلها كأنه جمع كُدْيةٍ، ولاشاهد فيه لما عليه الجادة اليوم من الدخول من أسفل، لأنه لم يأت محرماً وقصده صلى الله عليه وسلم التحليق على مكة وأهلها، فكأنه ضرب عليهم دائرة، وأما حين جاء في حجة الوداع، قاصداً النسك فقد دخل ــ كما قررنا ــ من أعلى وخرج من أسفل. وفيه يقول الشاعر:

أقفرت من عبد شمس كدىّ ... فكداء فالركن فالبطحاء[1]

ومدار الأمر على الدخول من أعلى والخروج من أسفل إحياء للسنة النبوية فقد ورد في تفضيل المعلاة على المسفلة خبر أورده الفاكهي وغيره ممن أرَّخ مكة، وقد اقتفيتها ــ والحمد لله وحده ــ فانعزلت عن صحبي، ويمّمْتُ كداء وهي الشنية العليا، وقد بالغ الولاة في تسويتها وتنقيتها من الأحجار حَتى صارت كأحد الأزقة، ومع ذلك ففيها بعض صعوبة، ومنها أشرفت على مقبرة مكة وهي الحجون، ويقال لها المعلاة كما في «القاموس» ثم تحدث بإيجاز عن هذه المقبرة وأورد في فضلها حديثاً لايصح عند المحققين من العلماء، ثم وصف مااعتراه من فرط السرور حتى نسي التلبية، واشتغل بالدعاء والتهليل والتكبير.

وقال بعد ذلك: (ينبغي أن اثبت هاهنا قصيدة سيدي عبد المجيد بن علي

---

(١) صواب هذا البيت وهو لعبد الله بن قيس الرُّقَيّات:

اقفرت بَعْدَ عبد شمس كَداء ... فكُديٌّ فالركن فالبطحاء

المنايي الزبادي الفاسي وهي مشتملة على مراحل الحجاز من مصر إلى مكة ثم طيبة وذكر المناسك على سبيل الإيجاز، وبيان الآثار والمشاهد، وغير ذلك من الفوائد، يحق لها أن تسمى «إتحاف المسكين الناسك في بيان المراحل والمناسك» وهي تغني عن إفراد المناسك بفصل، مع مزيد من بعض آداب الزيادة وهي في ذلك القول الفصل، وهي هذه:

في (بركة) بركت بنا الأكوار   لما رمتنا للفلا الأمصار

ــ ثم أوردها في ١٣٠ بيتاً [1] وأعقبها بذكر المسجد والطواف والسعي إلى غير ذلك مما سنسير فيه سَيْراً سريعاً بعد أن أطلنا الوقوف والنقل فيما تقدم من وصف مراحل السير، ومنازل الطريق ومناهله إذ تلك بحاجة إلى الدراسة لقلة مايتعلق بوصفها وتحديدها من المؤلفات، بخلاف مايتصل بمكة ــ شرفها الله ــ.

(١) ص ٢٤٣/٢٣٨

في مكة المكرمة

يطغى الحافز الدينيُّ ــ وهذا أمر طبعيّ ــ في أغلب رحلات العلماء إلى مكة، وهذا هو الحال عند رحالتنا ابن عبد السلام فهو يذكر دخوله مكة أشرف البلاد، ومسقط رأس أشرف العباد، بفرحة تطير منها القلوب، فانجلى ماكان خيّم بها من الأحزان والكروب، ويذكر طرفاً من فضائل هذا البلد، والكعبة المطهرة، ويورد من شعره قوله:

بلد نحوه يَحِنُّ الرسول	وبه علقت قديماً عقول
لو رآى من سناه غيلان مَيٍّ	بارقاً لم تشقه تلك الطلول
أسفي إن منعت سكنى حماه	وعداني عنه الزمان المطول

ــ في أبيات أخرى ومقطوعة أخرى له مقاطع أخرى لغيره ــ تتعلق بالكعبة وبالحجر الأسود[1] ثم الطواف ومابعده من العبادات من صلاة وسعي، ويذكر أنه نزل بزاوية السمّان على باب دار الندوة المزيدة في المسجد، ويدعى باب الزيادة في زمنه، ثم يذكر حضوره ضحوة السابع من ذي الحجة خطبة المناسك بالمسجد الحرام، ويصف الخطيب بأنه حنفيٌّ (وله ببعض أبْعاض جُزْئيّاتِ العلم إلمام)[2].

الخروج إلى منى

ثم يصف خروجه في اليوم الثامن إلى منى، وأنه لم يستطع المبيت بها لأنه لم يجد بها أمْناً (ومنذ أزمان من عادة الركب الشامي والمصري) وقال: (هذه السنة ــ أعني المبيت بمنى هذه الليلة ــ قد أميتت منذ أزمان، وقد ذكر كثير من

---

(١) ص: ٢٤٣ / ٢٤٧

(٢) ص: ٢٤٧/٢٤٩.

المرتحلين كابن رُشَيْدٍ والعبدري ومن بعدهما ذكروا أن الخوف يمنع من المبيت هناك، بعد ذهاب الأركاب، ولايبيت بها اليوم، ولايحيي هذه السنة إلا المغاربة إنْ كانوا أقوياء على الدفع على أنفسهم، وإلا اقتفوا أثر غيرهم).

في عرفات

ثم يذكر مسيره إلى عرفة وعدم تمكنه من سماع الخطيب في مسجد نَمِرَة، وأنه لم يصل خلفه لأنه حنفي يتم الصلاتين والمؤلف ومن معه من المغاربة جمعوا بين الظهرين، ويصف سوق عرفة بأنه أرخص سعْراً من غيره في بلاد الحجاز، ويصف موقفه ومن معه راكبين أسفل موقف النبى صلى الله عليه وسلم عند الصخرات، وهو موقف الإمام اليوم، وأن الإمام شرع في التذكير، وهو حنفي طاعن في السن تُرْجى له البركة، فيقول: (ثم يممنا الموقف فوقفنا راكبين أسفل موقف النبى صلى الله عليه وسلم عند الصخرات وهو موقف لإمام اليوم، فشرع في التذكير وهو حنفي طاعن في السنّ ترجى له البركة، وجعل يخلله بالتلبية فكلما أراد أن يلبي أشار بطرف ثوبه إلى الناس ليلبُّوا فانقلبت بدعة فصار غالب من في الموسم يشير عند التلبية بطرف ثوبه أو ردائه، وربما اعتقد العامة أن الإشارة في ذلك بالثوب من السنة ومايدري أنها بدعة والناس عنها في سعة)[1].

ثم يصف الموقف والدفع إلى المزدلفة والمبيت والسير إلى منى ورمي الجمرات والحلق والذبح والإفاضة ولايفوتهُ أن يذكر أنه اعتراه بمكة ــ بعد الإفاضة ــ مرض من انتفاخ رأسه وهياج الصفراء والحمى، فما عوفي إلا بعد أيام[2].

---

(١) ص ٢٤٩.

(٢) ص ٢٤٩ ــ ٢٥١

من أخبار مكة ووصفها

ثم يورد فصلاً بعنوان (خاتمة تشتمل على المحتاج إليه من أخبار مكة والبيت والمسجد وماحواه، ومافي داخلها أوفي خارجها من المشاهد، وذكر من اجتمعنا به على سبيل الاختصار) فيورد أسماء مكة ووصفها وحدودها، و ينقل عن «شفاء الغرام» للفاسي و«الإعلام» للقطبي وغيرهما نصوصاً كثيرة فيقول في صفة مكة: وهي مدينة لايراها القاصد إليها حتى يشرف عليها، مستطلية كبيرة، ذات شعاب مستطلية لها مبتدأ ونهاية، فمبدأها المعلاة ومنتاها من جانب جدة الشبيكة، ومن جانب اليمن قرب مولد سيدنا(...) رضي الله عنه، وعرضها من وجه جبل يقال له جِزَلٌّ ــ بكسر الجيم وفتح الزاي وتشديد اللام ــ سمي بذلك لأن طائفة من الحبوش[١]، يقيمون به و يسمون بهذا الاسم، يلعبون فيه بالطبل ــ و ينتهي عرضها إلى أكثر من نصف جبل أبي قُبيس تسع من الخلائق خصوصاً أيام الموسم مالا يحصيهم إلا الله، في بطن واد مقدّس، والجبال محدقة بها كالسور لها، ولها في القـ... في شرقيها يعرف بباب المعلاة لأنه من أعلاها، وهو لناحية الشرق، وسور في جهة الغرب يعرف بسور باب شبيكة وسور في جهة اليمن وهو الجنوب و يعرف بسور باب اليمن ولم (يبق لها[٢]) سور، أينما جئتها تدخلها من الجهات الثلاث، ثم لايمكن السلوك إليها من الجبال إلا منها[٣] ويقول عن المياه: وبها آبار كثيرة غالبها مسبّل، وبِرَكٌ مسبّلة، منها المعروفة بالشامي والمصري وهما في الغاية من الكبر والإتقان، وحمامات، وعين جارية عذبة، أجرتها إليها من عرفة في قنوات متقنة زبيدة زوجة الرشيد[٤] ثم تعطلت منذ أزمان، فكانت تتضرر في الموسم من قلة الماء، ثم أصلحها الأمير سرور في وقتنا هذا فكثر الماء بها، جزاه الله خيراً، ومع ذلك فلا بدّ وخصوصاً في أيام

---

(١) في الأصل (الجيوش).

(٢) كلمة غير واضحة ولعل ماوضع هنا بمعناها.

(٣) ص: ٢٥١/٢٥٢.

(٤) زبيدة أجرت عينها إلى مكة من حُنَيْن (الشرائع) أما العين التي أجرتها من فوق عرفة فقد أوصلتها الى منى، وبعده بيسير حيث وقف العمل لصلابة الصخر، ولم تجر إلى مكة إلى بعد عهد زبيدة بقرون.

المـوسـم من شراء الماء حتى للشرب وللوضوء والطعام وغيرها إلا في مواضع قليلة لمن يعرفها[١] ــ.

إمـــارة مكـة

ثم تحدث عن إمارة مكة في عهده فقال:

وعـمـالتهـا اليوم من خارج جدة والطائف ومر الظهران، وماكان بالقرب منها هو الذى في إيالة أميرها وقد كانت إيالتها من قبل أوسع من هذا.

وأعـراب الحـجـاز الـيوم غالبهم لاتنالهم الأحكام الشرعية من ناحية مس ولي الحـرمين وأمير مـكـة وهـو الحـاكـم غـالـباً على أهل المدينة المنورة وفي سنتنا هذه وقـعـت نَائِرَة بينه وبينهم حتى توجه إليهم في جيش فحاربهم وأخلى قلعة المدينة، ووقـع فيهـا نهـب وهـتـك، ومع ذلك لم ينقادوا له ولاأقاموا له وزناً، وحجّة الأمير عـليهـم أنهـم يـتـحـزبون عليه بمن والاهم من الأعراب فنكثوا بيعته بعد أن دخلوا فيهـا، ثم إنَّ الله تـعـالـى نـدب السلطان عبد الحميد العثماني فأخمد الفتنة بينهم، وبـعـث ابـن أمير الركب الشامي حاكماً على المدينة، فعند ذلك: تخلى عنها أمير مكة [٢]!

حكم بيع دورها والمجاورة فيها

ذكـر اخـتـلاف الـعلماء في بيع دور مكة وإجارتها، ثم ذكر حدود الحرم من نحـو المـديـنـة أربـعـة أميال أو خمسة للتنعيم ومن العراق ثمانية للمقطع ومن عرفة تـسـعـة ومـن جدة لآخر الحديبية، ومن علامته أنه يقف سيل الحرم دونه، ثم نقد هـذا الأخير ثم ذكـر أنـصـاب الحرم وأول من وضعها ثم أحاديث في فضل مكة، وتعرض للتفضيل بينها وبين المدينة، وأشار إلى اختلاف العلماء في ذلك[٣].

---

(١) ص ٢٥٣.
(٢) ص : ٢٥٣
(٣) ص : ٢٥٣ / ٢٥٦.

و يتعرض للمجاورة بمكة وأن بعض العلماء كرهها و يورد (كان عمر رضي الله عنه) يدور على الحاج بعد قضاء النسك و يقول: ياأهل اليمن يمنكم، و ياأهل الشام شامكم، و ياأهل العراق عراقكم، فإنه أبقى لحرمة حرم ربكم في قلوبكم.

وقال بعض السلف: كم من رجل بخراسان وهو أقرب إلى هذا البيت ممن يطوف به كما قيل:

وكم من بعيد الدار نال مراده   وكم من قريب الدار مات كئيبا

عمارة المسجد الحرام

و ينتقل إلى الحديث عن المسجد الحرام وعمارته في العصور المختلفة نقلها عن الأزرقي والقطبي و ينقل في كلامه على المسعى: (ومما يناسب ماذكر من التعدي على المسعى ماوقع في دولة الجراكسة في سلطنة الملك الأشرف قايتباي المحمودي ــ سامحه الله ــ وملخصه أن تاجراً أرسله قايتباى إلى مكة اسمه محمد بن عمر بن الزمن الخواجا يتعاطى له تجارة، و يعمر له مدرسة وجانباً من الحرم والحجر وجوف الكعبة، فكان من جوره وحبه للجاه أن كان بين الميلين ميضأة أمر بعملها السلطان الملك الأشرف شعبان بن الناصر حسن بن قلاوون، وكانت في مقابلة باب علي، يحدها من الشرق بيوت الناس ومن الغرب المسعى الشريف ومن الجنوب سيل وادي إبراهيم الذي يقال له الآن رباط يسكنه الفقراء، ومن الشمال دار سيدنا العباس رضي الله عنه الذي هو الآن رباط يسكنه الفقراء، ومن الشمال دار سيدنا العباس رضي الله عنه الذى هو الآن رباط يسكنه الفقراء، فهدم الخواجا الميضأة المذكورة، وهدم من جانب المسعى مقدار ثلاثة أذرع وحفر أمامه ليبني بها رباطاً يسكنه الفقراء فمنعه من ذلك قاضي القضاة [1] بمكة برهان الدين إبراهيم بن على بن ظَهيرة فلم يمتنع من ذلك فجمع القاضي جماعة وافرة من علماء المذاهب الأربعة وأنكروا ذلك وقالوا للظالم

(١) كلمة (قاضي القضاة) من الكلمات المنهي شرعاً من إطلاقها على مخلوق.

في وجهه: إن عرض المسعى كان خمسة وثلاثين ذراعاً، وأحضروا النقل من تاريخ الفاكهي وذرعوا من ركن المسجد إلى المحل الذي وضع فيه الظالم المذكور بينانه فكان سبعة وعشرين ذراعاً، ومع ذلك لم ينته، فكتب من بمكة من العلماء خطوطهم بمنعه، ووجهوها إلى السلطان قايتباى، وكان للجراكسة تعصب فيمن يلوذ بهم، ولو كان على باطل، فلما وصل ذلك انتصر لخادمه فكتب له بمضي على عمله، فبناه رباطاً وبنى في جانبه داراً وحفر لميضاة وجعل في جانبها مطبخاً فيه مايفرق على الفقراء ووقف على ذلك دوراً بمكة ومزارع بمصر، واستمر ذلك مدة إلى أن انقطع حتى بيعت الدور والديار (؟) وقايتباي وخادمه من أحسن الجراكسة عقلاً وديناً ومع ذلك صدر منهم هذا الفعل المحرم الذي قام الإجماع على تحريمه [١].

وبعد أن فَصَّل الحديث عن المسجد الحرام ومافيه ومال من أبواب وذكر مساحته قال: (ومن المؤكد التعرض لوصف البيت والمقام وزمزم وقبة الشراب، ومقامات الائمة الأربعة وباب بني شيبة) ثم يورد آثاراً وأحاديث عن بناء البيت وعن الحجر الأسود، ويفصل المرات التي بني فيها البيت، وآخرها سنة أربعين وألف. وينقل العمارة الأخيرة عن (بعض التقاليد المنسوبة للأسدي)[٢].

وصف الكعبة

ويتبع ذلك بذكر مساحة الكعبة: (طولها من الركن اليماني إلى الحجر ــ بكسر الحاء ــ نحو عشرين ذراعاً، وعرضها من اليماني إلى الحجر الأسود نحو خمسة وعشرين ذراعاً، وهي طويلة مرتفعة جداً إلى السماء، وتكاد أن تكون صومعة متوسطة، بل ربما كانت أطول من مئذنات المشارقة خصوصاً الحرمين عكس مآذن المغاربة فهي في الغاية من الطول، وقد ذكروا أن ارتفاعها في السماء ثلاثون ذراعاً، وقيل سبعة وعشرين ذراعاً وربع ذراع وعرض جدارها ذراعان وعرض الباب أربعة أذرع، وارتفاع الباب وطوله في السماء، ستة أذرع وعشرة أصابع، وهي كلها مبنية بالحجارة المنحوتة السوداء، تميل إلى الزرقة،

(١) ص : ٢٥٦ / ٢٦٠.

(٢) ص : ٢٦٤

وعبارة العبدري: ولون بنائها إلى الحمرة مع دكنة يسيرة، وأرضها من داخل كالمطاف كلها مرخمة برخام ملون وكذا جدرانها، والحجر ـ بكسر الحاء ـ كذلك.

وقال في الرحلة الكبرى:

وصفتها من داخلها حسبما شاهدت ذلك لما دخلت ليلاً في جماعة من الفضلاء بعد جهد جهيد وإعطاء ماتيسّر من الدراهم أنها بيت قريب من التربيع نقص من الركن الذي عن يمين الداخل مقدار السُّلم نحو ثلاثة أذرع، يصعد منه إلى السطح، وعدد درجها ثمان وثلاثون درجة، ولهذا السلم باب صغير لايظهر للداخل إلا إن فتح الباب، وأرضها مفروشة بالرخام الملوّن، وقد كسي منها السقف والحيطان بكسوة مخالفة للخارجة في اللون، فإن الخارجة سوداء كلها والداخلة بياض في حمرة، وفيها مصابيح معلقة بعضها ذهب وبعضها بلا رصافي ملون زَوَرْ ديّ(؟) ولها ثلاثة أعمدة من خشب مصطفة في وسطهامابين جهة الحجر ومقابلها من جهة اليمين هو طولها، وكلّ من الأعمدة الثلاثة قد سُمِّر عليه ألواح من حديد من أسفله مقدار وقفة، يحكى أن الأعمدة من العود الهندي، ولم أره في تاريخ معتمد.

ويقابلك وأنت داخل علامة في الجدار جعلت دليلاً على الباب القديم، وبينها وبين الركن اليماني المستجار، وهو معدود من الأماكن التي يستجاب فيها الدعاء كالملتزم وهو يقابله من الجهة الشرقية عند زلاج الباب مما يلي ركن الحجر الأسود من داخل نحو صندوقة صغيرة يجعل السادن فيها المفتاح إن دخل من فضة، يريها الناس للتبرك ويأخذ على ذلك عطاء شاهدت ذلك، والخشب الذي عليها اللوح ذاهب من ناحية الباب إلى الجهة المقابلة له، أحدهما رأسه على حد السلم وهو أقرب الجدار إليها وليس بينه وبينه إلا مقدار مايُصَلّى فيه، والثاني بينه وبين الباب، والثالث عند الباب ولها سقفان أحدهما فوق الآخر، وبينهما درجة، وفوق السقف طاقات أربع للضوء نافذة إلى أسفلها، وسقفها الأعلى مما يلي السماء مرخم برخام أبيض، وبابها من ظاهر مصفح بصفائح من فضة مموهة بالذهب، وعتبتها العُلْيا مطلية بالفضة، وإن وقف المتوسط من الناس في المطاف

تحت الباب ومَدّ يده جداً ربما وصلت العتبة السفلى، وميزابها من عود وعليه صفائح الذهب وهو يصب في الحجر ــ بكسر الحاء ــ وفي وضعها ــ قال العبدري ــ يسير نُتُوْءٍ يتبين للمتأمل. قلت: ولم أرَ الآن شيئاً من ذلك وإنما المطاف الدائر بها معه انخفاض عن باقي الصحن ولعله غير بعد زمان العبدري ــ والله أعلم ــ وقد أسأنا الأدب فأمعنا النظر والقصد الوقوف على الحقيقة إذ لادليل أقوى من المشاهدة.

وذكر كسوة الكعبة، ووصف الحِجْر والحَجَرَ الأسود، وحاول أن يعرف الحُفرة التي بين الباب وبين الحِجْرَ: (سألت عنها بعض علماء مكة ممن لقيته بها فلم يشف لي غليلاً بذلك) وأورد من كتاب «الخميس» لحسين بن محمد بن الحسين ومن تاريخ الفاسي حولها نقولاً يعقبها تساؤلات، وقال عن عرض الحِجْر: (نحو ثلاثة الأذرع وتدويره من داخله ثمان وثلاثون ذراعاً حسبما حررت ذلك).

ثم يصف مايحدث عن دخول الكعبة من الفوضى فيقول:

وأعلم أن البيت في غير أيام الموسم إن أريد دخوله ينصب له سُلّمٌ، وفي أيامي رأيتها فتحت مراراً ولا أراهم من الازدحام نصبوا سلماً، وإنما يتكلف الأول (؟) الصعود على ظهر غيره فيمدّ يده لمن تحته، وتراهم يتزاحمون ويتحينون أوقات فراغ المسجد كجوف الليل، ومع ذلك لايخلو عن زحمة وقلة احترام، فترى الرجال يتساقطون ويتقاتلون على ذلك، وربما سالت الدماء، وربما اختلط النساء بالرجال حتى يتساقط الذكر على الانثى والأنثى على الذكر ويلتفت بعضهم لبعض وأعظم من ذلك مايقع عند الركنين اليمانيين فقلما يتمكن أحد كل التمكن منهما، وأفضى بهم إلى البدعة الشنيعة،فيقطعون الأوقات بلثمهما ولمسهما خصوصاً الأسود حتى إنْ خلا تشمُّ منه بعض العفونات من الأيدي والأفواه، وقد وقع مثل هذا في زمن العبدري وزاد: قد أسقطوا بجهلهم وجفائهم حُرمته [1].

---

(١) ص : ٢٦٧.

نظافة الحرم:

ويَعْجَبُ بالنظافة في الحرم فبعد أن يورد قول العبدري: منهم من لم يُبال بالبصاق وقتل القمل في المسجد وإلقاء الوسخ في داخله. قال: وقد دخلت مسجد دار الندوة فوجدته ملآناً من الأوساخ والقمامات. ووجدت فيه أناساً يشتغلون بأعمالهم من سائر الصناعات. يعقب على هذا بقوله: قلت: وماذكره من البصاق والقمل، وفي دار الندورةلم نَرَ منه شيئاً، وكل ذلك اليوم في الغاية من النظافة خصوصاً المطاف ترى السّدَنَة من العبيد المعروفون بالأغوات يكنسون كل صبيحة مع ظهور الضوء، وهم في غاية السكينة والوقار والعفاف عن المسألة عكس الذين بالحجرة النبوية.

عن المقام وزمزم:

ثم يتحدث عن مقام إبراهيم بتوسع نقلاً عن الأزرقي وغيره ويصف بئر زمزم، ولكنه يستاء مما يشاهد داخل قبتها: (تراهم يغتسلون بمآزرهم، يعطي مريدُ الغسل للسقائين وهم واقفون على التنور وهم جماعة دواوِيْنَ فيصبون عليه دلْواً أو دلوين أو ماأراد على حسب عطائه حتى يشفي غليله وهم مع ذلك لايراعون لها حرمة، فيتشاجرون على الماء، ويأخذ أحدهم الدلو فيصبه على نفسه بثيابه حتى وقعوا في تلويث المكان الشريف، لاسيا وهي في وسط أفضل المساجد: فيجب تنزيه المسجد عن قاذوراتهم ولغطهم ورفع أصواتهم وخصوماتهم قال تعالى: «في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه» قال الحافظ ابن كثير في «تاريخه»: وذكر عن عبد المطلب أنه لما حفر زمزم قال: اللهم إني لاأحلها لمغتسل، وهي لشارب حِلّ وبلّ، وذلك أنه جعل لها موضعين: حوضاً للشرب، وحوضاً للوضوء فعند ذلك قال : لاأحلها لمغتسل، لينزه المسجد عن أن يغتسل فيه. وبلٌّ بلغة حِمْيَرَ مُبَاحٌ. قال العبدري: ويتقوّلون في ذلك أشياء مالها وجود مثل زيادة الماء في ليلة الجمعة، وهو أمر مشهور عندهم، وقد ذكر ابن جبير في «رحلته» أنه قاسه في ليلة الجمعة وهم يتقاتلون عليه وقت زيادته بزعمهم فوجده على حاله، وبوُدّي لو أتاح الله محتسباً يذيقهم النكال، فإن حرم الله تعالى أولى المواضع بالهيبة ولزوم السكينة.

الأبنية داخل المسجد:

ويذكر مابداخل المسجد من الأبنية: (وبإزاء قبة زمزم قبة الشراب وهي سقاية الحاج، ويسقى منها للناس في رمضان، ويجري إليها الماء في قناة تحت الأرض من قبة زمزم، وبإزائها بيت صغير هو مخزن الكعبة، وليس في المسجد أبنية سوى هذه قاله العبدري، ويعقب على ذلك بقوله: (قلت: وفيه في صحنه مقامات الأئمة الأربعة للصلاة، ولايقال حدثت بعد زمانه، لأنها حدثت في زمان الإمام ابن الحاجب وهو أقدم من العبدري وحجه إنما كان سنة ٧٧٨، ثم يصف تلك المقامات ويذكر سبب إحداثها: (لما تنازع أرباب المذاهب كل يروم الإختصاص بتوليته إمامة المسجد الحرام، فارتفعت فيها الفتاوى إليه ــ يقصد ابن الحاجب ــ بالإسكندرية، فأجاب بأن غاية مايقال فيها أنها بمنزلة تعدد المساجد، ولايقال على مذهب المالكية إن فيها إعادة الجماعة بعد الراتب إلى غير ذلك مما وقع التهويش[1] به والتشويش على الناس وقد رأيت بمكة تأليفاً في ذلك لبعض علماء العصر من المالكية).

ويذكر باب بني شيبة القديم، والأبواب الأخرى، وماحول المطاف وكيفية إنارة المسجد، ويتحدث عن الصفا والمروة ومما قال: (وأما المروة فبنيت أدراجاً وفوقها دكان كبير، والواقف بها لايستقبل القبلة، يبقى المسجد لصوب اليمين، وبإزائها الحلاقون، فليست بذاك في النظافة لمايقع عندها من اجتماع الناس للحلق بعد النسك، فيكثر الشعث، بل وربما وجدت النجاسة في المسعى، بل لاتكاد تفارقه من الآدمي وغيره.

تحديد المشاعر المقدسة:

ثم يورد فصلاً (في ذكر محال المناسك خارج مكة) يبدأه بوصف الطريق منها إلى عرفة وأنه: بين جبال في وادي، فإذا زايل الإنسان البيوت مرَّ بالحجون ومنه إلى المحصب، ومنه إلى الأبطح، ومنه ــ وجبل حراء عن يسارك بمرآى غير

---

(١) من مآثر حكومتنا الرشيدة إزالة بدعة تعدد الجماعة في المسجد الحرام.

بعيد ــ إلى منى، ومنها للمزدلفة، ومنها لعرفة، وعدد الأميال من مكة إلى عرفة اثنا عشر ميلاً لا تزيد ولا تنقص، قاله الأزرقي، وضبطه المشارقة أيضاً بست ساعات بالمشي بالهوينا. والمزدلفة أوسع وأوطأ من منى، والمشعر الحرام منها فيما يلي منى، وحدُّ المزدلفة مما يلي منى مُحَسّر، وهو واد صغير هنالك قدر رمية الحجر، قال الشيخ أبو سالم[1]: وهو أول ماتحاذي البركة الخربة التي على يسارك إن مررت بطريق الاركاب وأنت ذاهب إلى منى، وترتفع بك الأرض، وبهذا عَرَّفَهُ أعلم أهل عصره بالمناسك خليل المكي حسبما نقله عنه البلوي في رحلته إذْ سأله عن حَدّه).

وحدها ــ يعني المزدلفة ــ مما يلي عرفة ــ مأزما عرفة، وهما جبلان مكتنفان للطريق أفسح من مأزمي منى. قال ابن حريج: قلت لعطاء: ماحدّ المزدلفة؟ قال: من مأزمي عرفة إلى مُحَسّر، وليس المأزمان منها ولكن منتهاها فقف بأيها شئت. ومن محسّر إلى مسجد مزدلفة نحو الميل، ومن مسجد مزدلفة إلى مسجد عرفة(؟) أربعة أميال، وهو مسجد كبير على يمين الطريق وأنت ذاهب إلى الموقف، مستطيل من الشرق إلى الغرب، وفي غربه ويعرف بمسجد إبراهيم عليه السلام، وهو فى أصل عرفة(؟) وقل من يعرفه من الحجاج لأن الموقف وراءه بميل، وهو على وادي عرفة، والوادي هو بطن عرفة، ويقال إن حائطه القبلي على حدّه، ولو سقط ماوقع إلا فيه. قال العبدريُّ: وليس المسجد على حدّ الحرم، بل ذكر الأزرقي أن من حدّ الحرم ارلى مسجد عرفة ألف ذراع وستمائة ذراع وخمسة أذرع، ونمرة جبل على اليمين إذا خرجت من مأزمي عرفة، وعليه أنصاب، وتحت الجبل غارٌ ذكروا أن النبي (صلى الله عليه وسلم) نزله، وبين الغار(؟) والمسجد(؟) الفا ذراع وإحدى وعشرون ذراعاً قاله الأزرقي.

وحدود عرفة: البسيط الذي أحاطت به جبال الموقف، والذي منه يميناً ويساراً إلى التي فيها هذا المسجد والمأزمان من جهة مكة، وبطن عرفة. قلت: وقد اتفق لي ما اتفق للعبدري في رحلته، فقد سألت عنه عربياً من سكانها فأجاب بأن البطن هو هذا الوادي الذي عليه مسجد نمرة، وعرفه بلاد، وأشار

---

(۱) «العياشية» ۱ / ۱٦٥.

بيده إلى جهة اليمين، ونحن إذ ذاك مستقبلون جهة مكة. وفي العبدري التعبير باليسار، ولعله سأله وهما مستقبلان عرفة فلا تخالف ــ والله أعلم ــ زاد العبدري: وسألته عن العلمين المنصوبين على الطريق في وسط بسيط عرفة فقال لي: إنما بناهما الأمراء احتياطاً على الناس ألاَّ يتقدموا فيخرجوا من عرفة قبل غروب الشمس، فأوهموهم أن العلمين حدّ عرفة وهما في وسطها، حتى يكون من تعجل لايخرج من عرفة إلا بعد الغروب. ثم ذكر أن بعرفة عين ماء جارية عذبة. وقال: (وقد حدثت بدعة بها حسبما شاهدنا ذلك وهي أن الإمام وهو واقف بها يخطب ويخلل خطبته بالتلبية، فإذا وصل محلها لبّى بلسانه يسمعه من يليه ويشير لمن لم يسمعه بطرف ثوبه فاتخذها الناس سنة، فجعل كل من بالموقف يشير بثوبه ويلبي، فاعتقد العامة بذلك أن الإشارة بالثوب مزية يتقربون بها وماهي إلاَّ بدعة يجب إنكارها، ووصمة في الدين يجب إخمادها).

وقال: وأما منى ففيها مشاهد أعظمها: مسجد الخيف وهو تحت جبل ثبير، هكذا قال أبو سالم[1]، وفي القسطلاني في باب طواف النساء مع الرجال من البخاري مانصه: ثبير جبل عظيم بالمزدلفة على يسار الذاهب منها إلى منى وعلى يمين الذاهب من منى إلى عرفات وبمكة جملة جبال أخرى يقال لكل منها ثبير، كما ذكر ياقوت والبكرى هـ. وفيه أيضاً: في باب مَتى يدفع من المزدلفة ــ بعد ذكر ماتقدم ونسبته للإمام النووي مانصه: قال صاحب «نيل المرام في تاريخ البلد الحرام»: وهذا غير مستقيم لأنه يقتضي أن ثبيراً المذكور في صفة الحج بالمزدلفة لابمنى على ماذكر المحبّ الطبريّ. قال المجد الشيرازي في كتاب «الوصل والمُنى في بيان فضل منى»: قول النووى مخالف لإجماع ائمة اللغة والتواريخ.هـ. وفي كتاب «الإعلام» خلافه وهو: ثبير عن يسار الذاهب إلى عرفات وهو أعرف لأنه من سكان الحرم، وأهل مكة أعرف بشعابها).

(١) نص كلام أبي سالم: وكان نزولنا وراء المسجد قرب الغار الذي نزلت فيه سورة المرسلات على النبي (صلى الله عليه وسلم) وخبره مذكور في الصحيح، وقد بني على بابه محوط شبه مسجد صغير، والناس يقصدونه للصلاة والدعاء وهو في أصل جبل ثبير، بينه وبين مسجد الخيف رمية بحجر (العياشية ١٩٨/١).

مسجد الخيف

ويصف مسجد الخيف: (لم يسقف منه إلا أربعة صفوف لناحية الكعبة، وباقيه صحن كبير، وفيه قبة لها أبواب وهي محل فسطاطه (صلى الله عليه وسلم) وكل ثمن منها أربعة وعشرون قدماً.

وفي «الرحلة الناصرية» أنها موضع خباء علي بن أبي طالب. قال الشيخ أبو سالم: يسمى مسجد علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) قيل إنه أول من بناه، وهو موضع نزول النبي (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه في حجة الوداع، وطوله من المحراب إلى الباب الذي يقابله أربعمائة، وعرضه ثلاثمائة وأربعون. هـ. وهذا المسجد اليوم قد تخرب بعض جداره الشرقي، وامتهنه أكثر الركاب(؟) بنشر اللحوم وإراقة الدماء، حسبما شاهدنا ذلك، ترى الرجل يعمد إلى إبل أو غنم مذبوحة فيأتي باللحوم فيملحها وينشرها فيه من غير نكير، والذباب يجتمع عليها، بل ربما رميت فيه العذرة وأنواع الكناسات والأقذار والرؤوس بدمائها حتى حصلت النتونة الفاحشة في المسجد، ولم يقتصروا على ذلك بل أفضى بهم قلة التحفظ وكثرة التهاون إلى إيقاد النار فيه للطبخ والشيِّ ونحو ذلك حتى اسودت جدرانه ... والبناء الموجود فيه اليوم وفي مسجد نمرة من عمل قايتباى.

الآثار في منى

ويذكر مااعتاد الحجاج زيارته في منى من الأمكنة، ولايُعنى بالتثبت والتحقيق في صحتها من الناحية التاريخية فيتحدث عن (غار المرسلات) و(مسجد النحر) و(مسجد الكبش) و(مسجد الحلق) بجنب جمرة العقبة يقابل حوانيت الحلاقين، ويوصي بالتفطن لفعلهم فإنهم لايستوعبون الرأس بالحلق بل ربما اقتصروا على بعضه قائلين: يكفيك هذا وقصدهم استكثار الأجرة، ويذكر (مسجد البيعة) محدّداً مواضع تلك المساجد، وليس محقّقاً فكثير مما ذكر لاأصل له.

الآثار في مكة:

ثم يورد فصلاً (في ذكر أماكن تقصد بمكة وخارجها للزيارة والتبرك) ونحن نحاول عرض الكتاب لااستحساناً لكل ماجاء فيه، ولكن لنوضح للقارىء محتوياته توضيحاً لانقصد من ورائه إلا أن يكون مطابقاً للواقع، وقائماً على أساس من الأمانة العلمية في عرض أقوال المؤلف وآرائه بطريقة موجزة، ونحاول عبثاً إذا أردنا من عالم عاش في بيئة صوفية وفي عهد جمود فكري أن يكون على درجة من صفاء العقيدة ومن صدق النظر تلائم عصرنا الذي نعيش فيه.

فمن المواضع التي ذكرها ــ ١ ــ الحَجَر الذي في زقاق الحجر ــ ٢ ــ دار أبي بكر الصديق ــ ٣ ــ منزل خديجة ــ ٤ ــ البيت الذي ولد فيه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وقد نقل عن أبي سالم قوله: قد علم من كتب السِّير ماوقع من الاختلاف في مولده (صلى الله عليه وسلم) هل هو بمكة أو بالأبواء، وعلى الأول بالشعب أو بالمحصب، ولاأدري من أين (أخذ) الناس تعيين هذا المحل بالخصوص ثم أطال القول في استبعاد ذلك كمولد عليّ وغيره ــ ٥ ــ دار الأرقم ــ ٦ ــ مسجد الجن قال: ويقال له مسجد البيعة وموضع الخطّ ــ ٧ ــ مسجد بأعلى مكة عند بئر جبير بن مطعم ــ ٨ ــ مسجد الشجرة، يقابل مسجد الجن ــ ٩ ــ مسجد عبد الصمد بن علي عند سوق الغنم ــ ١٠ ــ مسجد ينسب لأبي بكر الصديق (رضي الله عنه) بأسفل مكة يسمى دار الهجرة ــ ١١ ــ مسجد المتّكأ ــ ١٢ ــ المُدّعَى وقال عنه: ويقال المودع وهو في زقاق يبقى عن يسارك وأنت مستقبل القبلة، والأسطوانة جعلت علماً على موضع وقوفه (صلى الله عليه وسلم) لما قدم مكة ورأى البيت وقف داعياً فقيل المَدّعَى، وقيل: به ودع النبي (صلى الله عليه وسلم) أهل مكة في حجة الوداع ــ ١٣ ــ مشهد عبد القادر الجيلاني، وهو رباط يجتمع به من ينسب إليه ــ ١٤ ــ معبد الجنيد وإبراهيم بن أدهم ــ ١٥ ــ مقبرة الحجون وقال عنها:

ومن أعظم مايزار الحجون، وهو الآن مقبرتان بينهما الطريق الجادّة النازلة من كداء ــ بالفتح ــ وبه قبر أم المؤمنين، خديجة (رضي الله عنها) ومعها أولادها الذكور في قبة، وفيه قبر عبد الله بن الزبير وأمه أسماء بنت أبي بكر (رضي الله

عنه) وأخوها عبد الرحمن، وبه ــ على ماقيل ــ قبر آمنة والدة النبي (صلى الله عليه وسلم) وقيل: قبرت بالأبواء، وبه من العلماء والصالحين مالا يكاد يحصره العدّ، فنهم أبو طالب مكي (؟) وأبو السعود والنسفي صاحب العقائد، والحطاب شارح مختصر خليل ، وسيدي عمر الأعرابي، وبه قباب الشرفاء العلويين الأمراء بمكة.

ــ ١٦ ــ قبر عباس بن مرداس وعباس بن عبد الله بن عباس، قال عنها: بداخل البيوت في قبة صغيرة ولم يحدد موضعها ــ ١٧ ــ جبل أبي قبيس وذكر أنه صعده وقال إن فيه مغارة يقال أنها قبر آدم، وبه مسجد يقال له مسجد إبراهيم ليس بالخليل عليه السلام وبأعلى الجبل دهليز به عظام الرؤوس يحكى بل تواتر عند أهل مكة أن من أكل رأساً مشوياً فيه)[١].

ــ ١٨ ــ قبة على الجبل الذي على يسار الذاهب إلى الشبيكة يقال أن فيه مولد عمر رضي الله عنه ــ ١٩ ــ غار حراء قال: واشتهر عند العامة من أهل مكة وغيرهم بجبل النور، وهو جبل عن يسارك وأنت ذاهب من مكة إلى منى بمرأى من العين، على ثلاثة أميال من مكة، وهو جبل شامخ وبأعلاه قبة ظاهرة، قيل: بنيت على موضع تحنّثه (صلى الله عليه وسلم) ترى من المسجد الحرام، وبه بدا نزول الوحي وبه نزل على النبي (صلى الله عليه وسلم) إقرأ، ثم المزمّل والمدثّر، والغار في أعلاه وبإزائه صهريج ماء يجتمع أيام المطر، سايغ عذب شرابه ــ ثم أورد من كلام السهيلي وغيره طرفاً مما ورد في هذا الجبل، وذكر أنه لم يستطع الوصول إليه ــ ٢٠ ــ مسجد الجعرانة حيث أحرم النبي (صلى الله عليه وسلم) بعمرة، وقال: وهذا الموضع قد هجر اليوم الإحرام للعمرة منه، ويعبّر عنه بعض العامة بالعمرة القديمة، وجُلُّ الناس لايعرف أنه ميقات العمرة، بل ربما جهّلوا من طلب الإحرام منه ــ ٢١ ــ مساجد عائشة بالتنعيم ونقل عن كتاب «الإعلام» لقطب الدين الحنفي قوله[٢]: وهذا المسجد فوق

(١) كلام غير واضح، وفي إحدى الرحلات (أمن من الصداع).

(٢) «الإعلام» ص ٣٢٣ ــ هامش «خلاصة الكلام» والمؤلف اختصر كلام قطب الدين، وتصرف فيه.

التنعيم، على يمين المستقبل وقد تهدم، ومابقي منه إلا آثار جدران قائمة وكان المكان الذي أرسل إليه النبي (صلى الله عليه وسلم) عائشة مع أخيها عبد الرحمن لتعتمر منه، ولايصل المعتمرون إليه، بل يقتصرون على أجبال الحرم، ومسجد عائشة يتعين تجديده لأنه من الآثار المباركة، وقد تركه الناس لِتَهَدُّمِهِ، واقتصروا على مساجد مرضومة بالأحجار بمحاريب، وهناك صهريج يمتلىء من المطر من قديم، ثم جعلت الآن بئر يمتلىء منها ــ ٢٢ ــ الطائف خارج مكة، وبه مشاهد منها: ضريح سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنه ــ ٢٣ ــ جدّة مرسى على البحر القلزمي ورد في فضلها آثار، وبها قبر أمنا حوّاء على ماشتهر من الأقوال ــ ٢٤ ــ مسجد بذي طوى كان عليه السلام ينزل هناك تحت سمرة في موضع المسجد، وبنته زبيدة.

العلماء بمكة:

ثم ختم كلامه عن مكة بذكر من لقيه من الفضلاء، وما رآه فيها من الكتب النادرة فقال: فصل في ذكر من لقيته بمكة من الفضلاء وأخذت عنه من النبلاء أعلم وفقنا الله تعالى وإياك أن مكة اليوم ليس بها من يُرجع إليه في المعضلات، ولامن يصلح للتمثيل بين يديه، وقديم في زمن المحبّ الطبري قال العبدري: ضعف العلم في هذه البلاد لضعف العيش بها، والناس مع الدنيا وصاحبها.

وأما المالكية فلم أرَ بها بعد البحث إلا المجاورين منهم، وأولاهم بالتقديم الشيخ أبو زيد ــ المذكور قبله[1] ــ وله مماسّة بالعربية واللغة والقراءة وغيرها، أوقفني على حواشي على «القاموس» في نحوست كراريس، ومحصلها التشنيع عليه في الرد على الجوهري، وتكلم معه المحشي في نحو ثلاثمائة مسألة، وغالبها نقل من أصله، وقد وهبني منها نسخة، تقبل الله تعالى منه، وشكر سعيه.

وسألني عن نازلة تنازع فيها أرباب الفتوى والمذاهب أيام حجنا وهي أن رجلاً حلف بالحرام وحنث ووقع وأنكر أن يكون حلف ولاحنث، فشهد عليه

---

(١) لم أجد قوله عنه.

عدلان فاعذر إليه فيهما، فجرحتهما بَيِّنَة بأنهما يبعثان لأرباب الذمة بجدة مايبعثاه(؟) من السلع وهما ينوبان عنهم في بيع ماوجهوه إليهما من مثل ذلك أيسمع هذا التجريح و يعمل بمقتضاه حتى ليلزم(؟) الرجل حنث في زوجته؟ أم لايعمل به لجواز البيع والشراء مع الذميين وأن يكون المسلم وكيلاً عنهما في ذلك؟ فأجبت بأنه لايجرح الشاهد بما ذكر لجواز الإقدام على ذلك، نعم إن ثبت على الشاهد أنه يدخل عليهما الربا من الذميين بذلك، أو يداخلونهم مداخلة تمكن محبتهم في قلبه فلاشك أنها جرحة فيه.

وسألني عن متعلقات حروف الجرّ ونحوها، من كل مقدر لابُدّ منه في صحة المعنى كالمبتدأ أو الفاعل والمفعول هي من القرآن. فأجبته بأن السؤال قديم ـــ ثم نقل من إحدى حواشي تفسير البيضاوي، كلاماً في الموضوع.

وقال بعده: ومنهم الشيخ المنيس(؟) يعرف هناك بالتونسي وهو في الحقيقة الزواوي، اجتمعت به وذهب بي لبيته، وأضافني في جماعة من الفضلاء، وله مماسة مابفقه مالك.

وأما الحنفية كالشافعية(؟) فلهم اليد الطولى في الحرمين الشريفين في طلبة وغيرهم، ومنهم الأئمة والقضاة والمفتون، ولم ألق إذ ذاك بعد البحث من يصلح للأخذ عنه.

وأما الحنابلة فما أضعف مذهبهم في مصر والحرمين، وأكثرهم اليوم بالشام، وفيما وراء النهر وغالبهم ـــ على مايحكى ـــ أهل عقائد فاسدة فيما بين رافضي وغيره[1]، ولم ألق بمكة منهم إلا إمام مقامهم وهو الشيخ علي، فهو يدعى معرفة فقه ابن حنبل و يفتي في مذهبه من غير منازع له:

خلت الديار فسدت غير مسوّد ومن الشقاء تفردي بالسّؤدد

بحث عني حتى اجتمع بي تجاه الحجر، بقرب دار الندوة، وقد صاحب معه

(١) صَدّر مانسب إلى الحنابلة بجملة (على ما يُحكى) فخرج بها من تَبِعَةِ وَصْفِهِمْ بما هُم منه بُرَآء، فعقائدهم هي عقائد أهل السنة والجماعة، وهم أبعد أصحاب المذاهب عن الرَّفض. (وماآفة الأخبار إلاَّ رُوَاتُها).

ضيافة، تقبل الله منه، وأخبرني أنه كان أخذ العهد الناصري من عمنا الشيخ ابي يعقوب يوسف بن محمد طيب الله ثراه، لما حج سنة أحد(؟) وستين.

نعم من منن الله تعالى وعظيم مواهبه أن اجتمعت بعد البحث[1] (؟).

وعن الواردين من سائر الآفاق تجاه البيت الميزاب بمحدث الشام في وقتنا، وهو الشيخ الإمام أبو العباس أحمد بن عُبيد العطار الشافعي إمام مسجد دمشق والمدرس به، وكان ــ والله ــ من الأولياء والصالحين، والعلماء العاملين، فرأيت رجلاً خاضعاً خاشعاً ذاكراً، لا تكلم إلا فيما يعنيه، وكان أمثل من رأيته في سفري من لدن خروجي من مقري، فتفاوضت معه بمسائل علمية، فكان مما استفدته منه وقد جرى ذكر مسند الإمام أحمد بن حنبل. لما اشتريت الثلث الوسط منه بالمسجد الحرام، وأكمله الله بعد بمصر، قائلا: فيه أربعون ألف حديث ــ يعني بالتكرار وإلا فالذي فيه من غير تكرار ثلاثون ألف حديث ــ لم يتكلم معه فيها إلا في ستة، أجيب عن الخمس(؟). وبقي الباقي بلا جواب، وهو: «يدخل الجنة عبد الرحمن بن عوف حَبْواً» قال: وهو موضوع. قلت: وقد وقعت ــ بعد ذلك ــ على رسالة للحافظ ابن حجر وهي بالخزانة الناصرية سماها: «القول المسدد، في الذبّ عن مسند الإمام أحمد» ومحصلها: أن شيخه الحافظ العراقي سُئِل: هل في مسند أحمد حديث ضعيف أو موضوع؟ فأجاب: أن به بعض ذلك ثم استرسل في الحديث ناقلاً عن «القول المسدد».[2]

وسألته: أترفع نسبك لصحابي من أصحاب النبي (صلى الله عليه وسلم)؟ وأنا قد توسمت منه الشرف المصطفوي فقال: لايرفع نسبه إلا من تقدم في آبائه علم، وأنا لم يتقدم في آبائي علم، فازددت بكلامه هذا فيه محبة لما قام عليه من الصدق ومراقبه الجليل سبحانه، ولما جالسته مراراً عقدنا عقد الأخوة في الله تعالى، بعد أن كان هو السابق لطلبها من حسن ظنه واعتقاده، ثم طلبت منه الإجازة فامتنع إلا بأني أجيزه كولده معه وقد صاحبه واسمه الشيخ عبد الوهاب، يفعل كل منا طلبه منه صاحبه، بعد قوله: على شريطة إجازة الأقران.

---

(١) أصاب الصفحة بلل فلم يظهر كثير من الكلمات.

(٢) في هامش حاشية عن طبع المسند وطبع رسالة ابن حجر.

ونص ماأجازني به وكتبه لي بخطه تجاه الكعبة الشريفة[1]: بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لانبي بعده، وعلى آله وصحبه ومن نقلوا لنا أقواله وأفعاله وأحواله، وبعد فقد اجتمعت تجاه بيت الله بالأخ العالم الفهيم البارع بالمعقول والنقول سيدنا الشيخ محمد بن عبد السلام من ذرية الإمام ابن ناصر، وطلب مني إجازة الأقران، ولشيخه أبي العباس أحمد بن الحسن من حفدة ابن ناصر للتبرك، ولاتصال الإسناد، فإن الأسانيد أنساب أهل الحديث، فامتثلت أمره رجاء بركته وبركة أصوله وأجزتهما عن الشاميين الشيخ علي بن كزبر، والشيخ إسماعيل العجلوني. والشيخ محمد الغرفي(؟) والشيخ أحمد المُنيفي (؟) والشيخ على الجنيني كلهم عن الشيخ المحقق عبد الغني النابلسي الصوفي صاحب التآليف الكثيرة وعن أبي المواهب وعن محمد الكاملي(؟) وثلاثتهم عن الشيخ عبد الباقي الحنبلي صاحب الثبت، وهو عن الشيخ حجازي الواعظ المعمر، وهو عن الشيخ محمد ابن اركاس وهو عن سيدي الحافظ ابن حجر قدس الله سره، وأرجو منهما الدعاء لي ولذريتي بالتوفيق لمرضاة الله وحسن الختام. كتبه أحقر الورى أحمد بن عبيد العطار الشافعي الإمام في مسجد دمشق الأموي.

الكتب النادرة :

وقال : فصل في ذكر ماشاهدته بمكة من الكتب مما لم أكن رأيته، أوْ إلاّ نادراً في خصوص خزانتها: مجلدان من[2](....) التلمساني على الحلاب إلى الحج، فأعجبت (....) وكتاب المجمل في اللغة لأبي الحسن أحمد بن فارس (...)(...) في مجلد كثير الفوائد، سهل التناول والأول من (...) الفاكهاني على الرسالة (...) آخر الصلوات وهو شرح عديم النظير.

وحواشي الشيخ زكريا الأنصاري على تفسير البيضاوي (...) على عادته

(١) في الهامش: إجازة للمؤلف وإجازة المؤلف له وانظر الفهرسة الجامعة للإمام ابن عبد السلام في هذه الإجازة صحيفة ٨٤ منها.

(٢) مكان النقط كلمات غير واضحة في المصورة.

في مؤلفاته في سفر (...) وتبصره (...) في أربعة أسفار بخط حسن مغربي من أحباس المسجد الحرام ولم أكن رأيت منها في عمري إلا قسطاً في الخزانة الناصرية.

وبمكة من الكتب سيما فقه الحنيفة العجب، وهي كاسدة جداً لايكاد يباع منها شيء إلا بالموسم.

ومما وجدته يباع بالمسجد الحرام: صحيح ابن حبان، ومشكل الأسماء والآثار للطحاوي وهو كتاب كبير، والمؤتلف والمختلف للذهبي، والتجريد له، مختصر جامع الأصول، وعندنا في الخزانة الناصرية في (...) ومما وجدته يباع أيضاً: الأحاديث المختارة للضياء المقدسي، أبو الحسن الأسنائي(؟) على مسند الإمام أحمد، في ثلاثة أجزاء، وقد اشتري لأميرنا نصر الله، فجيء به له، وسنن الترمذي، والنسائي هما بالخزانة الناصرية كبقية الستة.

في الطريق إلى المدينة

من مكة إلى رابغ: قال في الرحلة الكبرى:

وخرج من مكة في ضحوة يوم الاثنين ٢٦ ذي الحجة (١١٩٧هـ) حين أذن الركب المصري بالرحيل، في يوم شديد الحرّ، مع كونه السابع في فصل الشتاء فنزل عشية مع الركب في أسفل الوادي وهو يُعْنى بتسجيل مايسمعه من التعبيرات الفصيحة، ويقول في موضع آخر بأن عرب إفريقية أفصح من عرب الحجاز لكثرة اختلاط هؤلاء بغير العرب، وبعد أولئك عن الاختلاط ــ ومما سجل في منزله هذا: قلت لعربّي: أمْسِك الركاب لأعلوَ ظهر دابتي. فقال مفصحاً: لسْتُ بفارغ لك. فقالت عربية إلى جنبه منكرة من قوله مفصحة عن جهله: ليس كل الناس يفعل الجميل!

ثم ذكر ارتحال الركب إلى عسفان، وذكر ماجرى على أحد رفقائه ويدعوه المرابط السيد بركات من ذرية الشيخ أبي محمد صالح المغربي وولده من سكان بسكرة النخيل(؟) في طائفة وافرة من حجاجهم حوله من ذلك، وخدم ودواب ومَحَافّ، فقد أخذه بنو سعد حينما تقدم ومن معه أمام الركب المصري غير بعيد ليلحق بالركب الطرابلسي، فخرج هو ومن معه من جميع مابأيديهم من الأموال والدواب. وقتل اللصوص اثنين من أصحابه، وجرحوا عشرة.

ومن عسفان إلى قُديدٍ وفيه لقي بعض أهل سُوَيس ممن تقدم مع الركاب المغربية مجرّداً من ثيابه تسيل منه الدماء مسلوباً مامعه، زعم أنه نام خلف الركب فوقع عليه بنو سعد.

ومما يلاحظ أن المؤلف يُسَمي قطاع طريق الحج منذ دخوله الحجاز بني سعْدٍ ولايذكر من أي القبائل هؤلاء.

في قديد

ومما سجل وهو في قديد قوله: وبه أنشدني لاشرابي المذكور لما أضَرَّبه الجوع لابن الروانـدي[1]، وقد جاع وهو بمكة أيّاماً، فلقي غلاماً وبيده تيس من المعز، وهو يطعمه لوزاً وبندقاً، فأنشأ يقول:

تُوتى التيوسُ رِزقَها بسهولة وذَوُوْ الفصاحة رزقهم مسجونُ

إن كانَ حرمَاني من أجل فصاحتي هَوِّنْ عليَّ، من التيوس أكونُ!!

في رابغ

وبلغوا بلدة رابغ في الثلاثين من ذي الحجة، وفي الليل ــ كما يقول المؤلف: ذهب بنو سعد بمَرْحول من الإبل وماعليه من الأحمال والبضاعة، وسببه أن الركب رَيَّضَ، لئلا يدخل رابغ ليلاً على عادته من عدم دخول البنادر ليلاً، مما يتضرر به من الأعراب وسراق الركب من الصعالكة في وقت اشتغال الناس بأسباب النزول، فنام أربابها فجرى عليهم المقدور.

الخلاف مع العرب:

ثم ذكر اضطراب الآراء من الحجاج حول سلوك أيّ الطرق إلى المدينة بسبب الخلاف مع قبيلة حرب فقائل: نمرّ على الدرب السلطاني، إلى بدر إلى الجُديِّدة إلى المدينة، وقائل: ترجع يميناً من هنا على طريق الفروع ــ يقصد الفُرْع ــ كالشامي إذ رجع يميناً من الوادي على درب الليمون، فراراً من شَرّ أعراب الجديدة والصفراء، وماوالاهما من أعراب حرب، إذ عادتهم مع المصري إن وصل في الرجعة رابغاً، أن يعطيهم المقرر لهم قديماً، بعد إعطائهم الرهائن منهم، يُقيّدون ويحملون مع الركب إلى طيبة، ثم منها إلى أن يأمَنَ، فيطلقهم

---

(١) في الهامش: أنظر ترجمته في «معاهد التنصيص على شواهد التلخيص» و(لاشرابي) كذا وردت وسيأتي باسم (أبي القاسم الشرابي) في الكلام على الأبواء.

ويكسوهم ويعطيهم وقْراً. وقد حضر هذه السنة رؤساؤهم برابغ. فلما تخيّل منهم الغدر بمَنْعِهم من إعطاء الرهائن نودي بالليل في الركب ــ وهم يسمعون تَوْرِيَة ــ: ألا إنّ السفر على القديم إلى بدر، إلى الجُدَيدة. فادْلج الأعراب أمام الركب متحزبين، ظانيّن أن الأمر كما نُودي به ــ قال ــ: فلما أصبحنا صبيحة السبت الأول من المحرم (سنة ١١٩٨هـ) آذنوا بالرحيل على طريق الفروع ــ يقصد الفُرْع ــ وهي أضيق وأحرش وأطول وأقل ماء من السلطاني. وهي كما في تاريخ السمهودي الكبير طريق الحاج من قديم، وهو يقصد كتاب: «وفاء الوفا، بأخبار دار المصطفى».

قال ملخص الرحلة: ولكن الطريق الذي قصد السمهودي لايمر بالفُرُع، بل يمر بالأبواء ــ من الجُحفة. وبعد الأبواء يترك طريق الفُرْع يميناً ويتجه إلى الشُّقْيا ــ أم البَرك الآن، ومنها إلى الرُّويثة. فالمنصرف ــ المسيجيد الآن ــ حيث يلتقى بطريق بدر والصفراء، ثم الروحاء فالسيالة فالفرش ــ الفُريش الآن، فملل فتربان فالبيداء فذي الحليفة ــ فآبار علي ــ فالمدينة.

أما طريق الفُرْع فيترك هذا الطريق بيساره فيفصل بينهما سلسلة الجبال قدس والعرج وورقان، ولايلتقى بهذا الطريق إلا بقرب المدينة ومن طريق الفُرْع فَرْعٌ يلتقي بهذا الطريق في الروحاء، وقد فصلت الحديث عن هذه الطرق في موضوع آخر.

بقيت كلمة حول تعدي عربان الطريق على الحجاج وهو أمْرٌ لايوجد عاقل يُسَوِّغُه، غير أن مما تنبغي ملاحظته أن كثيراً من أمراء الحجاج يجهلون أحوال العُرْبان وعاداتهم وماهم عليه من فقر وحاجة، وقد ألفوا منذ القِدَم أن يعيشوا بما هيأه الله لهم على أيدي الحجاج، حتى بلغ بهم التواكل والجهل إلى درجة الاعتقاد بأن حياتهم متوقفة على ذلك فالطفل منهم ترقصه أمّهُ بمثل قولها:

أبو عيونٍ لِجْلاخ   تكبر وتسرق الحاج

ومَثَلُهُم يقول: رزقنا على الحاج، ورزقُ الحاج على الله، وحكام الحرمين الشريفين يتخذون من أولئك العربان وسيلة لنيل مآربهم من ملوك مصر والقسطنطينية، فيرخون لهم العنان، بل يحرضونهم في بعض الأحيان على الإضرار

بالحجاج لكي تزداد مقررات أولئك الحكام عند الملوك، بحجة حماية الحجاج ورعاية شؤونهم في الأماكن المقدسة. وكلما ازدادت المقررات ازدادوا طمعاً، يضاف إلى هذا ماينشأ من الخلافات في أُسَر أولئك الحكام حول الولاية بدرجة تبلغ من السوء إلى أن الابن يخرج على أبيه، والأخ على أخيه، فيحدث من جَرَّاء ذلك من الفوضى في هذه البلاد مايكون سبباً لاستشراء شرّ العربان وفقدان الأمن في الطرق، و يزيد هذه الأمور سوءاً أن كثيراً من أمراء الحج من الأعاجم أو ممن لايعرف كيف يسوس عربان الطريق بطريقة تؤمن الحجاج من شرّهم، كما جرى من أمير الركب المصري مما أوضحه هذا الرحالة، فبدلاً من أن يدفع لهم المقرر السنوي و يظهر من حسن النية والصدق مايحملهم على الثقة به والاطمئنان إليه خدعهم، وأظهر لهم أنه سيسير بطريق ولكنه سلك غيره، ظاناً أنه بذلك سيأمن شرَّهم، مع أنه بعمله هذا سبّبَ للحجاج من الأضرار ــ خوفاً ونَهْباً وتَعَباً وظمأً وجوعاً وطول طريق ــ مايعتبر معه صَرْف المقرر السنوي لأولئك العربان من أهون الأمور وأيسرها، حيث لايزيد ذلك المقرر على عشرة آلاف ريال في العام. كما ذكر المؤلف في موضع آخر.

ولنعد للسير معه فقد اجتمع وهو في رابغ بعربي قال عنه: عليه أثر الصدق والخير. وهو من قبيلة حَرْب من سكان الأبواء قال: وتسمى اليوم عند أهل الحجاز بالأخِربات [1] لسيل خَرَّبها وسألته عن تعيين أسماء قبائل الحجاز اليوم، فعين بينها قبائل شتى وقال: ياسيدي لانجد بالحجاز اليوم قبيلةً واحدة ذات شوكة إلا وقد حدث سكناها بالحجاز بعد العهد النبوي، وأما الذين أدركوا العهد النبوي كثقيف بناحية الطائف ونحوهم فلا تجدهم إلا ضعفاء مستضعفين، متمسكين ببعض آثار الدين والخير.

أسئلة فقهية: والرحالة يُعنى بتدوين مايسأل عنه من أسئلة فقهية وبجوابه فقد كتب بعنوان: (فوائد: سأل في هذا اليوم ونحن مرتحلون من رابغ مُحِبُنا في الله العلامة أبو فارس عبد العزيز بن حمزة المراكشي، وكان كرفيقه العلامة أبي العباس أحمد بن عبد الرحمن القضوي الدمناتي من أهل الدين والصلاح والمحبة

(١) يقصد الخريبة فبهذا تعرف إلى عهد قريب، ثم رجع إلى اسمها القديم الآن وهو (الأبواء).

لنـا ولأسـلافنـا، وكنا نترافق ليلاً ونهاراً، وكانَا ــ والله ــ من الأفاضل الذين أبـرزهـم الـوقـت، عن حديث: «إنَّ الزمان قد استدار» يلزم من تفسيره بما تقرر مـن قـضيـة النّسِيء المشار إليه بآية براءة، أن الزمان الذي قبل حجة الوداع وقع فـيه اشـتباه، فيسري حينئذ الخلل لحجة أبي بكر الصديق ومن معه من الصحابة رضـي الله عنهـم، وقـد كـانـت سنة تسع على الصحيح، وكذا يسري الخلل لحج عـتاب بـن أسِـيد ومن معه سنة ثمان، لأن النبي (صلى الله عليه وسلم) خطب بمـنـى يـوم الـنـحـر في حـجـة الـوداع، وكانت سنة عشر، فقال: «إن الزمان قد اسـتدار» أي زمان الحج عاد إلى وقته الأصلي الذي عينه الله تعالى له يوم خلق الـسـموات والأرض»، بأصل المشروعية التى سبق بها علمه ونفذت حكمته ــ ثم ذكـر جوابه مفصلاً وختمه بقوله:ــ والحاصل الذي ندين الله تعالى به أنه تعالى حـفـظ الإسـلام والمـسلمين من لدن فرض الحج، بل من لدن بعث النبي (صلى الله عـلـيـه وسـلم) من التديُّن بما عليه المشركون في أمر النّسِيء، فلم يوقعوا الحج إلا فـي زمـنـه الذي فرضه الله تعالى فيه، ولا التفات إلى اقتصار القرطبي وغيره على قول مجاهد والله أعلم.

وسـأل أيضاً عن حديث الضّب وهو قوله (صلى الله عليه وسلم): «ليس في أرض قـومـي» مـع مـاثبت في السِّيَر في كلام الضبّ له (صلى الله عليه وسلم) بـمـكـة فـي مـبـدإ الـبـعثة.. فظاهر مافي الحديث والسيرة التعارض، فأجبت: بأن الـبـحـث قـديم كـالجـواب وهـو أنـه «لـيس بأرض قومي» أي اصطياده، فالمنفي الاصـطـيـاد لا الوجود، أو المراد ليس بالحرام أو بما قاربه، وإن وجد خارجه عن بُعْدٍ منه مثلاً ونحو ذلك من الأجوبة وقد طال عهدي بها.

ثم ذكـر أسئلة عن المسخ والخسف، وعن معنت كلام لابن عربي وعن تقديم الأخ عـلـى الوالدين في آية : (يوم يفر المرء من أخيه، وأمه وأبيه) وعما ورد في السنة من القصاص بين البهائم مع أن العقاب مرتّبٌ على العقل، ثم أورد أجوبته على هذه المسائل.

هرشى والأبواء:

وذكر ارتحاله من رابغ ومروره بعقبة هَرْشا، وأن الإبل قاست منها شدَّة، وأنه بات بعد ذهاب نصف الليل بالأبواء ووصفهابقوله: قُرى صغيرة، وأخصاص بين جبلين، في واد ذي آبار كثيرة عذبة، قريبة القعر، وبه نخل فيه ذرة ودخن طويل جداً يأتي على الراكب والجمل، وأرضه مخصبة عجيبة، وسكان هذا الدرب من حَرْب إلا أن هذا الفريق منهم سلم للحاج، ولايناله منهم ضرر، أقاموا مع الركب سوقاً عظيمة من ثمار العجوة وغيرها، وبهذا الموضع وقعت في العهد النبوي سريةٌ قيل بموضع قربها يقال لها الآن المحلة، وبها ولد النبي (صلى الله عليه وسلم) على أحد الأقوال، وبها قبر والدته (صلى الله عليه وسلم) على آخر وبقربه وَدَّان ــ كما تقدم التنبيه عليه، فهما موضعان لاموضع واحد خلافاً لابن إسحاق ومن تبعه. وسمى هذا المكان بالأبواء لتبوُّىء السيول به، لاأنه سمي بذلك لما به من الوباء وإن قاله صاحب «المطالع» إذ لو كان كذلك لقبل الأوباء أو هو مقلوب منه والله أعلم. وبهذا المنزل أنشدني الحاج قاسم الشرابي لغيره. وقد ذكر ماجرى بهذا الموضع في العهد النبوي:

لما علمت بأن القوم قد رحلوا ... وراهب الدير بالناقوس مشتغل

شبّكت عشري على رأسي وقلت له: ... ياراهب الدير هل مرّت بك الإبل؟

فحنّ لي وبكى ورقّ لي وشكى ... وقال لي: يافتى ضاقت بك الحيل!!

أمّا الخيام التي قد جئت تطلبها ... بالأمس كانوا هنا، واليوم قد رحلوا

ياراحلين قفوا مهلا أودّعكم ... فيكم رجائي، ولكن فاتني الأمل!!

وبهذا المنزل أنشدني الأديب أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن الدمناني وقد جرى ذكر الجواري لشيخنا أبي حفص[1] عمر الفاسي رحمه الله في مملوكة له اشتراها بمراكش مدة إقامته بها:

---

(١) في الهامش: (عمر الفاسي من شيوخه وهو العلامة المحقق الفاضل عمر بن عبد الله بن يوسف بن العربي بن يوسف الفاسي المتوفى سنة ١١٨٠).

ومملوكة أمسيت أملك رقّها[1] فما أصبحت إلا وقد ملكت رقّي

لي الله، لاأرجو الخلاص مِنَ أسرها ورُبّ فتى يرجو التخلّص بالعتق

وبه أنشدني له رحمه الله في هجْو بعض معاصريه، وكان بيده خالٌ وكان يأنف القراءة على الشيخ متكبّراً، ثم نزلت به مُلمّةٌ فجاء يشكوها إلى الشيخ، فقام وقعد عند أمير البلدة حتى رفعت عنه، قائلاً متغزلاً:

خليلّي ماللخال حظّ إلى اليد وعهدي به يعلو بخدّ مورّد

أجار بفرط الكبر فانحطّ مهنة وشأن ذوي الكبر الرجوع إلى اليد

وبه أيضاً أنشدني لشيخنا المذكور رحمه الله ورضي عنه:

أمطر السحب ثلوجا وبدا منه (؟) بروجا

كلما رمت خروجا لم تطق رجلي ولوجا

وأنشدني بهذا المنزل ارتجالاً وقد أخذ مني هيدورة[2] مدبوغة من جلد تيس الجبل، وماأديت بذلك حقّه وهو والله أجلُّ:

يانخبة العلم ياصدر الأفاطل من تشرفت آل ناصر بمعناه(؟)

أمسيت ممتطيا ظهر الفراش الذي منحتني حرما تقبل الله

ماذاك أوّل صنع من مكارمكم فأنت للفضل أسّه ومبناه(؟)

يانجل عبد السلام المرتضي خلفا لازلت قِبْلَةَ مَجْدٍ في مصّلاه

ويحسن أن نسير معه حتى نبلغ المدينة، لنرى ماجَرَّ تسرُّع أمير الركب وعدم حسن سياسته مع عرب رابغ على الحجاج من متاعب قال: في الرحلة الصغرى سنة ١٢١٢هـ ــ مانصه:

---

(١) في الأصل: (بريقها).

(٢) الهيدورة هي الجلد المدبوغ بصوفه يتحذ فراشاً وهو مايعرف بنجد باسم (الجاعد).

(في قديد استهل هلال المحرم ١٢١٢هـ ومنه إلى رابغ ثم للقاع ثم لبدر وهلك بهاتين المفازتين من الآدميين الكثير بالحر والعطش والشوم(؟) وأقمنا ببدر يومين إلى أن قبض الأعراب من حرب ماجرت العادة بأدائه عن آخره، فعند ذلك سلكنا طريق الصفراء والجديدة في مضايق بين الجبال، وبعضٌ نهب ليلاً ونهاراً ولولا لطف الله مانجا حاج من اذاية هؤلاء الفجرة، أراح الله منهم ومن أضرابهم البلاد والعباد).

وقال فيها أيضاً: خرجنا سالكين الدرب الشامي على طريق الجرف خوفاً من مكر الأعراب في سلوك الجادة إلى ينبع، فنزلنا الجرف ثم منه لآبار نصيف، ثم منها لهدية، والحذر من شرب مائها، فقد هلك بشربه آدميون وبهائم.

ثم لبئر الزمرد، ثم للجديد، ثم لآبار الغنم، وبها هلك بالشُوم الحاج بلال بن صالح عبد الزاوية كان والله رجلاً خادماً أميناً.. وهلك فيما بين المدينة وهذا الموضع ماينيف على ربع الحجاج بالسموم الحارة والعطش، وأما البهائم، إبلاً وبغالاً وحميراً فلا تسل عما حل بها من الموت، وأما غلاء الأسعار فما يكاد الريال الكبير يعلف البغلة حتى كدنا أن نقتطع لولا لطف الله تعالى.

وقال في الرحلة الكبرى: ثم ارتحلنا من **الأبواء** وقد مضى من النهار أربع ساعات في مضيق واد طويل بين جبلين، كثير العضاه والأراك، لاماء به ولاكلأ، إلا ماوقعنا عليه به من غير ماء غادرته الأمطار، وأزمعنا السير بقية يومنا وسائر ليلتنا حتى نزلنا الفُرُع ــ بضم أوله وثانيه ــ وقد مضى من النهار خمس ساعات والفروع(؟) قرى متعددة ذات نخيل وعيون جارية عذبة إلى النهاية، ونزلنا بإزاء أكبرها عمارة، ويدعى أبا الضبع ظللنا به بقية يومنا وسائر ليلتنا، وقد قامت بين أهله وبين الركب سوق عظيمة في الطعام من زرع وغنم وتمر، وبه شاهدت في جماعة من الفضلاء أهل الركب طلبة وغيرهم عموداً من نور آخذاً فيما بين السماء والأرض لصوب المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، وبهذا المكان كانت السُقيا[1] قالوا: والفروع(؟) أول قرية مارت إسماعيل عليه السلام التمر بمكة، وكانت وادياً عامراً. وروي أن النبي (صلى

---

(١) كتبها (الشقيا).

الله عليه وسلم) نزل في مدفع (...) [1] وهي (...) مضيق الفرع فصلّى فيه. وعن ابن عمر أنه أحرم من الفرع، وبه مات ابن الزبير ودفن هنا في سنة أربع وتسعين. والفرع من أشرف ولايات المدينة فيها مساجد النبي صلى الله عليه وسلم نزلها مراراً، وأقطع فيها لغفار وأسلم قطائع.

ويلاحظ:

١ ــ السقيا التي قال أنها بهذا المكان هي سُقْيَا غفار، وتُدْعَى سق الفُرُع لأنها في العهد القديم معدودة منه وليست فيه بل تقع على الطريق القديم الذي يدع الفرع يمينه للمتجه إلى المدينة، وتعرف السقيا الآن باسم (أم البِرَك) لكثرة مافيها من البرك المعمولة قديماً لسقاية الحاج.

٢ ــ وماذكر عن مساجد الرسول (صلى الله عليه وسلم) في الفرع فهو ناشىء عن اعتقاده أن طريق الفرع هو الطريق القديم الذي كان يسلكه الرسول (صلى الله عليه وسلم) بين مكة والمدينة، وقد تقدمت الإشارة إلى خطأ المؤلف وإلى بيان الطريق النبوي القديم.

٣ ــ ويخطىء في كتابة الفُرُع فيكتبها (الفروع) وذكر أن أحد أهل الفرع سأله عمن بنى بامرأة ثم طلقها في مرضه فاعتدت وتزوجت فمات زوجها الأول من مرضه ذلك أتَرِثُهُ؟ قال: فأجبت بالميراث عملاً بقول المتن(؟) في الخلع ورثت أزواجاً...

ثم قال: ثم ارتحلنا من أبي الضبع وقد مضى من النهار ساعة في بقية بلاد الفرع، وماتعديناها حتى قارب الزوال، ونزلنا آخر الليل مكاناً يسمى أم غيلان، لكثرة أشجارها به، ولاماء به ولا كلأ، إن هي إلا الفلوات، لاينزلها إلا عوافي السباع والحيات، وبها سمعت أعرابياً وقد قيل له: متى تنزل الموضع الفلاني؟ ــ لموضع استقبلناه ــ فقال بهذا اللفظ: بعد هُدء من الليل ــ أي بعد مضي مدة منه ــ ففي «القاموس»: وأتانا بعد هُدء من الليل وهَدْءٍ وهَدْءَةَ وهَدِيء ومهدأ. وهذا المعنى الأخير هو الذي قصد الأعرابي وأعراب هذه النواحي لازالت معهم

(١) مكان النقط غير واضح في المصورة.

في كلامهم بعض فصاحة ونطق بلغة قديمة، وأفصح منهم أعراب برقة ـ كما تقدم ـ لقلة مرور الناس بهم، وعدم مخالطتهم لغيرهم، وقلة جولانهم، وعدم دخولهم الأمْصار، عكس الحجاز.

وبهذه البلاد نام بعض رفقائنا على جمله فجاءه بنو سعد وقطعوا حبل القطار أمامه وخلفه، وقادوا به الجمل وهو نائمٌ. حتى مالوا به عن الركب بقليل، فانتبه وتفطن لهم، فضربوه ليخيفوه فخرَّ مغشِياً عليه، وذهبوا بالجمل وماعليه، فكان كأمْس الذاهب، وحمد عُقْبَى صباحه (؟) فلم يتضرنر من جرحهم[1].

خلاف بين الركب وبين العرب:

قال في الكبرى: ثم ارتحلنا من أم غيلان، وقد مضى من النهار أربع ساعات، وأسرعنا بقية يومنا وسائر الليل والنهار بعده، لعدم الماء وعطش الركب لذلك...(؟) شديداً، مع ماانضم لذلك من الخوف الشديد من أولئك الظلمة الفجرة حرب وسكان الجُديدة، فانحرفنا بذلك يميناً لطريق أخرى، إذ قيل: إنهم قد تحزبوا بجيوش لهم عن يسارنا في مضيق بين جبلين، فاجتمعت الركاب المغربية مع المصرية بعد أن تولى أمير مصر جمعها جبرا(؟) عليها بقدوم الطرابلسي لقوته وشدته على الاعراب(...)[2] السجلماني والتونسي والجزائري، وأما الركب الفاسي فقد دخل في أوسط المصري فرتبت الجيوش، وأقرت(؟) الرماة، وانعزل الركبان من خيل وبغالة(؟) وأخذ الناس أهبتهم للقتال على (...) والركب مع ذلك سائر بالهوينا في إقطاره على العادة، والجيوش دائرة عليه حتى نزلنا آبار عَلِيّ، بعد مغيب الشمس، فوجدنا جيشهم على الآبار يمنعون الركاب من الماء، وعلموا شدة احتياجهم إليه، وأنهم نحو ثلاثة أيام لم يأكلوا طبيخاً من قلته، وحتى (...) العلقة الواحدة مثقالاً من الذهب، فعند ذلك حَلّ بالناس الرعب، واشتد الخطب، وماج الناس بعضهم في بعض، وبركت الإبل لما عليها من الأثقال ولم تحط إلى الأرض، فبرز أولئك الشجعان من الرجال، أهل الإدبار والإقبال، وكان الذي جاء الله بالفرج على يديه جماعة من أهل فاس لما جاءهم

---

(١) ص ٢٨٨.

(٢) كلمات غير واضحة.

أمير الأعراب عامر بن جُوَيْير الخداع الكذاب برسالة يزعم أنها من عند أولئك الأعراب، وفيها: إن لم تؤدوا لنا جميع خراج أربع سنين الماضية من قناطير العسجد فما لخروجكم من هذه الورطة باب فتفطن أهل فاس لخداعه(....) وأخذوه على غرة، وقيدوه، وجعلوا في (عنقه) غِلاً، وأعلوه على جمل ولم يشاوروا بذلك أمير مصر ولاغيره، فسمع الأعراب بما حلَّ برئيسهم فانقلبوا على وجوههم، ومابقي بالآبار إلا آثار من نيرانهم. ومع ذلك لم يتأتَّ للركاب الذهاب إلى الآبار، خوفا من أولئك الفجار، عدا من تمكن منهم العطش من الصعايدة، أو برز بشجاعته من المغاربة، وبات الناس ليلتهم يجوسون، وفي أمرهم يدوكون، فلما طلع الفجر آذنوا بالرحيل، بعد أن قام الضجيج والعويل، وأخليت(؟) المدافع والبنادق ورتبت الجيوش فلا تسمع إلا القعقعة والصهيل، فتقدموا للآبار، وما تعرض عليها فاجر ولابارٌ، ومع ذلك لم ينل منها إلا الآدمى وما خفَّ من البغال، خوفاً مما عسى أن يفجأهم من المحاربين، وهم أعْدَاءُ الله لما استقر عندهم العلم بما حَلَّ بأميرهم أشفقوا عليه، وخافوا إن تعرضوا لواحد من الركب وقع به هو الفتك.

ـ وأشار إلى أنه سيعود للحديث عنهم.

آبار علي: وقال: والآبار المذكورة كثيرة عذبة باردة تسقى بها نخيل عليها، وخضر كثير سيّما الباذنجان الكثير والقرع بأنواعه الجيدة، وبها تجتمع الطريق السلطاني الآتي على الجُديدة، وهذه التي سلكناها.

وقال عن **العقيق:** وبهذا الموضع آثار ورسوم، دائرة، وهذا هو وادي العقيق، سُمِّي بذلك لأن حصاه ينحو نحو الحمرة، وهو وادي ذي الحليفة، والعقيق خرز أحمر، والعقيق أيضاً وادي المدينة فيه أموالها ونخيلها، وذو الحليفة وهي البيداء بطحاء، وفيها المُعَرَّس بينها وبين المدينة نحو سبعة أميال وهي بطحاء سهلة لينة، وفيها أوحي إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم): إنك ببطحاء مباركة وهي مهلٌّ أهل المدينة من العصر النبويّ إلى الآن كأهل الشام في هذه الأزمان فعادتهم الذهاب إلى مكة على المدينة ثم يرجعون عليها، يزرونها في سفرهم مرتين في ذهابهم وإيابهم، هنيئاً لهم، وبها مسجد يدعى الآن مسجد الشجرة يُعَدُّ علامة

علـى محـل إهـلالـه (صلى الله عليه وسلم) وهو على يمين الذاهب في شرف من الأرض ولم أدخـلـه لـعـدم مـن يـسـاعدني... والركاب مع ماحلَّ بها من العطش والجـوع والغلا والخوف لم يبالوا بذالك، لما خامرهم من الغرام بالقرب من الحبيبة المحبة على ساكنها الصلاة والسلام ــ .

إلـى أن قـال: وسِـرْنـا فـعلونا بقرب ذي الحليفة مُفرِّحاً، سمي بذلك لأن به يتخيل(؟) الناظر أعلام المدينة، فلم يبق لمن علاه هَمًّا مُبَرِّحاً، ولما جاوزناه بغلوة أو غـلـوتين، بـلـغنا منتهى حرم الشجر[1] بغير مين، فلاحت البيوت بقببها، ونزلت للاغتسال فلم يتأت لي، فعوضته الوضوء بقربها، ولما نزلنا الحرة نزلنا، وبها بأهل المـديـنـة الـتـقينا، مشاة وركباناً، نساء وصبياناً، وشيوخاً وكهولاً وشباناً، أحراراً وعبيداً وولـدانـاً، لا ترى العين أجمل منهم صورة، وأطيب كلاماً، وأحسن أخلاقاً وأتـقـن نـظـامـاً، كـيـف وقد تمتعوا بجوار سيد المرسلين.. لا تسمع منهم إلا مَرْحباً أهْـلاً وسـهْـلاً طـيـباً، آنستم، بلغتم، والصبيان على أرجلهم يرددون بصوت رخيم: يـاحـابَ الـنـبـي ركـبـنـي. والحجاج على اختلافهم منهم المُرْدِفُ لواحد واثنين، ومنهـم الـنـازل لهـم، والـقـائـد بهـم والسائق لهم، وكنت ــ مُحَبَّةً فيهم ــ حملت صَبـيّـيْـن عـلى دابتي أقود بهم تارة وأسوق بهم أخرى حتى جاوزت بطحان ذات اليمين، وسـلـع وهـو جـبـل صـغير ذات الـيسار، فوصلنا البيوت ضحاء يوم السبت الـثـامن من المحرم (١١٩٨هـ) حامدين الله تعالى على ماأولانا، شاكرين له على مـاأعـطـانـا، ووقـفـت بالصبيين(؟) وهما على الدابة ممتنعين من النزول، فجعلت أدور مـعـهـم ريثما يـنـزلـون عـن طـيـب أنـفـسـهم، فلما نزلوا أخذت بعنان دابتي فـتـوجـهـت إلـى المـنـاخ وسـط البيوت المبنية خارج أسوار المدينة المنورة، فربطت دابتي حيث نزل رفقائي.

---

(١) يقصد الذي يحرم قطع شَجَرِه.

في المدينة المنورة

وفي ضحى يوم السبت الثامن من المحرم (سنة ١١٩٨هـ) وصل رحالتنا إلى المدينة المنورة، وكان دخوله من باب المصري الموالي للسوق ماراً به إلى المسجد حيث دخله من باب السلام، وبعد الزيارة خرج لتهيئة المنزل بالمناخ ــ ويقصد ماعرف أخيراً بالمناخة ــ فلما هيأه وكُفِي مؤونة الدابة وغيرها ــ كما عبّر هو ــ عاد للحرم الشريف وتحدث عن كثرة الزائرين من الحجاج والمدنيين، وذكر أنه زار بقيع الغرقد ثلاث مرات، مرة في كل يوم وهي أيام إقامته في المدينة، وزار مابداخل المدينة من المشاهد، وأما ماكان خارجها كأحدٍ فلم يزره لضيق أيام الزيارة. وأخذ أهبته لزيارة مسجد قُبَاء مع جماعة فذهبوا حتى لاحت المناره كالصومعة في سواد النخيل، وبينه وبين المدينة ثلاثة أميال أو أقل، فآذن الركب المصري بالرحيل فرجعوا قبل الوصول إليه.

وقال بأنه سيقتصر على أخبار ماشاهد، وبعض أبعاض مالابَدّ منه لما لم يشاهد لداعية الحاجة لذكره، وماعسى أن يدرك من ذلك مع قلة الإقامة.

وصف المدينة

ثم بدأ بوصف المدينة قائلاً:

المدينة اليوم ــ على ساكنها الصلاة والسلام ــ مدينة أصغر من مكة، مليحة، ظاهرة الأنوار، موضوعة في منبسط من الأرض وعلى وادٍ به حدائق كثيرة من نخل وشجر، وأرضها سبخة، والبقيع شرقيها، وأحد شمالها وقباء إلى الجنوب أقرب خلافاً لقول العبدري أنها في جهة الشرق من المدينة، وعليها سور يحيط بها وله أبواب ثلاث باب البقيع، وباب المصري، وباب الشامي وكل منها في الغاية من التزخرف ومتانة البناء عكس باب البقيع وفي داخلها سوق طويل، دارت به حوانيت البيع والشراء من كل جهاته، ومن خارج المدينة بقربها يليها المناخة، وقد زيد فيها بنيان كثير من دور مشيدة، وأزقة نظيفة متسعة، وفيها جامع تصلى فيه الجمعة، وقد كثر في هذه الأزمنة سكنى العجم

من ترك وغيرهم الحرمين فخرج[1](...) عما كانوا عليه في العهد القديم من التنافس الآن في المآكِلِ والمشارب وارتفاع البناء وتزخرفه، خصوصاً أهل مكة وفي داخل المدينة المنورة اليوم بعض بيوت وحوانيت شاهدنا بنيانها قصيراً من محض(؟) التراب واللبن والسقف من جذوع النخل وغير ذلك، كما كانت عليه في العهد القديم، وفي داخلها في وسطها المسجد النبوي على صاحبه أزكى الصلاة والسلام.

في المسجد النبوي

ثم ذكر إنشاء المسجد في العهد النبوي وماطرأ بعده فيه من تغيير توسعة وبناء وكتب في ذلك أكثر من ثلاث صفحات قال بعد ذلك: إنه شاهده على بناء قايتباي سنة ٨٣٦هـ ووصفه بقوله: (إنه غير مربع عرضه نحو ثلثي طوله، وأما المسجد القديم النبوي فمعلوم عند الكافة برايج(؟) في أسطوانات، وقد ذكر السمهودي لذلك علامتين (...)[2] وأخرى وصحنه اليوم ليس بذلك في الوسع، وهو فيما زيد في مؤخرة فيه حوش (...) الذي به ثلاث نخلات يجنى ثمرها على ماقيل، ويذهب بها للأمير العثماني في القسطنطينية، وبقرب النخلات بيت القناديل.

وطول المسجد مائة وأربعة (؟) وتسعون خطوة ــ بتقديم المثناة ــ وعرضه مائة وستة وعشرون خطوة وطوله من الجنوب إلى الشمال وعرضه من الشرق إلى الغرب، وعدد اسطواناته مئتان وتسعون، وعلى رأس(...) حجر مربع قدر شبر في مثله فويق (...)يقال إنه كان مرآة كسرى، وفي أعلا داخله(...) لايعرف من أين هو، ويزعمون أنه كأس كسرى، والمسجد مفروش كله.

ثم يذكر أبوابه ولايفوته أن يسجل (وعلى كلا بابي الفتح ــ ويقال له باب عاتكة ــ والسلام من يحرس للناس نعالهم بأجرة، فلا أرى أحداً يدخل بها.

(١) البياض كلمات لم تتضح من التصوير.

(٢) مكان النقط كلمات لم تتضح من المصورة.

ويقول عن سقف المسجد: إنه مرتفع جداً (وسطحه لايخلص له أحد إلا المؤذنون، حاشا أيام الموسم الرجبي فإنه مباح لكل أحد، ولقد ــ والله ــ راودت بعض المؤذنين وبعض أغوات بأجرة على أن يتركوني أصعد تبركاً ووقوفاً على حقيقة الأمر، فامتنعوا وأعتلّوا بأنه سوء أدب مع النبي صلى الله عليه وسلم) ويقول عن المآذن الخمس: (أفضلها التى في الركن الشرقي الجنوبي، وهي أقرب للنبي صلى الله عليه وسلم وكلها من عمل قايتباي إلا السليمانية وهي الشرقية الشمالية فقد بناها السلطان سليمان التركي، وقال: (والمسجد الآن على ماشاهدت قد دارت به أزقّةٌ متسعة نظيفة، ولم يغرز لأحد خشبة في بعض جدرانه، بل لم تتصل به دار، ولافتحت إليه طاقة ولاشبّاك يشرف منه إليه عكس المسجد الحرام بمكة، ثم ذكر أن في المسجد محاريب ومنبراً)

وذكر أنه (ليس للمالكي ولا الحنبلي إقامة في سائر الصلوات الخمس إلا في الجمعة، فيصلي صاحب النوبة على أي مذهب كان، جرياً على عادتهم بالحرمين، حرصاً على أكل الوقف، فيتوارثون ذلك على آبائهم حتى أفضى بهم ذلك إلى إمامة من ليس بذلك في العلم والدين، بل ربما تولاها حدثاء الأسنان.

إذا التحق الأسافل بالأعالي فقد وجبت منادمة المنايا

ومايحكى عن التقي السبكي أنه كان يرى تولية الأطفال مع عدم صلاحيتهم إذا قام بالوظائف صالحون.. ليس على إطلاقه وإنما معناه أن الولد له تولية الاختصاص، والصالح تولية المباشرة ــ ثم أحال على ترجمة ابن عساكر من الطبقات للتاج ــ وقال: وفي «الرحلة الناصرية»: وأول من يصلّي من الأئمة الشافعي ثم الحنفي إلا في صلاة المغرب فيتقدم الحنفي لضيق الوقت عنه كالمالكي، ولايقدم بالمدينة سواهما من الائمة، أما في الجمعة فيصلي صاحب النوبة على أي مذهب كان فيتناوب الإمامان الصلاة في المحراب النبوي، فإن صلى أحدهما فيه صلى الآخر في المحراب الذي على يمين المنبر الشريف وأما المحراب العثماني الذي في الصف الأول فلا يصلّى فيه إلا في بعض أيام الموسم إن كثر الناس.

وتكلم على الحجرة الشريفة وأنها جددت في عام ٨٤١ على يد قايتباي

وقبل عام ٨٨٦ ــ على مافي «شرح دلائل الخيرات» ثم نقل أن القبور الشريفة ليس عليها علامة سوى ارتفاع الأرض، ثم بنيت عليه قبة صغيرة كقباب صلحائنا في هذا الزمان(١)، ليست بمثلثة ولامربعة ولامخمسة أسطوانية البناء من أسفل ومن فوق، ولم يبق لها عدا طاقة من أعلاها يخرج منها النور، ثم على القبة المذكورة قبة أخرى أعظم منها لكنها إلى التخميس أقرب، وهي على ثلاث طبقات، فالطبقة الأولى التى تلي الأساس، والأساس منشأ بحجارة سود، ملبس بالرخام الأبيض غير الخامة التي فيها المسمار الفضيّ فإنها حمراء جدّاً، والطبقة الثانية من الآجر، والطبقة الثالثة من (   )وفيها تربط الكسوة، وليست بمطموسة كما هي الأولى، ثم على القبتين قبة شامخة تعلو الـ(   ) أو تقرب منها. وهي مربعة على أركان أربعة وسوار عشر غير الروضة الصغيرة(   )وأرضها مفروشة بالرخام غير الموضع الذي يذكر أنه يدفن فيه عيسى عليه السلام في السهوة كما هو معروف عند الخدام ومن شاهد ذلك، ولها أربعة أبواب باب التوبة وهو قبلة المسجد في شباك كان يفتح عند الشدائد(٢) ليس إلا، وباب الوقود يفتح كل ليلة لوقود المصابيح، وباب فاطمة كذلك يوقد فيه الشمع، وبالمحراب كل ليلة، وفي ليلة الجمعة لكشف الصندوق المواجه لرأسه عليه الصلاة والسلام، ورشّهِ بماء الورد وغيره من الطيب، وفي صبيحتها تكنس الحجرة، وباب التهجد تارة وتارة، وفي يوم الجمعة تجلل الأبواب كلها بجلل الحرير. هـ

قلت: وقد دخلتها ولربي الحمد، في جوف الليل من باب فاطمة وهو الذي يقال له اليوم باب الوقود، ولم أرهم يدخلون إلا منه، وهو الموالي للجهة الشرقية، وبينه وبين الجدار الشرقي مَمَرٌّ ضيق مقدار خط(؟) والباب المقابل لباب التوبة وهو في الجنوب يُدْعَى الآن باب لغوات(؟) لجلوسهم بدكاته، وهم خدمة

---

(١) بناء القباب على القبور من الأمور المحرمة شرعاً، بنص الحديث الشريف عن علي (ض) أنه قال لأبي الهياج الأسدي ألا أبعثك على مابعثني عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا تدع تمثالاً إلا طمسته ولاقبراً مشرفاً إلا سويته.

(٢) يقصد أنه إذا وقعت شدة من قحط أو مرض أو غيرهما فإن هذا الباب يفتح للاستغاثة. وهذا العمل محرم، إذ الله هو وحده الذي يكشف الشدائد، ومنه يطلب الغوث.

الحجرة، ويقال له باب حمزة وباب أحد، لأن الواقف به وهو مستدير القبلة يستقبل أُحُداً، وفي شباك الكسوة لجهة القبلة قبالة وجه النبي (صلى الله عليه وسلم) باب صغير مُرونق، فيه الكوكب الدُّرِّي يضيء كالمصباح، يشاهده من كان خارج الحجرة في المواجهة قيل: وهذا هو الباب لايدخله أحد إلا شيخ الحرم مرَّة في السنة، يضمّخ القبة المطموسة بأنواع الطيب، وقد جعل في الكسوة علم بإزاء رأس النبي (صلى الله عليه وسلم) ثم آخر بإزاء رأس أبي بكر، ثم آخر بإزاء رأس عمر رضي الله عنهما.

يقف الزائر قبالة الأول ثم يرجع شيئاً مايميناً قبالة الثاني، ثم كذلك في الثالث، وقد وضع نحو تلك العلامة بالنقش في البنيان خارج الشباك الذي فيه باب التوبة المواجهة فيقف الزائر مثل ذلك خارجة على نحو ماذكر، ومن وراء الشباك من صوبه الذي عليه الكسوة قبة صغيرة بداخل الحجرة تنسب لفاطمة رضي الله عنها وبذلك سُمِّي الباب الموالي لهَا باب فاطمة، ولايصح شيء من ذالك فالصحيح أنها بالبقيع، وإلى جانب هذه القُبَيْبَة محراب مستقبل القبلة يَسبِّح به من دخل الحجرة، ومعي في حال دخولي شيخ الحرم وحده هو الذي أراني ذلك، فأوقعت التحية هناك، والقبور أمامي في قبلتي، والكسوة المسدولة على الشباك هي اليوم في الغاية من الإتقان، بلون الخضرة والبياض، وبها من خيوط الذهب والفضة العجب فلا ترى كسوة تضاهيها، وهي انسدلت عليها إلى الأرض، خلافاً لقول العبدري: إلى (قريباً (؟) من القامة) ولعل ذلك كان في زمانه، وتغير بعد، كقوله: تكساها كل عام، ففي «تاريخ السمهودي الكبير»: أنها كان يؤتى بها من مصر كل عشر سنين مرة، أو في كل ست سنين وفي «الحاوي في الفتاوى» للسيوطي مانصه: أول من كسا الحجرة الشريفة ابن أبي الهيجا(؟) وزير ملك مصر، بعد أن استأذن من الخليفة المستضيء فكساها ديباجاً أبيض، ثم بعد سنين أرسل الخليفة(؟) كسوة ديباج أبيض بنفسجّياً، ثم أرسل الخليفة لما ولي الكسوة من الديباج الأسود، ثم لما حجت أم الخليفة وعادت أرسلت كسوة كذلك، ثم صارت ترسل الكسوة من جهة كل سبع سنين من الديباج الأسود، ذكر ذلك الاقفهسي. هـ.

قلت: وأما اليوم فقد حدَّثني الثقات من المجاورين وغيرهم أنها يأتي بها

الشامي، يبعث بها من تأمَّرَ بالقسطنطينية وتبقى في مدة إيالته حتى يموت أو يعزل، ثم إذا ولي من بعده جدّدها، وهكذا فليست ككسوة الكعبة ومقام إبراهيم التي يؤتى بها كل سنة من مصر، وكسوة الحجرة عليها الكتابة غالباً نظماً ونثراً ـ ثم ذكر طرفاً مما كتب عليها نقلاً عن رحلة العبدري وغيره، وفيه من الغلو والمبالغة مايحول دون نقله.

ثم تحدث عن المنبر منذ إنشائه في العهد النبوي إلى العهد الذي يتحدث عنه، ثم قال: وفي حائط المحراب أمام المصلى نحو القامتين أو أقل شَكْلٌ نَاتِيء أكحل بَرَّاق أملَس، كأنه رأس خشبة أبنوس مخروطاً، ذكر المؤرخون أنه عمود كان في جدار القبلة كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يتمسك به إذا أقيمت الصلاة ثم يلتفت يميناً وشمالاً و يقول: «سَوُّوا صفوفكم» فإذا استوت كبّر، فلما توفي فُقد فلم يجده أبو بكر ووجده عمر عند رجل بقباء وقد دفنه حتى أكلته الأرضة، فأخذ له عمر عوداً فشقّه وأدخله فيه ثم شعبه وردّه في موضعه فلما زاد عمر بن عبد العزيز في القبلة جعله في المحراب، ثم ذكر مايفعل الناس به من الأمور المحرمة بدعوى التبرك[1]، مع أنهم لايعرفون ماهو.

البقيع والآثار

ولما تحدث عن البقيع قال: وقد ذكر السمهودي وغيره أن به أكثر من عشرة آلاف صحابي مدفوناً مع أنه ليس بذلك في الوسع، ومحمل ذلك على الطبقات من الموتي بعضها فوق بعض، لأن الأرض سبخة فلا تمر سنة أو سنتان حتى لايبقى للقبر أثر، وما فيه من المباني إلا نحو عشرة مشهورة، خلافاً لقول العبدري على أكثرها قبور وقباب متقنة، ثم ذكر أن المشهور فيه(١) إبراهيم بن النبي (صلى الله عليه وسلم) وسَمّى آخَرِيْنَ: سعد بن أبي وقاص، أسعد بن زرارة، خنيس بن حذاقة، عثمان بن مظعون(٢) العباس، ومعه الحسين بن علي عدا الرأس فبمصر، وزين العابدين وجعفر بن محمد الصادق وأبوه محمد الباقر (٣) عثمان (٤) النقشبندي (٥) حليمة مرضعة النبي (صلى الله عليه وسلم) (٦)

---

(١) والتبرك بهذا محرم، كغيره من الآثار.

عقيل بن أبي طالب ومعه عبد الله بن جعفر (٧) زوجات النبي (صلى الله عليه وسلم) خديجة وميمونة (٨) أم كلثوم (٩) مالك بن أنس (١٠) نافع مولى ابن عمر (١١) فاطمة بنت أسد والدة علي بن أبي طالب (١٢) صفية بنت عبد المطلب عن يسارك وأنت خارج من المدينة من باب البقيع.

وذكر من القبور التي خارج البقيع (١) قبر اسماعيل بن جعفر الصادق بقرب البقيع على سور المدينة (٢) مشهد مالك والد أبي سعيد الخدري وهو من شهداء أحد داخل المدينة غربيها بلصق السور من داخله وفيه ماء مُعَد للشرب والوضوء، ومحله هذا هو سوق المدينة القديم (٣) مشهد النفس الزكية وهو محمد بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب وقال: وهو أخو إدريس الأكبر أول أهل البيت قدوماً إلى المغرب، وعامّة الشرفاء المغاربة من نسله إلا شرفاء سجلماسة فهم من نسل النفس الزكية محمد المذكور، استوطن أسلافهم الينبع (؟) فقدم جدّهم منه إلى المغرب في السابعة (؟) والمشهد خارج المدينة (٤) شهداء أحد، وقد فصل القول عنهم.

وقال عن جبل عَيْر: ويقابل العوالي ناحية مكة عن يسار ذي الحليفة وأنت خارج من المدينة جبل عَيْر، وهو جبل يقال له الجبل الملعون لقول النبي (صلى الله عليه وسلم): «جبل يبغضنا ونبغضه، على باب من أبواب النار».

ثم أحال على تأليف السمهودي لمعرفة المآثر والمشاهد والأماكن وغيرها.

وانتقل بعد ذلك إلى الحديث عن الحالة العلمية في المدينة حينما زارها واستغرق كلامه من ص ٣٠٥ إلى ٣٠٧ من مخطوطته، وهاهو نصه بعد حذف النقول من الكتب المعروفة. قال:

العلم والعلماء:

والبلد الطيب اليوم كادت (؟) أن تعرو من متعاطي العلم سيما مذهب مالك وأحمد وأمثل من رأينا بها المُسِنُّ البركة الشيخ محمد بن عبد الله المالكي به شهرة، ذهبت إلى باب (   ) فزرته وأخذت عنه، وأجازني، ونص

مـاأجازني به كتبه بخطه بعد البسملة والصلاة على النبي (صلى الله عليه وسلم) وبعث به إليّ بعد أن سافرت من المدينة بأشهر:

الحمد لله الذى خص هذه الأمة المحمدية بأعلى المزايا وأرفع سند، ومنّ عليهم ببعثه هذا النبي الكريم سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم عليه وعلى آله وأصحابه شموس الهدى ونجوم الرشد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له الإله الواحد الأحد الفرد الصمد، الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً (صلى الله عليه وسلم) عبده ورسوله المخصوص من حسن الأخلاق بالنَّصِّ المعتمد، ما أمَّ طالبٌ سوح هذا النبي الكريم وتضلع من بثار علمه بعدما ورد، وبعد فقد أجزت الأخ في الله، والمحبوب من أجل الله مولانا الشيخ محمد بن عبد السلام الناصري بجميع ماأرويه من الكتب العلمية والأحاديث النبوية، حسبما أجازني به مشايخي رحمهم الله تعالى ، الذين من جملتهم والدى رحمه الله تعالى الشيخ محمد بن عبد الله المغربي المذكور(؟) المدرس بالحرمين الشريفين على حسب ماأجازه به مشايخه الذين من جملتهم الشيخ محمد بن عبد الرحمن بن عبد القاهر الفاسي وسنداته مشهورة في كتابه الذى سماه«المنح البادية، في الأسانيد العالية» ومن جملتهم أيضاً المرحوم بكرم الله تعالى الشيخ عبد الله بن سالم البصري المكي، عن شيخه البابي(؟) عن أبي النجا(؟) سالم بن محمد بن محمد السنهوري عن محمد بن أحمد بن علي عن شيخه شيخ الإسلام زكريا عن أبي الفضل ابن حَجَر عن شيخه إبراهيم بن أحمد التنوخي عن شيخه أبي العباس أحمد بن أبي طالب الحجازي عن الحسين بن المبارك الزبيدي(؟) عن أبي الوقت عبد الأول السجزي الهروي عن أبي الحسين عبد الرحمن بن محمد الوردي(؟) عن أبي محمد بن عبد الله بن أحمد السرخسي عن محمد بن يوسف الغِرَبْرِيِّ عن أمير المؤمنين في الحديث محمد بن إسماعيل البخاري رحمه الله تعالى. قد أجزت الشيخ المذكور على طريقة ما أوصاني به مشايخي رحمهم الله بلزوم تقوى الله في سائر الخلوات والجلوات، وعلى أن لاينساني من الدعاء الصالح عندما يذكرني في الأوقات، قاله بفمه، وكتبه بقلمه، أحقر العباد إلى الله تعالى، تراب أقدام العلماء محمد بن محمد بن عبد الله المغربي المدرس بالحرم النبوي على ساكنه أفضل الصلاة وأزكى السلام في ١٤ من شوال سنة ثمانية وتسعين ــ بالمثناة ــ ومائة وألف، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

ومنهم المُسِنُّ البركة الشيخ علي بن محمد بن على الشَّرْواني، نسبة إلى شروان ـ بفتح الشين وسكون الراء ـ ببلاد العجم، حسبما أخبرني بذلك، قال في «الروض المعطار»: وشروان إحدى مدن أرمينية. قالوا: والصخرة في قول الله تعالى: (إذ أوينا إلى الصخرة) هي صخرة شروان، والبحر من بحر فارس والروم. وقال قتادة وغيره: بحر إفريقية، وهو حنفي المذهب، قد كان أخذ العهد الناصري من عَمِّنا الشيخ أبي يعقوب رحمه الله، وكان هذا الشيخ هو الذى سأل عني، إذ له كبنيه الشيخ عبد الرحمن وأخوه الشيخ أبو السعود كمال المحبة لدارنا ولأسلافنا، جالسته مراراً قرب المحراب النبوي القديم، وكان مما سئل عنه بمحضري في المسجد: ماتقول في رجل دفع مالاً وقفاً يبلغه إلى رجل معين من أئمة المسجد النبوي وظيفة السنة الماضية وهذه، فلما بلغ المبعوث معه المال وجد الإمام المذكور قد توفي، وترك ابنة وإخوة عصبة ماذا يفعل بالمال؟ فأجابه الشيخ بأن المال يكون كله من ابنته (؟) فقلت: أما حظ السنة الأولى فقد استحقه فللبنت نصفه، ومابقي لإخوته العصبة، وأما حظ السنة الثانية فإن هو توفي في أولها فإن جميعماينوبها من المال لمن استخلف للإمامة في موضعه، وإلا كان للأول بحسبه ولمن بعده بحسبه، فاعترضني الشيخ وقال: تعيين فلان في الرسالة دليل على إرادة الجميع عنه. فقلت: لا والله لم يعينه إلا مما اعتاده الكتاب من حياة من عين، إذ لو علم موته لبعثه لمن تولى بعده فلم يرد إلَيَّ شيئاً(؟) على عادة المشارقة اليوم في النوازل الفقهية مالكية وغيرهم، وإنما يعتمدون تقريرات وظواهر، ولايفتون بمطالعة كتب الأحكام الفقهية على أنه لو عارضني بما يخالف مذهبي في النازلة، لما أمكنني إلا إلقاء السلاح لعدم معرفتي به، فما يظهر منه إلا أنه قال ذلك تفهماً لا فِقْهاً منصوصاً.

ومَرَّة أخرى كنت جالساً معه قرب المحراب فأقام الصلاة صبيٌّ شافعي فقلت له: سبحان الله!! الأولى على مذهب الشافعي والحنفي في المؤذن والمقيم أن يكون بالغاً، ومالك رحمه الله يجعل البلوغ شرطاً في صحة الأذان والإقامة، وهذا مسجد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فينبغي الاحتياط فيه، فلم يجِبْ بشيء، وكأنه رضي مني مقالتي.

ولم أستجزه لأني اختبرته فلم أجِدْ له كبير رواية.

ومنهم سيدي علي بن محمد الدقاق المغربي من رباط الفتح بسَلا، أخذ العهد الناصري، وله محبة في دارنا، وكانت له ممارسة بالعلم، اجتمعت به في المسجد النبوي مراراً ولم أستجزه.

ومنهم الشيخ محمد بن خالد بن أبي بكر الجعفري مفتي المالكية وخطيبهم بمكة ثم انتقل إلى المدينة مجاوراً، وكان أيضاً ممن أخذ العهد الناصري وله كمال في المحبة.

وممن اجتمعت به من المجاورين المعروفين السيد عبد الرشيد الشنكيطي(؟) المغربي، وله فينا محبة تامة، أدخلنا بيته بقرب باب النساء من المسجد، وأحسن ضيافتنا، جُزِي خيراً، ووقي ضَيْراً.

ومنهم مولانا إبراهيم المغربي الرباطي، أدخلنا بيته برواق سيدنا عثمان بقرب المسجد، وأحسن ضيافتنا بعسل مصفّى، وخبز حُوَّارَى، تجاه القبّة النبوية ونحن بسطح الرواق، تتمتع بها الأحداق، والحمام عليها في الكثرة كضوضاء الجراد، خاشع خاضع لايتحرك.

ومنهم الأستاذ النجيب سيدي محمد المهدي المغربي الحمزي، وقام في خدمتنا والخروج معنا للزيارة، بلغه الله تعالى ما أمله.

ومن سكان طيبة الشيخ عبد الكريم بن محمد السمان[1] دخلنا داره وهي في القديم فيما اشتهر عندهم دار أبي بكر الصديق قبالة باب النساء من جهة الشرق، وسألته عن سبب انتقال دار أبي بكر إليكم فقال: قد ورثها جدّي من زوجته. فقلت: في تاريخ السمهودي ثم نقل كلاماً طويلاً عن «وفاء الوفاء» حول الدار المذكورة، ختمه بقوله: وهذا الرجل ــ أعني الشيخ عبد الكريم فيما يظهر لنا ــ يقتفي آثار والده في الصلاح، وقد كان والده رحمه الله صالحاً، نفعنا الله به، وقد كنت اجتمعت بولده هذا بمنى، في ضيافة بعض الأحبّة بها، ثم تلاقيت به بمكة أيضاً، ثم لما قفلنا راجعين من حجنا سأل عنّا فكان ذلك سَبَبَ دخولنا بيته المبارك، وله(...)[2] بحفظ كلام القوم، وكان فيما أنشدني لابن الفارض ببيته هذا قوله:

---

(١) في الهامش: (الشيخ السمان).

(٢) كلمة غير واضحة. وقد تكون (عناية).

مـابين بـاب المـنـحـنـى وظلاله ضـل المتيّم واهتـدى بـضـلالتـي

وفي «الرحلة الصغرى» (سنة ١٢١٢هـ) ذكر ممن اجتمع به من العلماء: عثمان الشامي والشيخ أحمد جمال الليل الشافعي.

من المدينة إلى مصر

السفر من المدينة: لم يستطع الركب المصري ـــ ورحّالتنا معه ـــ الرجوع من المدينة من الطريق الذى اعتاد الحجاج سلوكه في تلك الأعوام وهو يمر بذي الحليفة، فالفرش، فالروحاء فالمنصرف، حيث يعدل يميناً إلى أول الصفراء ثم ينحرف نحو الشمال متجهاً صوب ينبع، تاركاً طريق بَدْر يساره، والسبب ماوقع بين أمير الركب وبين قبيلة حَرْب سكان ذلك الطريق من الخلاف الذى تقدم ذكره عند الكلام على رابغ في العودة من مكة، وسيعيد المؤلف الكلام حوله. وهاهو يصف الطريق الذى سلكه الركب: ذكر أن خروجه من المدينة يوم الثلاثاء (١١ محرم سنة ١١٩٨هـ) بعد أن كان قد انعقد عزمه على الجوار، ثم صار يقدم رجْلاً ويؤخر أخرى، وبينما هو عند باب فاطمة بقرب الحجرة النبوية قابله ـــ فيما يقول ـــ إنسان مدّ يديه وعانقه على عادة المشارقة في من فرحوا به، وسالت دموعه وقال بلسان فصيح: أستودعك الله، والرجل أبيض إلى الحمرة، حسن الخلق جداً، ثم وصفه وقال: إنه سأل عنه أناساً كانوا معه فلم يعرفوه: (والله أعلم بحقيقة الحال) وأورد خبراً خرافياً عن رجل رغب المجاورة، فسمع صوتاً من القبر يأمره بالرجوع إلى بلده وأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا فرغ الحاج من الحج وتوابعه يقوم فيهم خطيباً يقول: ياأهل اليمن يَمَنَكُمْ، وياأهل الشام شامَكُمْ، وياأهل العراق عِرَاقَكُم. وقال: بعد ذلك سكن مابي وودعت وخرجت أتأهب ثم جمع أثاثه وركب دابته، ووجد رفقاءه قد برزوا قال:

في الجُرُف

وخرجت ـــ من المدينة ـــ فما تلاحقت مع الرفقاء وجُلّ الركب إلا بالجُرُف ـــ بضمتين ـــ على نحو فرسخ ونصف من المدينة، بلدة ذات نخيل ومياه جارية عذبة قريبة من أحد.

قال في «الروض المعطار»: الجُرُفُ على ثلاثة أميال من المدينة، مَرَّ به تُبَّعُ في مسيره فقال: هذا جُرُف الأرض، فَلَزِمَهُ. وقال الزبير: الجرف على ميل من

المدينة، وقيل على فرسخ من المدينة، وبهذا كان المسلمون يعسكرون إذا أرادوا الغزو. وفي حديث أنس مرفوعاً: «يأتي الدجال إلى المدينة فيجد على كل نقب من نقابها صفوفاً من الملائكة، فيأتي سبخة الجرف فيضرب خِبَاءه وقال أنس: خرجت مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى الجرف، فرآى في ثوبه احتلاماً فقال: بُلينا بالاحتلام منذ ولينا أمر المسلمين فاغتسل وغسل مابثوبه من الاحتلام، ثم صلى بعد أن طلعت الشمس.

وبالجرف مات المقداد بن الأسود رضي الله عنه وحمل على أعناق الرجال حتى دفن بالبقيع وصلى عليه عثمان رضي الله عنه.

ثم يتحدث عن اجتماع أناس من حرب بأمير الركب، وماجرى بينهم ولما في هذا الحديث من معلومات تتعلق بقبائلَ العرب النازلين في طريق الحج يحسن إيراده كاملاً قال:

خلاف مع العرب

في هذه الليلة اجتمعت أعراب حرب ومن كان في حلفهم على محاربة الركب إن لم يطلق لهم أمير الركب المصري عامر بن جويسر أميرهم وقد كان على ماتقدم، أخذه بقرب آبار علي، فامتنع المصري من إطلاقه وبعث إليهم عشرة آلاف ريال راتب سنة، فامتنعوا من قبوله وردوها بعد أن عُدّت لهم عدّاً، وقالوا: لانقبل شيئاً إلا إن دفعت لنا مرتب أربع سنين السالفة، وقد كنتم تزيدونا دية من قَتَلْتُم هذه السنين الماضية وإلا فإنا أصحاب حرب، فعند ذلك أجابهم: إن كانت بأيديكم طاقة فافعلوا مابدالكم، فنحن ذاهبون على الدرب السلطاني إلى ينبع النخل وهي وسط بلادكم فاجمعوا أمركم، وكل ذلك منه مكر(؟) وحيلة نظير مافعل معهم برابغ، فبعث منادياً ينادي بذلك، فلما طلع الفجر آذن بالرحيل، بعد ترتيب الجيوش وأخذ الدرب الشامي.

وهذا الدرب أوسع من الدرب المصري إلا أن معه صعوبة من كثرة الغبار وشدة البرد، وقلة الماء والساكن الذى ينتفع معه الحاج ببيع أو شراء ولا يجتمع مع المصري إلا بالأزلم(١) وسبب ماتقرر من العطاء بين المصري والأعراب الذين

(١) في الأصل: (الألزم) خطأ.

في طريق الحجاز أن بعض ملوك مصر بعث ابنة له حاجة، فذهبت بها الأعراب وقالوا لها: إن رجعتِ فقولي لأبيك يأتي لقتالنا على الخيل البُلْق. فلما وصلت امتنعت عن رؤية أبيها. فتقدم إليها في ذلك فقالت: لا ألقاك حتى تأخذ لي بالشأر من أعراب الحجاز، فقد عيروني وقالوا: قولي لأبيك: يأتي لقتالنا على الخيل البلق!! فعند ذلك تأهب والدها بجمع مافي إيالته من الخيل البلق وغيرها وذهب لقتالهم من مصر إلى مكة إلى المدينة حتى أفناهم وأجلاهم، فرجع إلى مصر فاجتمع إليه العلماء والرؤساء وقالوا له: نخشى علينا وعلى من وراءنا من قطع الحج بسبب ما فعلت مع أعراب الحجاز، وذلك أنهم إن تقوّوا منعونا فتكون أنت سننت سنةً يكون عليك وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة. فقال الملك: ماالرأي؟ أشيروا عليَّ في ذلك. فأشاروا عليه بحل هذه العقبة(؟) بالدينار والدرهم، فعند ذلك رتب لكل قبيلة عدداً معلوماً لكل سنة، إذا مرَّ الركب يذهب به إليهم، وكتب ذلك في ديوان، فعند ذلك اصطلحوا مع الأعراب، ثم إن السنين تطاولت وكثر الجور والطمع، فترى الأعراب يقولون: إن لنا من الدفتر القديم كذا ويقول المصريون: إنه أقل من ذلك، وبالعكس ترى الرجل من الأعراب يأتي إلى كاتب من أصحاب الأمير فيعطيه شيئاً ويكتب: كان له أو لأبيه أو جده كذا على (...) فيكثر اللغط والخصومات حتى أفضى بهم ذلك، للقتال، فلا حول ولاقوة إلا بالله، وأخشى إن طال هذا الأمر أن يتعطل الحج، وللركب الشامي مع أعراب دربه اليوم بعض ذلك أيضاً.

ذوخشب ووادي القُرى

ثم قال: وسرنا ــ من الجرف ــ في حفظ الله فما تعرض لنا سارق، ولا قام حول ساحتنا طارق، فررنا بثنية الوداع(؟) وبوادي القُرى، وفيه يقول الصلاح الصفدي:

مررنا بوادى القرى ضحوة ودسنا به المهمه الأغبرا

فأمطرنا الله ذاك النهارْ وكان قرانا بوادى القرى

قال: وتعجبنا لما به من آثار القرون الماضية، ومانالوا في أوطان أوطارهم من العيشة الراضية، وكان ذلك عبرة لمن تفكر، وآية لمن تذكر(١).

قال في «الروض المعطار»: وادي القرى من عمل المدينة، وهي مدينة عامرة كثيرة النخل والبساتين، وبها ناس من آل جعفر بن أبي طالب وهم الغالبون عليها، ولما فرغ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من خيبر انصرف إلى وادي القرى فحاصر أهلها ليالي، ثم انصرف راجعاً إلى المدينة. قال أبو هريرة رضي الله عنه: نزلنا مع غروب الشمس فبينما غلام رسول الله صلى الله عليه وسلم يَضَعُ رحله إذا أتاه سَهْمٌ غرب فقتله، فقال الناس هنيئاً له الجنة. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «والذى نفس محمد بيده إن الشملة الآن لتحترق عليه في النار» كان غَلّها من فيء خيبر ــ الحديث ــ.

آبار نصيف

ثم قال محمد بن عبد السلام: وسرنا حتى نزلنا ــ وقد مضى من الليل ساعات ــ آبار نصيف ذات المياه العذبة، وفيها المالح وتعذب بماء الأمطار إن نزلت بها وليس بها عمارة ولاسوق(؟) وبها سمعت أعرابياً يقول لحاج: ابغني بَرْدعة بعير اشترها. من بغا الشيء يبغو: نظر إليه، أو من بغيته أبغته بغاءً طلبته. وإبغاء الشيء طلبه له كبغاه إياه أعانه على طلبه والمعنى على الأول: أنظر لي بردعة أشترها، وعلى الثاني: اطلبها لي ــ كما في «القاموس» ــ.

---

(١) كذا قال وهنا خَطآنِ: أولهما أن ثنية الوداع إلى المدينة من ذي خشب ــ على اختلاف في موقعها، وقد ذكره السمهودي في «وفاء الوفاء». وانظر مجلة «العرب» س ١٧ ص ٤١٤.
والخطأ الثاني: أن الوادي الواقع بعد الجرف هو وادي ذي خشب، وإطلاق اسم وادي القرى عليه خطأ وقع فيه كثير من الرحالة من القرن العاشر الهجري فما بعده كما في رحلة القطبي والخياري والنابلسي وغيرهم. أما الصفدي وصاحب «الروض المعطار»: فيقصدان وادي القرى الذي تقع فيه العلا لاهذا الوادي الموالي للجرف، فهو الذي فيه الآثار القديمة.

الفحلتان

وقال: منها ــ يعنى آبار نصيف ــ وقد مضى من النهار أربع ساعات، ونزلنا الفحلتين وقد مضى من الليل خمس ساعات، وبها قلعة صغيرة حصينة يسكنها الحرس وآبار عذبة، يخزن بها الشامي على عادة بنادر درب المصري، وقد حدثت البنادر بالدرب الشامي في هذه الأزمان، وقبل ذلك لم تكن فيه، إلا أن عادة من يحرس هذه البنادر الشامية لايتركون من مَرَّ بهم من حجاج المصريين ولا غيرهم أن يدخلها، وإنما يُسَوّقونَ خارجها.

هَدِيّة:

قال محمد بن عبد السلام: ثم منها ــ الفحلتين ــ وقد مضى من النهار بعده أربع ساعات ونزلنا هدية مع طلوع الشمس، قلعة ذات آبار وفسقية، وماؤها ليس بذلك إلا بقرب الحفر أو المطر، وقامت بها سوق مع أعراب عنزة.

الجديد، الزمرد، حفائر الغنم

وقال: ثم منهاــ هدية ــ وقد مضى من نهارنا ثمان ساعات، ونزلنا بئر الجديد، العذب الماء، العديم النظير، وبه قلعة، وقد مضى من النهار بعده أربع ساعات، ونزل علينا به مطر غزير وبرد شديد.

ثم منه وقد مضى من نهارنا تسع ساعات ومررنا ليلاً ببئر الزمرد، وهي عذبة وفي موضعها قلعة وفسقية ولازال البناؤون بها.

وسرنا حتى نزلنا حفائر الغنم بعد انتصاف النهار، وبه قلعة في سبخة كبيرة ذات آبار كثيرة متنوعة بالعذب وغيره.

وماقطُّ رأينا مثل هذه الرحلة في درب الحجاز طولاً وبرداً حتى مات بها خلق كثير من الجوع والبرد، وقد غلت الأسعار حتى وصل علف الدابة المثقال من الذهب.

ومن هنـا افترقنا مع الدرب الشامي، تركناه يُمْنتنا ورجعنا ذات اليسار في درب يقال له درب القزاز، وهو فوق مابين دربي المصري والشامي اليوم، وأما سالف الدهور فإن الشامي يأتي على غَزَّة ثم منها إلى عقبة أيلة على الدرب المصري، ثم تُرِكَ هذا الطريق لأجل طولها (؟) وكثرة دورانها.

بـدا

قال: ثم ارتحلنا من حفائر الغنم وقد مضى من النهار بعده ساعة(؟) ونزلنا البلاطة(؟) وهي فضاء بين جبال في صخور، لا ماء به ولا كلأ، بعد مضي ست ساعات من النهار، ثم منها وقد مضى من نهارنا عشر ساعات ونزلنا بَدَا، موضع كثير شجر الدوم والغيلان(؟) وبه بئر قليلة الماء لم تغن شيئاً، وآثار عمارة قديمة من بنيان وآبار متهدمة، وقد مضى من النهار بعده ست ساعات، وهذه المرحلة واللتان قبلها أيضاً هلك بها من الآدميين والدواب الكثير.

القـزاز

قال: ثم منه — بدا — في الساعة الأولى من الليل بعده، ونزلنا القَزَاز في الثامنة من ليلنا، وهو تقطن به جماعة من الرحل، وبه كثرة الدوم الطويل، آباره عذبة إلا أن ماءها ضنين، حتى وقعت عليه المقاتلة ثم لم يغن شيئاً، ومن لطف الله تعالى أن ضرب الناس يميناً وشمالاً حتى وقعوا على غدير من المطر في جبل قريب من منزل الركب أروى الركب بأجمعِهِ، وحملوا منه ما فيه الكفاية.

وقال في الرحلة الصغرى: ثم ارتحلنا — من آبار الغنم — راجعين ذات اليسار لدرب القزاز الصغير، ثم منه الكبير، ثم منه للأزلم.

الأزلـم

وقال في الكُبْرى: ثم منه — القزاز — وقد مضى من النهار ثمان ساعات في رَمْلٍ مديد، ولم ننزل الأزلم[1] مجتمع هذا الدرب السلطاني — الذي تركناه —

(١) ويلاحظ هنا أنه يسمى الأزلم: الألزم، والحويطات: الأحويطات، وينبع ينبوع وكل هذا خطأ =

إلا في الساعة السادسة من النهار بعده.

ووقع الغلاء في الركب مع أن أعراب الأحْويطات[1] وبعض أعراب نواحي ينبوع سوقونا، ولم يغنوا شيئاً.

وقد وقع بنو سعد على طائفة تأخرت عن الركب، فأخذوا منهم الإبل وما عليها وقتلوهم وجرحوهم(؟).

وقال في الرحلة الصغرى: ثم من درب القزاز الكبير للأزلم، وبه نلتقي بالدرب السلطاني.

سَلْمى ، المويلح

وقال في الكبرى: ثم منه — يقصد الأزلم — لسلمى ثم للمويلح. وبالقرب منه قطع أمير الحاج المصري رؤوس محاربين تعرضوا للركب ورفعهم على قارعة الطريق وأقمنا به يومين. وقد غلت الأسعار حتى صار صاع النبي صلى الله عليه وسلم بريال كبير.

ثم لما رأي الأمير أيوب — أعني أمير الركب — ذلك نادى في الناس: ألا إن من أراد الفول والشعير فهذه هي خمسة آصع نبوية بريال حتى أنفد جُلَّ ما عنده، لعلمه أن الملاقاة بمغارة شعيب حسبما جاءه الخبر بذلك، فنفّس إذ ذاك عن الناس ما نزل بهم، فرخصت الأسعار بعض الرخص وكان والله حليماً شفيقاً مدبّراً عاقلاً.

وقال في الرحلة الصغرى: وقد كان تقدم أمامنا ونحن بآبار الغنم الركب الجزائري ومن انضاف إليه من المغاربة الجوّانية، ووقعت عليهم الأعراب فيما بين آبار السلطان والمويلح، ووقعت بينهم ثائرة عظيمة هلك بها الكثير، ونهبت بها أموال. وكان ممن تقدم معهم زوجة شيخنا الإمام التاودي بن سودة الفاسي، فوقع بها ما وقع حتى لم يبق لها دانق.

ـــ كما يطلق على العرب الذين قتلوا الحجاج اسم بني سعد، كما أطلق هذا الاسم في مواضع أخرى.

(١) ص ٣١٢.

في مغاير شعيب

ثم منه ـ المويلح ـ لعيون القصب، ثم للمغاير. وأقمنا بها يومين حتى وصلت الملاقاة من مصر مع صاحبها جيش سلطاني، ففرح الناس غاية، وأخلوا البنادق والمدافع.

الشرفة

وقال في الكبرى: ثم منها ـ المغاير ـ للشرافة[1] وبها استهل (؟) لنا هلال صفر، وفيه توفي على ظهر جمله الفقيه سيدي عبد الكريم بن قَريش التطواني، ودفن بها ـ رحمه الله تعالى ـ.

إلى العقبة

وقال : ثم منها ـ الشرفة ـ لظهر الحمار، ثم لبندر العقبة.

وأصبنا في هذه الأيام الثلاثة سموم باردة في وادي القَر أضرت الناطق والصامت.

وسوقنا بهذا البندر على العلاوة[2] الأعراب، وأهل غزَة من أرض الشام، فوقع في الركن رخاء كثير.

وقال في الرحلة الصغرى: فوصلنا بندر العقبة وبه هلك مولانا أحمد بن مولانا أمير المؤمنين سليمان بن محمد ـ نصره الله ـ بالبطن شهيداً، وكان صغيراً دون بلوغ(؟) رحمه الله. ودفناه بعد(؟) البندر حيث ضريح الشيخ إبراهيم اللقاني... وأقمنا بالبندر ثلاثة أيام، يقبض أمير الركب المصري قاسم بَاي ـ أبو سيف به شهر ـ المكسَ من الحجاج المغاربة وغيرهم، وقد كان قبض من أهل فاس

(١) كذا سمى الشرفة خطأ. وقد تقدم كلامه عليها وعلى المواضع التى بعد الأزلم، وذلك في وصفه للطريق من مصر إلى مكة.

(٢) سماهم هنا العلاوة ـ والكلمة غير واضحة ـ ولكنه سماهم عند ذكر العقبة في المجيء من مصر الأعلاوين، وهو يقصد بالاسمين العلاوين.

بالخصوص. سبع مئة ريال، وبالمدينة المنورة أحد عشر ريالاً بطاقة، ظلماً وعدواناً ومكساً في مدينة الرسول، لاأربح الله تجارته، ولاأعاد على المسلمين سنته.

في النّخيل

وقال في الكبرى : ثم منه ــ بندر العقبة ــ بير الصعايد، ويقال لهذا المكان العلاء ثم منه للنخيل، وسوقنا به أهل غزة من أهل الشام أيضاً على عادتهم، وبه مات أناس وبهائم بالبرد، وآخرون بالمرض.

التيه ـ عجرود

وقال: ثم منه للتيه، ثم لعجرود وبه تلقى أهل مصر الركب بكل المحتاج، فحصل رخاء عظيم، لم نَرَ مثله في الحجاز ذهاباً وإياباً.

ومن هنا يأتي المكّاسُون من مصر لعدّ أحمال الحجاج فيكتبون في دفتر ما لكل واحد من الأحمال، ثم إذا وصلوا إلى مصر أدّوا الخراج. وقد رأيت في سنتنا هذه نصرانياً من الإفرنج يحسن العربية والكتابة بها والحساب، وهو الذي تولى عدّ ذلك على المسلمين قطع الله تعالى دابر هؤلاء الظلمة والفجرة، وحسم مادّة هذه العادة المذمومة، ولقد كابد الناس معهم على هذا العطا(؟) مشقة عظيمة، حتى فتّشوا الأحمال، والمحيط من ورائهم الكبير المتعال.

وقال في الرحلة الصغرى: ثم ارتحلنا من السطع لبئر الصعاليك، ثم منه للنخيل، وأقمنا به يوماً ثم منه لتيه(؟) ثم منه لعجرود، وأقمنا به يومين، ووقعنا كسائر الركاب في عطش شديد، أفضى بنا لشرب ماء عجرود وسانية سويس، والكل نتجرّعه ولانكاد نسيغه، فبيئس الشرب يخرج كما دخل.

والقصد بالإقامة قبض المكوس الموقفة على الحجاج، والمتولي لقبض ذلك من المسلمين بعض الإفرنج من النصارى، بتقديم فراعنة مصر من ولاة الغزّ، أخلى الله منهم هذه البلاد، وأراح منهم العباد.

الدار الحمراء

وقال في الكبرى: ثم منه للدار الحمراء، ويقول لها أهل مصر في الرجعة الدار الخضراء لاخضرارها بما يصلهم إليها من أهاليهم بمصر من أنواع الأطعمة والبطيخ والفواكه والحلويات والأشربة من سكر ونحوه، ولعل البوصيري في الهمزية رآى ذلك فعبّر عنه بالخضراء ــ والله أعلم ــ .

في البركة

وقال في الكبرى: ثم منها ضحوة الخميس الثاني عشر من صفر (سنة ١١٩٨هـ) بلغنا مصر ــ حرسها الله تعالى ــ وتلقى أهلها الركب بقضِّهم وقضيضهم مشاة وركباناً، كهولاً وشيوخاً وصبياناً، فلو رأيت الفلاحين(؟) بالبركة وفيما بينها وبين مصر، منهم الباكي لموت قريبه، والمستبشر بقدومه، لقضيت العجب، فهم على كثرتهم في سفرهم إلى الحج لايعبأون ببعث الرسائل إلى مصر، ولأهاليهم ببعثها إليهم، ومن لم يظهر يوم دخول الحاج عُلِمَ أنه قد مات، لأن منهم من يذهب بإبله حاجّاً، ومنهم من يذهب صعلوكاً يستخدم نفسه، ومنهم من يذهب عالة على الناس، حتى يموت جوعاً أو عطشاً لايُدْرى في أيّ واد، فسبحان خالقهم ورازقهم. وكان ممن قدم لملاقاتنا الكثير ممن خلفنا وراءنا من حجاجنا المغاربة أهل السفن، وكانوا زهاء ألفين، إذْ لم يحصل (؟) غالبهم مصر إلا بعد ذهاب الركاب بأيام فاستحال الحج.. في حقّهم فخرجوا لملاقاتنا وكان ممن خرج لملاقاتنا أخونا الفقيه سيدي أحمد الهلالي الشريمي وأدخلنا على باب الفتوح وقال تفاؤلاً: لأنك خرجت للحرمين من باب النصر، وتدخل من باب الفتوح[1].

(١) ص ٣١٣.

فهرس الموضوعات

القسم الثاني

ملخص رحلتي ابن عبد السلام الدَّرعي

الرياض
ص.ب / ١٥٩٠
تلفون ٤٧٧٧٢٦٩

مطابع الفرزدق التجارية - الرياض
ت : ٤٨٢٤٩٨٣ الدرعية
ت : ٤٧٨٨٥١٠ الملز



المؤلف بقلمه

حمد الجاسر

في عام ١٣٢٨ - تقريباً - وُلِدَ حمد بن محمد بن جاسر آل جاسر في قرية (البُرُود) لأبٍ فلاحٍ، من أُسرة قُدِرَ عليه...
ونشأ عليل الجسم، وتوفيت أمه وهو في [illegible]، وفي مدرسة القرية (الكُتّاب) تعلَّم مبادئ القراءة والكتابة
القرآن الكريم نظراً، وفي عام ١٣٤١ - وكل أبوه أمره لقريب له طالب علم في (الرياض) فحفظ القرآن غيباً، وقرأ
المتون المختصرة على المشايخ - كعادة طلبة العلم في ذلك العهد - وبوفاة ذلك القريب عاد من الرياض لـ...
أباه قد أنهكه المرض، وقد تفرق شمل الأسرة، فكفله جَدُّه لأُمِّه (مطوّع) أهل القرية، وهو من أهل الصلاح و...
فصار يقرأ عليه في بعض الكتب، ويقوم بالخطابة والوعظ في المسجد لكبر سن جده وضعف بصره، وتولى تعليم أطفال...
فترة، ولكنَّ أخاه الكبير لم يرضَ حالته فذهب به إلى (الرياض) في عام ١٣٤٦ وسعى حتى ضُمَّ إلى (الإخوان...
طلبة العلم، فعاش كأحدهم، وانتظم معهم في الدراسة على المشايخ في المساجد، ومن أشهرهم سعد بن حمد بن عتيق...
صالح بن عبد العزيز آل الشيخ - قاضيا الرياض - ومحمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ، في التوحيد والفقه و...
والنحو والفرائض. وفي عام ١٣٤٨ حجَّ وأُلحِقَ بـ (المعهد السعودي) وفيه تخرَّج عام ١٣٥٢ من (قسم التخصص...
في القضاء الشرعي) ففضَّل مهنة التدريس، وتنقَّل فيها في يَنْبُع وجُدَّة ومكّة والأحساء والظهران...
وتخلَّل ذلك القضاء فترة وجيزة في (ظبا) ثم عاد للتدريس، وآخر عمله فيه إدارة كليتي (العلوم...
و(اللغة العربية) في الرياض في عام ١٣٧٦ وكان قد أنشأ أول صحيفة في الرياض (اليمامة) سنة ١٣٧٢ وأو...
فاتَّجَهَ للعمل في الصحافة، ثم انصرف للتأليف والتحقيق والنشر، فأنشأ (دار اليمامة للبحث والترجمة و...
ومُنِحَ مع إخوة له إجازة إنشاء (مؤسسة اليمامة الصحفية) وعمل في الصحافة زمناً، وأصدر...
...د العرب" التي قطعت نصف عامها السابع عشر هذا العام، ولا يزال يعمل فيما اتجه إليه، وهو يأ...
...ر ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل!! - أن ينسأ الله له الأجل، ليرى ثمرة ذلك العمل، وما أعز...
أُمنيته!!

مُنىً إنْ تَكُنْ حقاً تكنْ أحسنَ المُنى ... وإلّا فقد عِشْنا بها زمناً رَغْدا

الرياض: ٢٢ شعبان ١٤٠٢هـ
الموافق ١٥/٦/١٩٨٢م

حمد ا...

الثمن : عشرون ريالا